

ول
وايرل ديورانت

قصة الحضارة

23

الإصلاح الديني



قصة الحضارة

ول وَايرئيل ديورانت

الإصلاح الديني

وهو يروي تاريخ الفسادة الأوروبية خارج إيطاليا
من وكليف إلى لوتر ١٣٠٠-١٥١٧

ترجمة

الدكتور عبد الحميد تونس

الجزء الثاني من المجلد السادس



تونس

٢٣

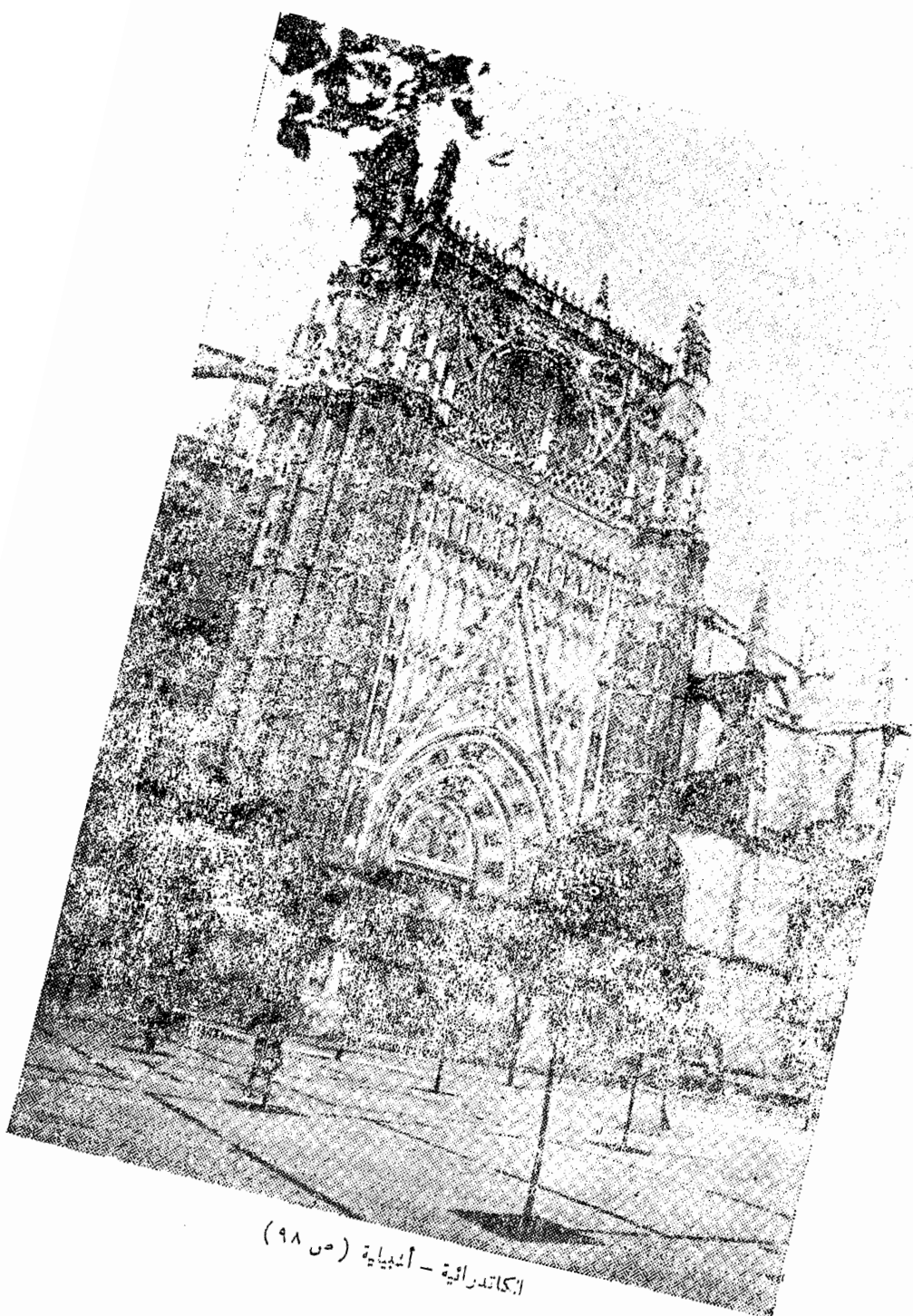


بيروت

فهرس الجزء الثانى من المجلد السادس

الموضوع	صفحة
الفصل التاسع : الصقالبة الغربيون (١٣٠٠ - ١٥١٧)	١
١- بوهيميا	١
٢- جون هس (١٣٦٩ - ١٤١٥)	٤
٣- الثورة البوهيمية (١٤١٥ - ٣٦)	١١
٤- بولندة (١٣٠٠ - ١٥٠٥)	١٩
الفصل العاشر : المد العثمانى (١٣٠٠ - ١٥١٦)	٢٤
١- الازدهار الثانى فى بيرنطة (١٢٦١ - ١٣٧٣)	٢٤
٢- أمارات البلقان تلتقى بالترك (١٣٠٠ - ٩٦)	٣٠
٣- السنوات الأخيرة للقسطنطينية (١٣٧٣ - ١٤٥٣)	٣٤
٤- هانيدى جانوس (١٣٨٧ - ١٤٥٦)	٣٨
٥- المد فى هنفواته (١٤٥٣ - ٨١)	٤٢
٦- النهضة الهنغارية (١٤٥٦ - ٩٠)	٤٤
الفصل الحادى عشر : البرتغال تسهل الثورة التجارية (١٣٠٠ - ١٥١٧)	٥٠
الفصل الثانى عشر : أسبانيا (١٣٠٠ - ١٥١٧)	٥٩
١- الشجيد الإسباني (١٣٠٠ - ١٤٦٩)	٥٩
٢- غرناطة (١٣٠٠ - ١٤٩٢)	٦٦
٣- فرديناند وإيزابيلا	٧١
٤- وسائل محكمة التفتيش	٧٧
٥- تقدم محكمة التفتيش (١٤٨٠ - ١٥١٦)	٨٦
٦- هجرة إسرائيل	٩١
٧- الفن الإسباني	٩٨
٨- الأدب الإسباني	١٠٤
٩- موت الملك	١٠٧
الفصل الثالث عشر : نمو المعرفة (١٣٠٠ - ١٥١٧)	١١٣
١- السحرة	١١٣
٢- الممنون	١٢١

الموضوع	صفحة
٣ - العلماء	١٢٦
٤ - المعالجون	١٣٥
٥ - الفلاسفة	١٤٠
٦ - المصلحون	١٤٨
الفصل الرابع عشر : غزو البحر (١٤٩٢ - ١٥١٧)	١٥٩
١ - كولمبس	١٥٩
٢ - أمريكا	١٦٥
٣ - مياه المزاراة	١٦٩
٤ - المنظور الجديد	١٧٧
الفصل الخامس عشر : أراز موسى الرائد (١٤٦٩ - ١٥١٧)	١٨٠
١ - تربية عام بالإنسانيات	١٨٠
٢ - المشائى	١٨٤
٣ - الهجاء	١٨٩
٤ - العلامة	٢٠٠
٥ - الفيلسوف	٢٠٦
٦ - الإنسان	٢١٠
الفصل السادس عشر : ألمانيا قبيل عهد لوتنر (١٤٥٣ - ١٥١٧)	٢١٦
١ - عصر آل فوجر	٢١٦
٢ - الدولة	٢٢٧
٣ - الألمان (١٣٠٠ - ١٥١٧)	٢٣١
٤ - نضج الفن الألماني	٢٣٨
٥ - أبرخت ديرر (١٤٧١ - ١٥١٧)	٢٤٨
٦ - علماء الإنسانيات الألمان	٢٦٢
٧ - أولريخ فون هوتن	٢٧٢
٨ - الكنيسة الألمانية	٢٧٦



الكنيسة القوطية - ألمانيا (ص ٩٨)



المنارة (الكنيسة الأصلية) - أشبه بمله

الفصل التاسع

الصقالة الغربية

(١٣٠٠ - ١٥٧١)

١ - بوهيميا

لا يزال الصقالة إلى الآن أشبه بالموجات البشرية تجيش أحياناً ناحية الغرب إلى الألب ، وجنوباً إلى البحر الأبيض المتوسط ، وشرقاً إلى الأورال ، وشمالاً إلى البحر المتجمد ، وقد ردهم إلى الغرب بعد ذلك في الثالث عشر ، النمرسان الليفونيون والنيوتون ، أما في الشرق فقد خضعوا لسيطرة المغول والتتار - وقادت بوهيميا في القرن الرابع عشر الإمبراطورية الرومانية المقدسة والإصلاح الديني قبل لوثر ، كما اتحدت بولندة مع ليتوانيا التي كانت متسعة الأرجاء : فأصبحت دولة كبيرة ، ذات طبقة عليا على حظ رفيع من الثقافة . وتحررت روسيا في القرن الخامس عشر من نير التتار ووحدت إماراتها المبعثرة في دولة ضخمة . وهكذا دخل الصقالة التاريخ كدرجة من موجات المد البشري .

وانتهت أسرة تبرزملد العريقة في بوهيميا بموت ونسلوس عام ١٣٠٦ وأعقبها فترة من الزمان حكم فيها ملوك صغار الشأن ثم جاء الناكبون من البارونات ورجال الدين بجون أمير لكسمبورج ، ليؤسس أسرة حاكمة جديدة (١٣١٠) . وأصبحت بوهيميا بفضل مغامراته الباسلة قلعة منيعة من قلاع الفروسية جيلا من الزمان ، وتعذر عليه أن يعيش بلا صولات وجولات حتى إذا ثبت له أن هذه الفروسية لا ضرر منها على الإطلاق ، اندفع إلى الحرب في كل مملكة من ممالك أوروبا تقريباً . وأصبح من الكلم

المأثور في تلك الأزمنة أنه لا يتحقق شيء بغير العون من الله وملك بوهيميا .
فالتمست برسكيا التي حاصرتها فيرونا ، أن يمد لها يد المعاونة ، فوعد
بالقدوم إليها ، وما كادت الأخبار تشبع بوعده هذا حتى رفع الفيرونيون
الحصار واعترفت به مختارة برسكيا وبرجامو وكريمونا وبارما ومودينا بل
وميلان أيضاً : سيداً إقطاعياً عليها في مقابل أن يبسط حمايته عليها جميعاً ،
وقد استطاع هذا الملك بسحر اسمه أن يحصل على معظم ما عجز عن تحقيقه
بقوة السلاح فردريك الأول ذو اللحية الحمراء ، وفردريك الثاني أعجوبة
الزمان وأضافت حروبه الجريئة مساحة من الأرض إلى بوهيميا ولكنها
أفقدته عواطف رعاياه ، الذين لم يستطيعوا أن يغتنروا له غيابه الدائم عن
بلادهم ، التي أهمل إدارتها ، وحز في نفوسهم أنه لم يفكر قط حتى في أن
يتعلم لغتهم . وفي عام ١٣٣٦ لازمه مرض عضال كف بصره وهو يخوض
معركة صليبية في ليتوانيا . ومع ذلك - فإنه عندما علم أن إدوارد الثالث
ملك إنجلترا نزل إلى البر في نورمانديا متجها صوب باريس ركب مع
ابنه شارلز في خمسمائة فارس بوهيمي ، وعبروا أوربا ليكونوا مدداً لملك
فرنسا . وحارب الأب والإبن في الطليعة عند كريسى . حتى إذا
انسحب الفرنسيون ، ناشد الملك الكفيف اثنين من فرسانه ، أن يربط
جواديهما إلى جانبي جواده وأن يقوداه لمحاربة الإنجليز المنتصرين ، قائلا :
« هذه مشيئة الله ، ولن يقال إن ملكاً على بوهيميا قد فر من حومة الوغى »
وقتل من حوله خمسون - من فرسانه . وأثنى بحرح مميت : ثم نقل وهو
يحتضر إلى خيمة الملك الإنجليزي . . فأرسل إدوارد الجثة إلى شارلز ومعها
رسالة مهذبة يقول فيها : لقد سقط اليوم تاج الفروسية » .

وكان شارلز الرابع ملكاً أقل بطولة وأرشد عقلا . فأثر المفاوضة على
الحرب ، ولم يكن من الجبن بحيث يقبل الخوان ، ومع ذلك فقد وسع من
حدود مملكته ، وجعل الصقالبة والألمان إبان السنوات الاثنتين والثلاثين من

حكمه ، يعيشون في سلام غير مألوف . وأعاد تنظيم الحكومة ، وأصلح القضاء ، وجعل براغ من أجمل مدن أوربا . وشيد فيها مقراً ملكياً على طرز اللوفر ، والقاعة الشهيرة كارلشتين أى « حجر شارلز » لتكون داراً أمينة لمخفوظات الدولة وجواهر التاج — التي أودعت فيها لالمباهاة والعرض بل لتكون مالا احتياطياً منقولاً حصيناً يصلح غطاء للعملة . واستقدم ماثيو الأراسى لكى يصمم كاتدرائية القديس « فيتوس » وتوماسو الموديناوى ليرسم صوراً جصية على جدران الكنائس والقصور . وعمل على حماية الفلاحين من الاضطهاد ونهض بالتجارة والصناعة . وأنشأ جامعة براغ (١٣٤٧) ، ونقل إلى مواطنيه الولع بالثقافة الذى اكتسبه في فرنسا وإيطاليا وشحن الحافظ الفكرى الذى فجر الثورة الهوسية ، وأصبح بلاطه مركز الدارسين الإنسانيين البوهيميين ، وعلى رأسهم الأسقف جون الاسترساوى صديق بترارك . ولقد أعجب هذا الشاعر الإيطالى بشارلز فوق إعجابه بأى ملك من ملوك ذلك العصر وزاره في مدينة براغ ، وناشده أن يغزو إيطاليا ، ولكن شارلز كان أرشد فكراً وكان حكمه ، على الرغم من نشرته الذهبية هو عصر بوهيميا الذهبى . وهو باق يبتسم ، في تمثاله النصفى من الحجر الجي ، في كاتدرائية براغ .

وكان « ونسيسلوس الرابع » في الثامنة عشرة من عمره عندما مات أبوه (١٣٧٨) ، ولقد أكسبته فطرته الطيبة ، وحب شعبه ، وترفته في فرض الضرائب عليهم وبراعته في الإدارة ، محبة الجميع ما عدا النبلاء الذين رأوا أن شعبيته تعرض امتيازاتهم للخطر . وانتهت سوررات غضبه حيناً وإدمانه الشراب حيناً آخر بهؤلاء النبلاء إلى خلعه ، ففاجأوه في مقره الربى وألقوا به في السجن (١٣٩٤) ، ولم يعيدوه إلا بعد أن أخذوا عليه العهد بأن يمتنع عن الإقدام على أى عمل له أهميته دون موافقة مجلس من النبلاء والأساقفة . ونشأت فتن أخرى ، واستدعى سيجسموند ملك المجر ، فقبض على أخيه

ويسسلوس وأخذه أسيراً إلى فينا (١٤٠٢) . وفر الرجل بعد ذلك بأعوام قلائل ، واتخذ طريقه عائداً إلى بوهيميا فاستقبله الشعب مبتهجاً ، واستعاد العرش والسلطان . واختلطت البقية الباقية من قصته بمأساة هس .

٢ - جون هس

(١٣٦٩ - ١٤١٥)

كان ونسيسلوس محبوباً مكروهاً في آن واحد ، لأنه تسامح مع المراطقة وتشدد مع الألمان . حثم التسلل السريع في بوهيميا من عمال المناجم وأصحاب الحرف والتجار وطلاب العلم ، عداوة عنصرية بين التوتون والتشيك ، وكان هس حرياً بالأ يلقى التأييد من الملك والشعب لولا أنه رمز لكراهية قومية للتفرق الألماني . ولم ينس ونسيسلوس أن رؤساء أساقفة ألمانيا قادوا حركة خلعه عن العرش الإمبراطوري ، وتزوجت أخته آن رتشارد الثاني ملك إنجلترا وفطنت إلى - ولعلها عطفت على - محاولات ويكليف ؛ أن يفصل إنجلترا عن الكنيسة الرومانية . وفي عام ١٣٨٨ خلف أدلبرت رانكونيس مبلغاً من المال يعين الطلاب البوهيميين على الذهاب إلى باريس أو أكسفورد . وحصل بعض هؤلاء أو نسخوا بعض مؤلفات ويكليف وحملوها معهم إلى بوهيميا ، وأقام ميلتش الكرومريزي وكونراد ولد هوزر ، براغ وأقعداها باتهاماتهما لرجال الدين والعلمانيين بالخروج على الأخلاق ، وواصل ماتياس الجنوفي وتوماس السيتني هذه الدعوة فأيدها الإمبراطور بل أن أرست كبير الأساقفة قد وافق عليها ، وفي عام ١٣٩١ ، أقيمت في براغ كنيسة خاصة سميت كنيسة بيت لحم لتقود حركة الإصلاح . وفي عام ١٤٠٢ عين جون هس واعظاً لهذه الكنيسة .

ولقد بدأ حياته في قرية هوسينتز ، وعرف باسم جون الهوسينتزي الذي اختصره فيما بعد إلى هس . وجاء حوالي عام ١٣٩٠ إلى براغ وهو

طالب فقير وكسب عيشه بالخدمة في الكنيسة ، وكان أمله أن ينخرط في زمرة
القساوسة ، ومهما يكن من شيء ، فقد انضم إلى طرائق الشباب البوهيمي
جرياً على سنة العصر ، وهو ما أسمته باريس بعد ذلك « بالبوهمية » المرحّة
للشباب الجامعي ، وحصل عام ١٣٩٦ على أجازة أستاذ في الآداب ، وبدأ
يلدرس في الجامعة ، واختير عام ١٤٠١ عميداً لكلية الآداب - أو بعبارة
أخرى عميداً للدراسات الإنسانية ورسم في ذلك العام قسيساً ، وأصلح حياته
حتى اقرب بها إلى زهد الرهبانية ، وأصبح باعتباره رأس كنيسة بيت لحم ،
أشهر واعظ في براغ ، وكان بين المستمعين إليه كثيرون من رجال البلاط ،
وقد نصبته الملائكة صوفياً واعظاً لها . وأخذ يلقى عظاته باللغة التشيكية ، وعلم
رجال كنيسته أن يسهموا بنصيب إيجابي في الصلاة بترتيل الأناشيد الدينية .
ولقد أكد الذين اتهموه فيما بعد أنه ردد في السنة الأولى من عمله
الكهنوتي شكوك ويكلييف حول اختفاء الخبز والنبذ من العناصر المقدسة في
العشاء الرباني . وليس من شك في أنه قرأ بعض مؤلفات ويكلييف ، ودون
نسخاً منها لا تزال باقية بتعليقاته عليها ، واعترف في محاكمته أنه قال « إنني
على ثقة من أن ويكلييف سينجو ، ولكن لو اعتقدت أنه سيعذب لتمنيت أن
تكون روحى مع روجه » ونالت آراء ويكلييف عام ١٤٠٢ في جامعة براغ
حظاً من الشهرة جعل القوامين على الإدارة الكهنوتية في الكاتدرائية يتقدمون
إلى أستاذة الجامعة بخمسة وأربعين نصاً مختاراً من كتابات ويكلييف
متسائلين : هل تمنع الجامعة هذه الأقوال ؟ - فأجاب عدد من الأساتذة
بينهم هس بالنفي ، ولكن الأغلبية حكمت أنه لا يجوز منذ ذلك الحين لأى
عضو من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة ، أن يدافع أو ينتصر بصورة
علنية أو سرية لقول من هذه الأقوال الخمسة والأربعين .

ولابد أن يكون هس قد تجاهل هذا التحريم ، لأن رجال الدين في
براغ التمسوا عام ١٤٠٨ من زيبينك كبير الأساقفة أن يزجره . فاستجاب

لهم كبير الأساقفة بجنر لأنه كان وقتذاك على خلاف مع الملك . ولكن هس استمر في عطفه على آراء ويكلييف فأصدر عليه زيينك وعلى عدد من زملائه قرار الحرمان (١٤٠٩) حتى إذا أصروا أن يمارسوا وظائفهم الكهنوتية ، جعل براغ بأسرها تحت وطأة قرار الحرمان . وأمر بأن تسلم إليه كل ما يوجد من كتابات ويكلييف في بوهيميا وأحضرت إليه مائتا مخطوطة ، فأحرقها في ساحة قصره . فاستأنف هس القرار إلى البابا المنتخب حديثا يوحنا الثالث والعشرين . فاستدعاه ليمثل أمام المحكمة البابوية : فأبى أن يذهب إليها .

ورغب البابا عام ١٤١١ في الحصول على أموال للقيام بحملة صليبية على لاديسلاس ملك نابولي ، فأعلن عرضاً آخر لصكوك الغفران . ولما أذيع ذلك في براغ وبدا للمصلحين أن عملاء البابا يبيعون الغفران بالمال ، دعا هس ومؤيده الأول جيروم البراغى ضد هذه الصكوك ، وناقشا وجود المطهر ، واحتجا على جمع الكنيسة للأموال لإهراق الدم المسيحى . وهبط هس إلى القنح فوصف البابا بأنه « نابش الأموال » وزاد على ذلك بأنه ضد المسيح . وشارك بجانب كبير من الشعب ، هس في آرائه وعرض عمال البابا للسخرية والانتقاص ، إلى حد جعل الملك يحرم كل دعوة أو عمل بعد ذلك ضد صكوك الغفران . وخرج ثلاثة من الفتيان على هذا المرسوم ، فاستدعوا إلى مجلس المدينة ، ودافع هس عنهم ، واعترف بأن دعوته أثارتهم ، فأدينوا وقطعت رؤوسهم . وعمل البابا في تلك الفترة على توجيه حرمانه إلى هس . ولما تجاهل الرجل القرار أصدر يوحنا قراراً بحرمان أى مدينة يأوى إليها (١٤١١) . ورحل هس عن براغ مستجيباً لنصيحة الملك وظل معتزلاً بالريف عامين .

وكتب في هذين العامين أهم مؤلفاته ، بعضها باللاتينية ، وبعضها بالمشيكية وتكاد كلها تنطق بوحى ويكلييف ، وربما ردد بعضها الهرطقة

واختصاص ، الكهنوت مما جلبته شعبة باقية من الولدانيين إلى بوهيميا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . ولقد أنكر عبادة الصور والاعتراف السمعي وتعدد الشعائر الأنيقة . وأعطى حركته صفة شعبية وقومية بالانتقاص من قدر الألمان والدفاع عن الصقلية ومقالة عن « التجارة في الأشياء المقدسة هاجم التجار رجال الدين بالمقدسات » ، وفي « الموضوع في ستة أخطاء » De sex erroribus نعى على التساوسة أخذ أجر على العماد وتثبيته والقداس والزواج والدفن ، واتهم بعض رجال الدين في براغ ببيع الزيت المقدس ، وأخذ برأى ويكليفي في أن القسيس الذي اقترف بيع المقدسات لا يجوز له شرعاً أن يناول السر المقدس ، أما رسالته عن « اجتماع مجلس شرفاء المدينة » De ecclesia فقد أصبحت بمثابة دفاعه وسبب هلاكه في وقت واحد فإن من صفحتها نقلت المرطقة التي أحرق من أجلها . فقد اتبع ويكليفي في القول بالجبر ، وأيد ويكليفي ومارسيليز وأكهام في أن الكنيسة يجب ألا يكون لها طيبات دنيوية وعرف الكنيسة مثل كالفن بأنها ليست هيئة رجال الدين ولا الجمع المسيحي بأسره ، ولكنها المجموع الكلي في السماء أو على الأرض للناجين من الخطيئة ، وليس البابا رأس الكنيسة ، ويجب أن يكون الإنجيل لا البابا مرشد المسيحي . وليس البابا معصوماً ، حتى في العقيدة أو الأخلاق ، وقد يكون البابا نفسه خاطئاً معتاداً للخطيئة أو هرطيقاً . وسلم هس بأسطورة صدقها جمهور كبير في ذلك الزمان (بل صدقها جرسون) فاستغل الكثير بما ورد عن البابا المزعوم يوحنا الثامن (الذي تقول الأسطورة) أنه كشف عن جنسه النسوي بأن وضع برغمه طفلاً مولوداً في شوارع روما . وختم هس كلامه بأنه لا طاعة للبابا إلا إذا اتفقت أوامره مع شريعة المسيح ، « وعصيان البابا الخاطئ إنما هو طاعة للمسيح »

ولما اجتمع مجلس عام في كنستانس عام ١٤١٤ لكي يخلع ثلاثة بابوات

متنافسين ويضع برنامجاً لإصلاح الكهتوت ، بدا للعيان أن فرصة قد سنحت لإعادة الوثام بين اذسيين والكنيسة ، وكان الإمبراطور سيجسموند ، الوارث الشرعى لونسسلوس الرابع الذى لاعقب له ، توافقاً لإقرار السلم وإعادة الوحدة الدينية فى بوهيميا . فاقترح أن يتوجه هس إلى كنستانس ويبدأ الصلح من ناحيته . ومنح هس من أجل هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر جواز الأمان إلى كنستانس وإبداء رأيه على الملأ أمام المجلس وحرية العودة فى أمان إلى بوهيميا إذا رفض هس حكم المجلس . وعلى الرغم من التحذير الملح من معاونيه فقد رحل إلى كنستانس (اكتوبر ١٤١٤) يصحبه ثلاثة من النبلاء التشيكيين وعدد من الأصدقاء . وذهب إلى كنستانس فى الوقت نفسه تقريباً ستيفن بالكزى وغيره من المعارضين البوهيميين لهس لاتهامه أمام المجلس .

ولما وصل ؛ عومل أول الأمر بخفاوة وترك حرراً ، ولكن ما أن عرض بالكز أمام المجلس بياناً بهرطقات هس ، حتى استدعاه أعضاء المجلس واستجوبوه واقتنعوا من إجاباته ، بأنه هرطيق كبير ، فأمروا بزجه فى السجن ، فاعتلت صحته ، وأشرف فى وقت من الأوقات على الموت ، وأرسل البابا يوحنا الثالث والعشرون أطباء من قبله لمعالجته ، وشككا سيجسموند من أن تصرف المجلس قد خالف جواز الأمان الذى أعطاه لهس ، فأجاب المجلس بأنه غير مقيد بصنيعه وبأن سلطته لا تمتد إلى الشئون الروحية ، وبأن للكنيسة الحق فى أن يعلو حكمها على حكم الدولة إذا أرادت أن تحكم عدواً للكنيسة ، وفى أبريل نقل هس إلى حصن جوتلين على نهر الراين ووضع هناك فى الأصفاد . وكان الغذاء الذى يقدم إليه قليلاً حتى إنه أصيب بمرض خطير . واندفع فى الوقت نفسه زميله فى الهرطقة جيروم البراغى داخلاً إلى كنستانس ، وثبت على أبواب المدينة والكنائس وعلى دُور الكرادلة ، طلباً بأن الإمبراطور والمجلس يجب أن يمنحاه جواز أمان والاستماع إلى ما يقوله علناً . وألح عليه

أصدقاء هس فترك المدينة وقفل راجعاً إلى بوهيميا ، ولكنه توقف في الطريق ليخطب عن سوء معاملة المجلس لهس . فقبض عليه وأعيد إلى كنستانس وزج به في السجن ؟

وفي الخامس من يولية . سيق هس مكبلاً بعد أن قضى في السجن سبعة أشهر أمام المجلس ، ومثل كذلك في السابع والثامن من الشهر نفسه . وسئل عن الآراء الخمسة والأربعين التي سبق أن اتهمت من مؤلفات ويكيليف فأنكر معظمها وأيد بعضها . ولما ووجه بفقرات من كتابه « عن الكنيسة » عبر عن رغبته في حذف ما ينكره الكتاب المقدس (وهو بالضبط نفس الموقف الذي اتخذ لوثر في ورمس) واحتج المجلس بأن الكتاب المقدس يجب أن يفسر بواسطة رؤساء الكنيسة لا بواسطة اجتهاد الأفراد وطالب هس أن يسحب جميع تلك الآراء التي استشهد بها دون تحفظ . وناشده أصدقاؤه ومتهموه أن يوافق ولكنه أبى وفقد النية الطبية للإمبراطور المتردد ، بتصريحه أن الحاكم يفقد شرعية السلطة الدنيوية أو الروحية في اللحظة التي يقترف فيها خطيئة مهلكة . وهكذا أبلغ سيجسموند هس بأن المجلس إذا نه بطل جواز الأمان من تلقاء نفسه . وبعد ثلاثة أيام من الاستجواب والجهود التي بذلها الامبراطور والكرادلة لكي يسحب هس آراءه ، أعيد إلى محبسه وسمح للمجلس له ولأعضائه بأربعة أسابيع لدراسة الأمر الذي كان معقداً بالنسبة للمجلس أكثر منه بالنسبة لهس . كيف يتأتى لهرطيق أن يعيش دون أن يدمغ ذلك بعدم الإنسانية كل جرائم القتل من أجل الهرطقة التي ارتكبت في الماضي ؟ ولقد عزل هذا المجلس بابوات ، فهل يتحداه قسيس بوهيمى بسيط ؟ أليست الكنيسة وهى إرادة المجتمع الروحية كما أن الدولة إرادته الطبيعية ، مسئولة عن النظام المعنوى الذى يحتاج إلى أساس من السلطة التي لا يرقى إليها الخلاف ؟ وبدا للمجلس واضحاً أن تحدى هذه السلطة كالحياة العظمى بامتناع السلاح

ضد الملك . وكان على الرأى أن يتطور إبان قرن آخر من الزمان قبل أن
تمكن لوثر من تحد مماثل ويسمح له مع ذلك أن يعيش .
وبذلت محاولات أخرى للحصول على شبهة عدول هس عن آرائه وأوفد
الامبراطور رسلا من لدنه للإلحاح عليه . وكانت إجابته واحدة دائماً ، إنه
يتنازل عن أى رأى من آرائه لايؤيده الكتاب المقدس . وفى السادس من يولية
عام ١٤١٥ ، اجتمع المجلس فى كاتدرائية كنستانس وأدان كلا من ويكليف
رهس ، وأمر بإحراق كتابات هس وسلمه للسلطة الزمنية وجرّد لثوه من
منصبه الدينى وسيق خارج المدينة إلى موضع أعدت فيه أكداش من الحطب
وطلب إليه للمرة الأخيرة أن ينتقد نفسه بكلمة تنبئ عن تنازله عن آرائه ،
لكنه أبى ، وأكلته النار وهو يرتل الأناشيد .

وأنكر جيروم فى لحظة فزع تغتفر له أمام المجلس تعاليم صديقه (١٠
سبتمبر ١٤١٥) ولما أعيد إلى السجن ، استعاد شجاعته رويداً . وطالب بأن
تسمع أقواله وبعد فترة طويلة سيق أمام المجلس (٢٣ مايو ١٤١٦) وبدلاً
من السماح له بعرض قضيته ، طلب إليه أولاً أن يرد على التهم العديدة التى
وجهت إليه . فاحتج ببلاغة مؤثرة حركت الشكاك الإيطالى الإنسانى برجيو
براتشيو الذى جاء إلى كنستانس ليكون كاتماً لسر البابا يوحنا الثالث
والعشرين : « أى جور هذا ، فى أنفى أمنح الآن ساعة أدافع فيها عن نفسى ،
أنا الذى حبست فى سجن حقير مدة ثلاثمائة وأربعين يوماً ، دون أن تتوافر
لى وسائل إعداد دفاعى ، بينما لغرمائى الحق دائماً فى أن تستمعوا إليهم ؟ إن
عقولكم تحكم على بلا مبرر بأننى هرطيق ، لقد حكمتم على بأننى شرير قبل
أن تكون عندكم وسيلة ما تعرفون بها أى نوع من الناس كنته . ومع ذلك
فأنتم ناس ، ولستم آلهة ، مخلوقين ، ولستم خالدين ، أنتم معرضون للخطأ .
وكلما ادعيتم بأن ينظر إليكم كمصدر هداية للعالم وجب عليكم الحرص على
تأكيد العدالة للناس جميعاً . وأنا ، الذى تحكمون على قضيتي ، لأهمية لى ،

كما أنني لا أحدث عن نفسي ، لأن الموت يحقق بالجميع ، ولكن لا أريد أن أرى عدداً كبيراً من الحكماء يقتربون ظلماً ، يتخذ سابقة فيكون بذلك أفدح ضرراً من العقاب الذي يفرضه » .

وقرئت التهم عليه ، واحدة بعد أخرى ، وأجاب عن كل منها بلا إنكار حتى إذا سمح له آخر الأمر أن يتحدث بحرية استمال المجلس أو كاد يستميله ، بجرارته وصدقه . وعرض بعض القضايا التاريخية التي قتل فيها الناس من أجل معتقداتهم وذكر كيف حكم التساوسة بالإعدام على ستيفن الرسول ، وأبدى أنه قلما توجد خطيئة أفدح من أن يقتل التساوسة قسياسا . ورجاه المجلس أن ينقذ نفسه بطلب المغفرة ، ولكنه أنكر بدلا من ذلك عدوله السابق عن آرائه ، وأكد اعتقاده في مبادئ ميكليف وهس ، ودمغ إحراق هس بأنه جرم لا بد أن يعاقب الله عليه . ومنحه المجلس أربعة أيام ليرجع عن رأيه . ولما لم يستغفر أدين (٣٠ مايو) وسبق توا إلى الموضع نفسه الذي أحرق فيه هس . وسار الجلاد خلفه ليوقد النار في أكدياس الخطب فناشده جيروم قائلا : « تعال أمامي . . . أوقدها أمام وجهي ، فلو كنت أخاف الموت لما قدر لي قط أن أجيء إلى هنا » . وظل يردد أحد الأناشيد حتى خنقه الدخان .

٣ - الثورة البوهيمية

(١٤١٥ - ٣٦)

أثار موت هس ، الذي تناقله الأخباريون إلى بوهيميا ، ثورة قومية فاجتمع نبلاء بوهيميون ومورافيون وأرسلوا إلى مجلس كنستانس (٢ سبتمبر ١٤١٥) وثيقة وقعها خمسمائة من أعيان التشيك ، وناصرت هس وجعلته كاثوليكيًا طيبا مستقيما . وأنكرت إعدامه باعتباره إهانة لوطنه ، وأعلنت أن الموقعين سيحاربون إلى آخر قطرة من دمائهم دفاعا عن مبادئ المسيح ضد

القوانين التي من صنع البشر ، وطالب تصريح آخر بالآلا يطيعوا منذ ذاك من الأوامر البابوية إلا ما يتفق مع الكتاب المقدس ، وأن الذين يحكمون على اتفاقها مع الكتاب المقدس إنما هم هيئة التدريس بجامعة براغ . وحيث الجامعة نفسها ، هس باعتباره شهيداً ، ومدحت جيروم السجين . واستدعى المجلس النبلاء المتمردين للمثول أمامه للرد على اتهامهم بالهرطقة ، ولكن أحداً لم يحضر وأمر بإغلاق الجامعة ، بيد أن أغلبية الأساتذة والطلاب ظلوا يواصلون عملهم .

واقترح أحد أتباع هس حوالى عام ١٤١٢ وهو جاكوبك الاستريزيبوى ، وجوب بعث العرف المسيحى القديم الخاص بمناولة القربان بصورتيه - النبيذ إلى جانب الخبز - فى العالم المسيحى كله . ولما استولت الفكرة على الصفوة والعامة من أنصاره ، منحها هس تأييده ، فحرمها المجلس ، ودافع عن ترك العادة البدائية على أساس أنها مجازفة بسفك دم المسيح .

وبعد موت هس اتخذت جامعة براغ والنبلاء ، بقيادة الملكة صوفيا ، مناولة القربان بالنوعين جميعاً كأمر من أوامر المسيح ، وأصبح كأس العشاء الربانى شعار « ثورة الأتراكوست » Utraquist وصاغ أتباع هس عام ١٤٢٠ مبادئ براغ الأربعة باعتبارها مطالبهم الأساسية وهى : أن القربان يجب أن يتناول خمرأ كما يتناول خبزاً ، وأن الاتجار بالدين يجب أن يعاقب عليه بحزم وأن « كلمة الله » يجب أن يدعى إليها بلا تراخ باعتبارها الأساس الأوحد للحقيقة الدين وشعيرته ويجب أن يوضع حد لاقتناء القساوسة أو الرهبان للممتلكات المادية المتسعة ورفضت أقلية متطرفة من الثائرين تقديس الخلفات الأثرية وعقوبة الإعدام والمطهر والقداس من أجل الموتى . ولقد وجدت جميع عناصر الإصلاح الدينى اللوثرى فى هذه الثورة المسية .

وكان الملك ونسلسوس الذى عطف على الحركة ، وربما فعل ذلك لأنها وعدت بنقل أملاك الكنيسة إلى الدولة ، قد أصبح يخشى أن تهدد السلطة

المدينة تهديدها للسلطة الدينية وفي المدينة الجديدة التي أضافها إلى براغ لم يعين إلا الذين لا يدينون بالهسية في المجلس ، وأصدر هؤلاء الرجال قواعد عقوبات قصد بها القضاء على الهرطقة . وفي ٣٠ يوليو عام ١٤٩١ قام جمهور هس بموكب في المدينة الجديدة . وشق له طريقا حتى بلغ قاعة المجلس ، وألقى بأعضائه من النوافذ إلى الطريق ، حيث قضى عليهم جمهور آخر . ونظم اجتماع شعبي انتخب أعضاء المجلس الهسيتي وأقر ونسلسوس المجلس الجديد ، ثم مات بنوبة قلبية (١٤١٩) .

وعرض نبلاء بوهيميا أن يقبلوا سيجسموند ملكا عليهم ، إذا اعترف « بمبادئ براغ الأربعة » . فما كان منه إلا أن طالب جميع التشيك بالطاعة الكاملة للكنيسة وألقى في المحرقة بوهيميا أبي أن يتبرأ من تناول الكأس الرباني . وأعلن البابا الجديد مارتن الخامس ، حملة صليبية ضد الهرطقة البوهيميين وزحف سيجسموند ومعه قوة كبيرة إلى براغ (١٤٢٠) ونظم الهسيون جيشا حوالى الليلة السابقة وأرسلت كل مدينة في بوهيميا ومورافيا تقريبا المتطوعين المتحمسين ودرهم جان زيزكا وهو فارس أعور في الستين من عمره وأحرز بهم انتصارات رائعة . ولقد هزموا فرق سيجسموند مرتين . فجمع سيجسموند جيشا آخر ولكن ما أن جاء خبر زائف بأن رجال زيزكا يقتربون ، حتى فر الجيش الجديد في غير نظام دون أن يرى عدوا ما . وأسكر رجال زيزكا الطهرين النصر فأخذوا عن خصومهم فكرة القضاء على الخلاف الديني بالقوة وساروا في طول بوهيميا ومورافيا وسيلزيا وعرضها كأنهم عاصفة تقتلع أمامها كل شيء ، ينهبون الأديرة وينهبون الرهبان ويرغمون السكان على قبول مبادئ براغ الأربعة وأصبح الألمان في بوهيميا الذين رغبوا في البقاء على كاثوليكيتهم ، الضحايا المفضلة للقوات الهسية وعاشت بوهيميا في الوقت نفسه ومدى سبعة عشر عاما (١٤١٩ - ٣٦) بلا ملك .

واتحدت عناصر متعددة ومتصارعة لتكون الثورة البوهيمية . فإن المواطنين البوهيميين أسخطهم ما عند المقيمين الألمان من ثروة وما فيهم من تعاضم وأملوا في إجلالهم عن الوطن . وطمع النبلاء في ممتلكات الكنيسة ورأوها تستحق المصادرة . وطمح الكادحون اليدويون أن يحرروا أنفسهم من سادتهم من الطبقة الوسطى . وتاقت الطبقة الوسطى أن تضاعف من قوتها المحدودة ضد النبلاء ، في مجلس الدايت الذى كان يحكم براغ والذى يسهم في حكم بوهيميا وحلم عبيد الأرض وبخاصة من كان منهم يعمل في إقطاعيات الكنيسة ، بتقسيم هذه الأراضى المباركة أو تحرير أنفسهم على الأقل من القيود الوبيلة . وقدم بعض صغار رجال الدين الذين ظلمهم رؤسائهم تأييدهم الصامت للثورة وزودوها بالقيام على الشعائر الدينية التى حرمتها الكنيسة .

ولما ظفر الجيش الهسى بمعظم بوهيميا ، أدت غاياتهم المتناقضة إلى انقسامهم فرقاً يقتل بعضها بعضا . وبعد أن استولى النبلاء على أكثر أموال الجماعات الدينية الأرثوذكسية ، شعروا بأن الثورة يجب أن تخمد وأن يتيحوا الفرصة لموثرات الزمن . بينما صخب عبيد الأرض الذين أفلحوها من أجل الكنيسة مطالبين بتقسيمها فيما بينهم باعتبارهم أحراراً فإن الملاك النبلاء طالبوا عبيد الأرض بأن يخدموا السادة الجدد على أسس العبودية السابقة نفسها . وأيد زيزكا الفلاحين ، وحاصر فترة من الزمن « الكأسيين » أو بعبارة أخرى الهسين أصحاب الكأس الربانى في براغ الذين أصبحوا محافظين . ولما تعب من الصراع قبل هدنة وانسحب إلى بوهيميا الشرقية وأسس (أخوه حوديب)^(١) هدفها تحقيق المبادئ الأربعة وقتل الألمان . ولما مات (١٤١٤) أوصى أن يصنع من جلده طبل حربى .

(١) على اسم جبل بشبه جزيرة سيناء .

وتألفت في تابور فرقة هسية أخرى ، ذهبت إلى أن المسيحية الحقبة تتطلب تنظيمًا شيوعيًا للحياة . ولقد وجدت في بوهيميا قبل هس جماعات من الوالدينزيين والبجهاردينين وغيرهم من المراطقة الذين لا رادع لهم يمزجون المثل الدينية بالمثل الشيوعية . واحتفظوا بهدوء يحمدون عليه إلى أن اقتلعت قوات زيزكا سلطة الكنيسة من معظم بوهيميا ، فظهروا علنا ، واستولوا على القيادة المذهبية في تابور . وأنكر كنيته منهم « الوجود الحقيقي » والمطهر والصلاة للموتى ، وكل الأسرار المقدسة ما عدا العباد والعشاء الرباني ولم يشجعوا تقديس الخلفات الأثرية والصور والتدسين ، واقترحوا إعادة الشعيرة البسيطة لكنيسة الحوارين . وأنكروا جميع الشعائر والأزياء الكهنوتية التي لم يجدوها في المسيحية الأولى . وعارضوا المذابح وآلات الأرغن الموسيقية وفخامة الزخرف الكنسي وأتلفوا كل ما عثروا عليه من هذه الزينة . وأنقصوا العبادات مثلهم في ذلك مثل البروتستانت المتأخرين ، إلى القربان والصلاة والقراءة في الكتاب المقدس والعظة وترتيل الأناشيد ، ويقوم على هذه الشعائر رجال دين لا يختلفون في الزى عن غيرهم من المدنيين .

ولقد استخلص معظم التابورين ، الاتجاه الشيوعي من المعتقد بعودة المسيح وحكمه ألف سنة . فإن المسيح سرعان ما يجيء ويوطد مملكته على الأرض ، ولا تكون في هذه المملكة ملكية ولا كنيسة ولا دولة ولا تفرقة طبقية ولا قوانين وضعية ولا ضرائب ولا زواج ، وفي المؤكد أن المسيح ، سيمره عند مجيئه أن يجد عباده قد أنشأوا مثل هذه المدينة الفاضلة السماوية وطبقت مثل هذه المبادئ في تابور وبعض المدن الأخرى ، وقال أستاذ معاصر من أساتذة جامعة براغ : كل شيء هناك على المشاع ، لا يملك أحد شيئاً لنفسه وحده ، ولذلك عد التملك دائماً يستحق مقترفه

الموت . وهم يرون أن الجميع يجب أن يكونوا أخوة وأخوات متساوين » .

وقد تحول فلاح بوهيمى إلى فيلسوف ، واسمه بيتر تشلجى وذهب فى آرائه إلى أبعد من ذلك ، وكتب بلغة تشيكية قوية مجموعة من المقالات الثولستوية يدعو فيها إلى فوضوية مسالمة . وهاجم الأقوياء والأغنياء ، وأنكر الحرب وعقوبة الإعدام وعدهما قتلا ، وطالب بمجتمع لا سادة فيه ولا عبيد ، ولا قوانين من أى نوع . وناشد أتباعه أن يتبعوا المسيحية اتباعا حرفيا ، كما وجدوها فى العهد الجديد وألا يعملوا إلا بالبالغين ، وأن يديروا ظهورهم للعالم ومناهجها ولحلف اليمين والتعلم والامتيازات الطبقيّة ، وللتجارة وحياة المدينة وأن يعيشوا فى فقر اختياري وأن يؤثروا فلاحه الأرض ، وأن يتجاهلوا تمام التجاهل الحضارة والدولة . ووجد الثابوريون هذه الدعوة السلمية لا تناسب مزاجهم . فانقسموا إلى أحرار معتدلين ومتطرفين « وهؤلاء دعوا إلى مبدأ العرى وشيوعية النساء » ، وتحولت الفرقتان فى الجدل إلى الحرب . وفى غضون سنوات قليلة ظهرت القدرات غير المتسارية إلى تفاوت فى القوة والامتياز ، ثم إلى تفاوت فى السلع آخر الأمر ، وحل محل رسل السلام والحربة ، مشرعون لا رحمة عندهم يقوم تدبيرهم على الاستبداد العاشم .

واستمع العالم المسيحى فى فزع إلى هذه المسيحية الشيوعية المزعومة ، وبدأ المسيون فى البارونات وسكان المدن يتطلعون إلى كنيسة روما باعتبارها المنظمة الوحيدة التى لها من القوة ما يتيح لها أن تتضى على التحلل الوشيك للنظام الاجتماعى القائم وهللوا عند ما رحب مجلس بازل بالتوفيق . وذهب وفد من المجلس إلى بوهيميا دون الحصول على موافقة البابا ، ووقع مجموعة من الموائيق ، صيغت بحيث يفسرها المسلمون من الهسيين والكثالكة بأنها

تقبل وترفض مبادئ براغ الأربعة (١٤٣٣) . ولما أبى التابوريون الاعتراف بهذه العهود انضم المهسيون المحافظون إلى الجماعة الأرثوذكسية الباقية في بوهيميا وهاجموا التابوريين المنقسمين على أنفسهم وألحقوا بهم الهزيمة ، وقضوا على التجربة الشيوعية (١٤١٤) واصطلح مجلس « الدايت البوهيمي » مع سيجسموند واعترف به ملكاً (١٤٣٦) .

ولكن سيجسموند الذي ألف أن يتوج انتصاراته بما لا نفع فيه ، مات في السنة التالية . وبلغ الحزب الأرثوذكسي ، إبان الفوضى التي أعقبت ذلك ، المكانة العليا في براغ . وألف قائد محلي قدير هو جورج البوديرادى جيشاً من المهسين ، واستولى على براغ ، وأعاد جان روكيكانا . إلى كرسي كبير الأساقفة ونصب نفسه حاكماً على بوهيميا (١٤٥١) . ولما أبى البابا نيقولاس الخامس الاعتراف بروكيكانا فكر الأتراكوس في أن يتحولوا بولائهم إلى كنيسة الروم الأرثوذكس ولكن سقوط القسطنطينية في يد الأتراك وضع حداً للمفاوضات وفي عام ١٤٥٨ اختار مجلس الدايت البوديرادى ملكاً لما رآه من إدارته الفائقة التي وطدت النظام والازدهار في البلاد .

فتحول بجهوده إلى إقرار السلام الديني . وأرسل بموافقة مجلس « الدايت » وفداً إلى بيوس الثاني (١٤٦٢) يطلب التصديق البابوي على عهود براغ فأبى البابا وحرم على المدنيين في كل مكان أن يتناولوا القربان بنوعيه وعمل « البوديرادى » بنصيحة « جريجور هايمبورج » وهو فقيه ألماني ودعا عام ١٤٦٤ ملوك أوروبا لكي يؤولفوا اتحاداً دائماً للدول الأوروبية له سلطة تشريعية وأخرى تنفيذية وجيش ومحكمة لها حق الحكم في المنازعات الدولية في الحاضر والمستقبل . فلم يحب الملوك على هذه الدعوة ، وكانت البابوية المنتعشة من القوة إلى الحد الذي لا تأبه فيه « بحلف أمي » وأعلن البابا بول الثاني

أن البوديبيرادى هرطيق وحرر رعاياه فى يمين ولائهم له ودعا الدول المسيحية إلى خلعه (١٤٦٦) ، وأخذ مارتكاس كورفينوس الهنغارى على عاتقه القيام بهذه المهمة ، فغزا بوهيميا وتوجه فريق من النبلاء الكاثوليك (١٤٦٩) ملكاً ؛ وعرض البوديبيرادى العرش على لاديبلاس بن كازيمير الرابع ملك بولنده . وأنهكته الحرب وداء الاستسقاء فمات وله من العمر إحدى وخمسون سنة (١٤٧١) . وتمجده بوهيميا وهى الآن تشيكوسلوفاكيا ، باعتباره أعظم ملوكها بعد شارل الرابع .

ووافق مجلس الدايت على لاديسلاس الثانى وانسحب ماثياس إلى هنغاريا واستغل النبلاء ضعف الشباب فى الملك لكى يوطدوا سلطانهم الاقتصادى والسياسى ، ولينقصوا من عدد نواب المدن والقرى فى مجلس الدايت وأن يعيدوا إلى هوان العبودية الفلاحين الذين حلموا بالمدينة الفاضلة وفر آلاف من البوهيميين إبان هذه الفترة من الثورة والنكسة إلى بلاد أخرى . وفى عام (١) ١٤٨٥ وقع الحزبان الكاثوليكي والأثراكوست معاهدة كنفاهورا وتعهدا بالتزام السلم ثلاثين سنة .

(١) خلط الفرنسيون بين البوهيميين المبعدين والنجر (Gypsies) الذين وصلوا إبان القرن الخامس عشر إلى أوروبا الغربية ، مفترضين مجيئهم من بوهيميا فجعلوا اسم بوهيمى يرادف النجرى . واسم جببى Gypsy تحريف لاسم ايجبشيان أى مصرى ، ويوحى بما زعمت القبيلة فى أنها جاءت من مصر الصغرى . ويرجع برتن نشأتهم إلى الهند . وسماوا فى الأراضى البيزنطية باسم الروم - أى الرومان (الشرقيين) ، وأطلق عليهم فى البلقان وأوروبا الوسطى بشتقان من آرزيجان (سزيجان ، زيجر ، زنجارى) . وهى كلمة يشك فى أصلها . وبدأ ظهورهم فى السجلات الأوروبية فى أوائل القرن الرابع عشر بوصفهم جماعات متجولة من أصحاب الحرف والموسيقىين والراقصين واللعرايين والصمصص - كما كان الاعتقاد السائد . ووصلوا حوالى عام ١٤١٤ إلى ألمانيا وعام ١٤٢٢ إلى إيطاليا وعام ١٤٢٧ إلى فرنسا وعام ١٥٠٠ إلى إنجلترا .

وكانوا يقبلون العمد فى العادة : ولكنهم تساهلوا فى الدين والتزام الوصايا ومنه عانوا وقموا تحت طائلة محاكم التفتيش . وطردها من إسبانيا (١٤٩٩) ومن الإمبراطورية =

وألف أتباع الثلجكي في بوهيميا الشرقية ومورافيا (١٤٥٧) فرقة مسيحية جديدة ، اسمها كنيسة الأخوة ، ووقفوا أنفسهم على حياة زراعية بسيطة على مبادئ العهد الجديد وفي عام ١٤٦٧ أنكروا سلطة الكنيسة الكاثوليكية و قدسوا قساوستهم ورفضوا المطهر وعبادة القديسين وأرهصوا بمذهب لوثر في التزكية بالعتيدة ، وأصبحوا أمل الكنيسة الحديثة التي تدين بالمسيحية ، وما أن جاء عام ١٥٠٠ حتى بلغ أعضاؤها مائة ألف مسيحي . ولقد قضى على هؤلاء « الإخوان المورافيين » تقريباً في سورة حرب الثلاثين سنة ، وهم إنما عاشوا بفضل جون كومنئوس ، ولا يزالون موجودين في جماعات مفرقة في أوروبا وأفريقيا وأمريكا ، وهم يدهشون عالماً يتسم بالعنف والشك ، بتسامحهم الديني وتقواهم [غير المزعومة وولايتهم السلمى للمبادئ التي يعتنقونها .

٤ - بولنده

(١٣٠٠ - ١٠٥٥)

إن المحافظة على السلم عسيرة : حتى في المناطق التي تستمد وحدتها ومناعتها من الحواجز الجغرافية ، ولنلاحظ كيف تكون المحافظة على هذا السلم أعسر كثيراً في الدول التي تتعرض على أحد حدودها أو أكثر لجيران متعطشين للغزو أبداً ، ينزعون إلى التفرير حيناً وإلى القوة حيناً آخر ، واختنقت بولنده بعض الاختناق إبان القرن الرابع عشر على يد الفرسان التوتون واللتوانيين والهنغاريين والمورافيين والبوهيميين والألمان وذلك بالضغط على حدودها . وما كاد لاريسلاس « القصير » يصبح الأمير الأكبر لبولنده الصغرى أى الجنوبية (١٣٠٦) حتى واجه حشداً من الأعداء . ورفض الألمان طاعته في

= الرومانية المقدسة (١٥٠٠ - ١٥٤٨) ومن فرنسا (١٥٦١) . وتنحصر مساهمتهم في الحضارة إذا استثنينا لبائهم المشرق المنوع الألوان والخلى الخاصة بنسائهم الموسرات : في الرقص والموسيقى - وقد أوحى تباذلهم في الألحان بين الحزن والقوة إلى بعض كبار الملحنين والموسيقين .

بولنده الكبرى أى الغربية واستولى الفرسان على دانزج وبوميرانيا ، وتآمر
مارجراف - الحاكم العسكرى - حارس تخوم براندنبرج للقضاء عليه ،
وادعى ونسلوس الثالث صاحب بوهيميا العرش البولندى لنفسه ، وجاهد
لاريسلاس فى هذا الخضم من المتاعب بالسلاح والسياسة والزواج ، حتى
حد بولنده الصغرى والكبرى فى مملكة متماسكة ، وعمل وتوج نفسه ملكاً
فى كراكاو عاصمته الجديدة (١٣٢٠) . ولما مات بالغا من العمر ثلاثاً
وسبعين سنة (١٣٣٣) أوصى بعرشه العصى إلى ابنه الوحيد كازيمير الأكبر .
وقد يستكثر البعض هذا اللقب على كازيمير الثالث ، لأنه كان يؤثر
لمفاوضة والمصالحة ، على الحرب ، وتنازل عن سيليزيا إلى بوهيميا وعن
وميرانيا إلى الفرسان ، وقنع بالحصول على غاليسيا حول لواء ومازوفيا
حول وارسو ؛ ووقف حكمه مدى سبع وثلاثين سنة على الإدارة ، فجعل
أقاليمه المختلفة تحت ظل قانون واحد ، « يجب ألا تبدوا الدولة كوحش كثير
لرؤوس » ووجد بتوجيهه ، فريق من الفقهاء القانون والعادات المتفاوتة
للولايات فى قوانين كازيمير - وهى المحاولة الأولى فى وضع القوانين البولندية
فى مجموعة واحدة . . . وهى مثال على الاعتدال الإنسانى ، إذا قورنت
بمجموعات القوانين المعاصرة ، ولقد حى كازيمير اليهود والروم الأرثوذكس
وغيرهم من الأقليات العنصرية والدينية ، وشجع التعليم والفنون وأسس جامعة
كراكاو (١٣٦٤) وشيد الكثير من المباني حتى قال الناس أنه وجد بولنده
مبنية من الخشب فأعاد بناءها بالحجر وشجع بحكمته البارعة شئون الأمة
الاقتصادية حتى لقبه الفلاحون « بملك المزارعين » ، وأثرى التجار فى ظل
السلام وأجمعت الطبقات كلها على تلقبته « بالكبير » .

ولم يكن له وريث من الذكور ، فترك تاجه لابن أخيه لويس الكبير
ملك هنغاريا (١٣٧٠) ، آملاً أن يحرز لبلاده حماية ملكية منيعة ونصيبة
من الحافز الثماني الذى جلبته الأسيرة الإنجفينية من إيطاليا وفرنسا ، ولكن

لويس حصر اهتمامه في هنغاريا وأهمل بولنسه ، وأراد أن يجعل النبلاء المزهوين بأنفسهم على ولاء له في غيابه بمقتضى « امتياز كاتسا » (١٣٧٤) الذى ينص على الإعفاء من معظم الضرائب واحتكار المناصب العليا . ولما مات نشبت الحرب فى سبيل العرش (١٣٨٢) واعترف مجلس « السيم » أى البرلمان بابنته جادويجا البالغة من العمر إحدى عشر سنة (ملكا) ، ولم يقض على الاضطراب إلا زواج جاجللو أمير أمراء ليتوانيا من جادويجا (١٣٨٦) فوحد بذلك مملكته الشاسعة وبولنده ومنح الحكومة شخصية آمرة .

وكان نمو ليتوانيا ظاهرة كبيرة من ظواهر القرن الرابع عشر فلقد ضم جديمن وابنه ألجيرد تحت حكمهما الوثني روسيا الغربية بأسرها : بولتسك وبنسك وسمولنسك وتشرنيجوف وفولهنيا وكيث وبودوليا وأوكرانيا ، وفرح بعض هؤلاء أن وجدوا فى ظل الأمراء الكبار ، عاصمة من القبيلة الذهبية التتارية التى جعلت روسيا الشرقية التزاما إقطاعيا لها . ولما خلف جاجللو ، ألجيرد (١٣٧٧) كانت الإمبراطورية اللتوانية ، التى تحكم فى ويلنو تمتد من البلطيق إلى البحر الأسود وتكاد تصل إلى موسكو نفسها . وكانت هذه هى الهدية التى نقلها جاجللو إلى جادويجا أو بعبارة أخرى كانت بولنده بأسرها هى الصداق الذى قدمته إليه ، ولم تتجاوز السادسة عشرة عند زواجها ، ولقد نشأت رومانية كاثوليكية فى محيط أرفع ثقافة للاتينية عصر النهضة ، أما هو فكان فى السادسة والثلاثين من عمره ، أميا كافرا ولكنه قبل العباد واتخذ لنفسه الاسم المسيحى لاديسلاس الثانى ، ووعد أن يدخل ليتوانيا بأسرها فى المسيحية .

وكان ذلك اتحاداً مؤقتاً ، لأن تقدم الفرسان الألمان ناحية الشرق كان يهدد بالخطر دولتى الزوجين معاً . وتحولت « جماعة الإخوان فى الصليب » التى وقفت نفسها فى الأصل على تنصير الصقالبة ، إلى فرقة من المحاربين

الغزاة يأخذون بحذو سيف كل ما يستطيعون اختطافه من الأرض من أصحابها سواء أكانوا وثنيين أم مسيحيين وأنشأوا عبودية إقطاعية غليظة على الأراضي التي أفلحها يوما من الأيام مزارعون أحرار . وحكم السيد الأكبر عام ١٤١٠ من عاصمته مادينبرج ، استونيا وليفونيا وكورلند وبروسيا وبوميرانيا الشرقية وبهذا فصل بولنده عند البحر والتقى في « حرب شمالية » ضروس ، جيش السيد الأكبر وجيش نجاجللو ، ولقد أنبئنا أن كلا منهما كان يتألف من عشرة آلاف من الأشداء — في موقعة بالقرب من جرونيفولد أوتاتنبرج (١٤١٠) وهزم الفرسان ولاذوا بالفرار ، مخلفين وراءهم أربعة عشر ألف أسير وثمانية عشر ألف قتيل ، بينهم السيد الأكبر نفسه . وأفل نجم جماعة الإخوان في الصليب منذ ذلك اليوم سريعا حتى تنازلت في صلح ثورن (١٤٦٦) عن بوميرانيا وبروسيا الغربية إلى بولنده بما في ذلك ميناء دانزج الحر باعتباره منفذا إلى البحر .

وبلغت بولنده في عهد كازيمير الرابع (١٤٤٧ — ٩٢) أقصى اتساعها وذروة قوتها وأوج فنها . ومع أن كازيمير كان أميا ، إلا أنه ختم كراهة الفروسية للقراءة والكتابة ، بأن منح أولاده تعليما كاملا . وخلفت الملكة جادويجا وهي تحتضر ، جواهرها للإنفاق على إعادة افتتاح جامعة كراكاو — وهي التي قدر لها أن تعلم في القرن التالي كوبرنيكوس . وتوسل الأدب إلى جانب الفلسفة والعلم باللغة اللاتينية ، وكتب نجان ولوجوز كتابه الكلاسي « تاريخ بولنده » (١٤٧٨) ودعا عام ١٤٧٧ فيت ستوس النورمبرجي إلى كراكاو ، فكث فيها سبع عشرة سنة ، وبلغ بالمدينة مكانا رفيعا في فن ذلك العصر ، ولقد نقش لكنيسة سيدتنا مائة وسبعة وأربعين مقعدا للمرتلين ، ومذبحا كبيرا ، وهو أربعون قدما في ثلاثة وثلاثين مع ضريح مركزي للقيامة ، وهو في روعة صورة تيتيان ومع ثمان عشرة صورة جدارية تقص حياة مريم وطفلها — وهي صور

جدارية جديدة — وإن كانت في الخشب — بأن تضارع الأبواب البرونزية التي حققها غيرتى لموضع العماد الفلورنسى قبل ذلك بقرن . وحفرستوس لكندرائية كراكاو مدفنا فخماً من المرمز الأحمر المزرقش لكازيمير الرابع ، وباع النحت القوطى بهذه الآثار فى بولنده أوجه ونهايته . أما فى عهد ابن كازيمير ، وهو سيجسموند الأول (١٥٠٦ — ٤٨) فقد اتخذ الفن البولندى ، لوثرية عصر النهضة الإيطالية الذى تسرب فى ألمانيا ، وهكذا بدأ عصر جديد .

الفصل العاشر

المد العثماني

(١٣٠٠ - ١٥١٦)

١ - الازدهار الثاني في بيزنطة ١٢٦١ - ١٣٧٣ .

أعيدت الإمبراطورية البيزنطية بلا إراقة دماء في ظل أسرة بلايولوجية جديدة عام ١٢٦١ ، وبقيت برغمها حوالى قرنين من الزمان وانتقص مز أطرافها تقدم المسلمين في آسيا وأوربا ، وتوسع الصقلية في مؤخرتها وتناث الأجزاء المفرقة التي استقلت عنها على يد أعدائها المسيحيين الذين استباحوا القسطنطينية عام ١٢٠٤ - النورمانديين والبندقيين والجنوبيين . وتخلفت الصناعة في مد الإمبراطورية ، ولكن منتجاتها كانت تحمل على سفن إيطالية لا تدفع لإيراداً للخزانة . ولم يبق من الطبقة الوسطى كثيرة العدد إلا بقية وفوقها نبلاء مترفون ، ومطارنة ذوو ملابس فضفاضة ، لم يتعلموا شيئاً من التاريخ ونسوا كل شيء اللهم إلا امتيازاتهم . وتحتهم طبقات من من رهبان مشاغبين خلطوا التقوى بالسياسة ، وملأك مزارعون هبطوا إلى مستأجرين كما هبط الفلاحون المستأجرون إلى عبيد أرض وحلم العمال اليدويون بمدينة فاضلة تقوم على المساواة . وطردت ثورة في سالونيك (١٣٤١) الطبقة الأرستقراطية ، ونهبت القصور وأقامت جمهورية شبه شيوعية حكمت ثمانى سنوات قبل أن تقضى عليها قوات الجيش المسيرة في العاصمة . وظلت القسطنطينية مركزاً زاخراً بالتجارة بيد أن أحد الرحالة المسلمين لاحظ عام ١٣٣٠ « كثيراً من البيوت المهتمة والحقول البذورة في داخل أسوار المدينة » ، وكتب السفير الأسباني روى جونزاله

ده كلافيجو حوالى عام ١٤٠٩ يقول : « فى كل مكان فى أنحاء العاصمة توجد القصور العظيمة والكنائس والأديرة ولكن معظمها أطلال » . فقد هجر الحجد ملكة البوسفور .

وفى وسط هذا الاضمحلال السياسى امتزج التراث اليونانى النفيس أبداً فى الفلسفة بالتقاليد البيزنطية الشرقية فى العمارة والتصوير ليؤلف الأنشودة الثقافية للإمبراطورية الرومانية الشرقية . ولبثت المدارس تشرح أفلاطون وأرسطو وزينون الرواقى ، وإن تحاشوا أبيقور باعتباره ملحداً ، ونقح العلماء النصوص الكلاسية وذيّلوها بالخواشى . وصنف ماكسيموس بلانوديس المبعوث البيزنطى إلى البندقية « مجموعة الشعر اليونانى » وترجم الآثار الكلاسية اللاتينية إلى اليونانية وأعاد بناء جسر ثقافى بين بيزنطة وإيطاليا وتوضح سيرة تيودوروس ميتوتشيتيس هذه النهضة الباليولوجية . فلقد كان كبير وزراء أندرونيقوس الثانى وفى الوقت نفسه من أعلم علماء زمانه وأغزّهم لإنتاجا ولقد كتب عنه نيقفورس جريجورس وهو عالم ومؤرخ يقول : « لقد كان يقف جهده كله من الصباح إلى المساء على الشئون العامة ، كأنما لا علاقة له بالدراسة ولكنه يصبح بعد مغادرته القصر وفى الجانب الآخر من المساء مستغرقاً فى الدراسات بدرجة عالية كأنه دارس لا علاقة له البتة بمهمة أخرى » . وقد ألف تيودوروس فى التاريخ والشعر والفلك والفلسفة ، يتفوق لا يضارعه فيه يونانى آخر فى هذا القرن الرابع عشر . وخسر فى الثورة التى خلعت مولاه عن العرش منصبه وداره وماله وألقى به فى السجن ، واعتلت صحته فسمح له أن ينفق أيامه الأخيرة فى دير « المخلص » فى كورا (أى فى الحقول) . الذى زين جدراناه بفسيفساء من أجمل ما فى التاريخ البيزنطى .

واستعادت المناظرة القديمة بين الأفلاطونيين والأرسطيين مكانتها . فدافع الإمبراطور جون السادس كانتراكوزين عن أرسطو ، بينما ظل

أفلاطون إله جمستوس بليثو . ولقد درس هذا الفيلسوف الذى يعد من أشهر السفسطائيين اليونان فى بروسا بأسيا الصغرى ، عندما أصبحت هذه المدينة عاصمة الزحف العثمانى ودرس على أحد اليهود هناك حكمة الزرادشتيين حتى إذا عاد إلى مسقط رأسه بيلوبونيزس ، وقد عاد إليها اسم موريا - ترك فيما يبدو العقيدة المسيحية . واستقر فى مسترا ، فأصبح قاضياً وأستاذاً فى آن واحد . وكتب عام ١٤٠٠ رسالة يحمل عنوان أفلاطون ، « القوانين » اقترح فيها أن تحل ديانة الإغريق القدماء محل المسيحية والإسلام ، بمجرد تحويل جميع آلهة الأولمب ، ما عدا زيوس إلى مشخصات رمزية لعمليات إبداعية أو أنكلر ، ولم يعرف بليثو أن الأديان تولد ولا تصنع . ومع ذلك فقد اجتمع حوله التلاميذ مشغوفين ، وقدر لأحدهم وهو جوهانز يساريون أن يكون الكاردينال الدارس للآثار الكلاسيكية فى إيطاليا ، ولقد صاحب كل من جمستوس وبسايرون الإمبراطور جون الثامن إلى فرارا وفلورنسه (١٤٣٨) لحضور المجلس الذى اتفقت فيه الكنيستان اليونانية والرومانية فى علوم الدين وفى السياسة . وفى فلورنسه حاضِر جيمستوس عن أفلاطون لصفوة من المستمعين ، وكاد يتأثر عصر النهضة الإيطالية . وهناك أضاف كنية بليثو (الكامل) إلى اسمه ، وأخذ يلعب باسمه جمستوس ومعناه « التام » وأفلاطون وعاد إلى مسترا ولم ينشط فى علوم الدين ، فأصبح كبير أساقفة ومات بالغا من العمر خمسا وتسعين سنة (١٤٥٠) .

وكان البعث الفنى ملحوظاً دموودة الفتوة إلى الآداب . وكانت الموضوعات والرسوم لا تزال كهنوتية ، بيد أن لمسة من منظر خلوى أو نسمة من الطبيعة ودفئاً جديداً ينم عنه الخط واللون قد أسبغ الحياة على الفسيفساء بين حين وحين . وفى الفسيفساء التى كشف عنها حديثاً ديركور « مسجد قاهرة الجامع » حيوية دافقة جعلت المؤرخين الغربيين يعترفون

بأنهم يرون فيها تأثيراً إيطالياً جديداً . وتراخت القبضة الكهنوتية عن الصور الجدارية التي حلت محل الفسيفساء ، باهظة النفقة في زخرف الكنائس والقصور وظهرت رسوم من الخيال الريح والقصص الديني إلى جانب قصص القديسين . ومع ذلك تشبث صناعات الأيقونات بالطراز الموروث القديم ، أشكال ضامرة ووجوه يحرقها ورع طهرى غائبة بصورة أخاذة عن أخلاقيات العصر . وتعرض حينذاك تصوير المنمنمات البيزنطى لانهلال كبير ، بيد أن نسج الرسوم التصويرية بالحرير ظل ينتج روائع لا تنافس في العالم الغربى ويعود تاريخ ما يسمى « زنار شارلمان » إلى القرن الرابع عشر ، أو الخامس عشر ، ولقد نسج صانع بارع على قاعدة من الحرير المصبوغ بالزرقه صممها فنان ، بخيوط من النضه والذهب ، مشاهد من حياة مريم والمسيح وقديسين مختلفين . وتحققت آثار رائعة مماثلة في التصوير على النسيج في ذلك العصر في سالونيك والصرب ومولدافيا وروسيا .

وعادت اليونان مرة أخرى مركزاً للفن العظيم . وما كاد القرن الثالث عشر يشرف على نهايته حتى كان الفرنجة الذين نثروا على الأماكن الكلاسيكية القلاع البهيجه قد أدخلوا السبيل للقوة البيزنطية ، وفي عام ١٣٤٨ أرسل الإمبراطور جون السادس ابنه عمانويل ليكون حاكماً على المورة ، فأقام مقره المحلى على تل مشرف على إسبرطة القديمة . فوفد على العاصمة الجديدة نبلاء وأعيان ورهبان وفنانون وعلماء وفلاسفة وبنيت أديرة فخمة ، واحتفظت ثلاثة منها في كنائسها ، ببعض صورها الجدارية التي ترجع إلى القرون الوسطى : ديرا متروبوليس وبريليتوس من القرن الرابع عشر وبانتانسا من أوائل القرن الخامس عشر ، وهذه هي أحسن الجداريات في التاريخ البيزنطى الطويل ، وهى تضارع خير ما أنتجته إيطاليا في العصر نفسه من الصور الجدارية بدقة رسمها ورشاقة صورها الفياضة وعمق وإشراق ألوانها ، والحق ، أنها تدين

ببعض ما تتسم به من الروعة إلى كيا بوجيوتو أودكشيو- وهم جميعاً يدينون بالكثير للفن البيزنطى .

وعلى الشاطئ الشرقى لبلاد اليونان ، على ارتفاع قمة « جبل أثوس » أقيمت الأديرة فى القرن العاشر ، وظلت تقام هناك فى معظم القرون بعد ذلك فى القرن الرابع عشر بانتوكراتور الفخم ، وفى القرن الخامس عشر دير القديس بول . ولقد نسب إبان فترة التقهقر « دليل يونانى للتصوير » يرجع تاريخه إلى القرن الثامن عشر ، أحسن الجداريات إلى عمانويل بانسيلينوس السالونيكى الذى « أظهر تفوقاً وحذقاً فى فنه حتى وضع على رأس جميع المصورين القدماء والمحدثين » ، وليس من المستطاع التحقق من تواريخ عمانويل وآثاره فقد يرجع إلى القرن الحادى عشر أو السادس عشر ، ولا يستطيع أحد أن يجزم بما صدر عن يده من الصور التى فوق جبل أثوس .

وبينما كان الفن البيزنطى يحتاز هذا الوجد الأخير فى تاريخه أفل نجم الحكومة البيزنطية . فقد اضطرب نظام الجيش وضمحل الأسطول ، وسيطرت سفن جنوه والبندقية على البحر الأسود ، وأخذ القرصان يتجولون فى الأرخبيل اليونانى ، واستولت على غاليبولى (١٣٠٦) فرقة مرتزقة من قطلونية - « وهى الشركة القطلونية الكبرى » - وفرضت الإتاوات على تجارة الدردنيل ، وأنشأت جمهورية من اللصوص فى أثينا (١٣١٠) ، ولم توفق حكومة فى القضاء عليهم وتركوا تحت رحمة شططهم . وانضم البابا كليمنت الخامس عام ١٣٠٧ إلى فرنسا ونابلى والبندقية فى مؤامرة لاستعادة القسطنطينية . وفشلت المؤامرة ، بيد أن الأباطرة البيزنطيين لبثوا سنوات كثيرة يستشعرون الخوف من الغرب المسيحى حتى لم يكن عندهم من النشاط والحمية ما يدفعون به الزحف الإسلامى وما كاد هذا الخوف يتبدد حتى كان العثمانيون على الأبواب .

ولقد اشترى بعض الأباطرة هلاكهم بأنفسهم . ففي عام ١٣٤٢ تورط جون السادس كائناكوزين في حرب أهلية وطلب العون من أورخان سلطان آل عثمان فأرسل إليه أورخان السفن وساعده في الاستيلاء على سالونيك ، فما كان من الإمبراطور المعترف بالجميل إلا أن أرسل إليه ابنته تيودورا لتكون زوجة ثانية له ، وبعث إليه السلطان بفرق جديدة تتألف من ستة آلاف جندي . وأخذ جون باليولوج على عاتقه أن يخلعه — فما كان من جون كائناكوزين إلا أن نهب الكنائس القسطنطينية ليدفع إلى أورخان ثمن عشرين ألف جندي تركي آخرين ووعد السلطان بحصن في شيرزونيس بتراقيا ، وفي لحظة انتصاره الظاهري انقلب الشعب عليه وعده خائناً ، وحولته الثورة في ليلة واحدة من إمبراطور إلى مؤرخ — (١٣٥٥) فاعتزل في دير ، وكتب تاريخ عصره كمحاولة أخيرة لإرباك أعدائه .

ولم يجد جون الخامس باليولوجس العرش ذلولاً ، فذهب إلى روما يستشفعاً (١٣٦٩) ، ووعد ، في مقابل ما يقدم له من عون ضد الأتراك أن يدخل شعبه في طاعة البابوية ، وأنكر الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية أمام المذبح الكبير للقديس بطرس . ووعد البابا إربان الخامس بأن يمد له يد العون ضد الكفار ، وأعطاه رسائل إلى أمراء العالم المسيحي ، ولكن هؤلاء الأمراء كانوا منصرفين إلى شئون أخرى . وبدلاً من أن تقدم له البندقية المساعدة المشودة اعتبرته رهينة في مقابل الديون اليونانية . وأحضر ابنه عمانويل المال المطلوب ، وعاد جون إلى القسطنطينية أفقر مما رحل عنها ، وأنكره شعبه لأنه حنث بعهده للمذهب الأرثوذكسي . وفشل في محاولة ثانية للحصول على المدد من الغرب ، فاعترف بالسلطان مراد الأول مولى عليه ، ووافق على أن يمد الجيش العثماني بالمدد العسكري ، وقدم ابنه الحبيب عمانويل ليكون رهينة على الوفاء بعهده وهدأت ثائرة مراد فترة ما وتنكب بزنطة ، ونحو ل إخضاع أمارات البلقان .

٢ - أمارات البلقان تلتقى بالترك ١٣٠٠ - ٩٦

لقد كان القرن الرابع عشر إلى ذلك الوقت بالنسبة لأمارات البلقان بمثابة القمة في تاريخها . . . وعمل الصقالية الأشداء في ولاشيا وبلغاريا والصرب والبوسنة وألبانيا على قطع الأخشاب من الغابات والبحث عن المناجم وفلاحة الأرض ورعى قطعان الماشية وكانوا يحرصون على تربية دوابهم . وحمل الصقالية والإيطاليون والمجريون والبلغار واليونان واليهود تجارة الشرق والغرب من بحر الأدرياتي إلى البحر الأسود ومن البحر الأسود إلى البلطيق ، وكانت المدن تدر عليهم الرزق كلما ساروا .

وكان الرجل العظيم من الصرب في هذا القرن هو ستيفن دوشان . ولقد أنجبه والده ستيفن أروش الثالث في انفلاتة قصيرة عن روابط الزوجية وسماه بهذا الاسم المحبوب دوشا - أى الروح - وتوجه ولياً للعهد حتى إذا جاء ابن آخر شرعى وحمل بدوره ألقاباً محببة ، خلع ستيفن أباه ، وشنقه وحكم بلاد الصرب بيد قوية مدى جيل كامل . وكتب أحد معاصريه عنه يقول : « كان أطول رجال زمانه وأبشعهم منظراً » ، واغتفرت له الصرب كل شيء لأنه شن حرباً مظفرة . فقد درب جيشاً جراراً ، وقاده بحنكة ، وفتح البوسنة وألبانيا وأبيروس وأكارنانيا وأيتوليا ومقدونيا وتساليا ونقل عاصمة ملكه من بلجراد إلى سكيلجة حيث جمع برلماناً من النبلاء ، وناشده أن يوحد ويجمع قوانين ولاياته المختلفة ، وكانت ثمرة ذلك هي : « زابونيك تساد دوشانه » أى « مجموعة قوانين القيصر دوشا » (١٣٤٩) . وهى تكشف عن مستوى في التطور القانوني والعرف المتشددين لا يقل كثيراً عما في أوروبا الغربية ، وأفاد الفن الصربى في القرن الرابع عشر من هذه النهضة السياسية في التمويل وربما في الحفاظ حتى ضارح الازدهار المعاصر في القسطنطينية والمورة ، فأقيمت الكنائس الفخمة ، وكانت الفسيفساء فيها أكثر

حرية وحياة مما سمح به الاتجاه الكهنوتي المحافظ في العاصمة اليونانية .
وفي عام ١٣٥٥ حشد دوشان جيوشه للحرة الأخيرة . وسألهم هل يؤثرون
أن يسيروا ضد بيزنطة أم ضد هنغاريا . فأجابوا أنهم على استعداد لمتابعته
إلى أى مكان يختاره لقيادتهم . فصاح « إلى القسطنطينية » ومرض في
الطريق ومات .

وكانت إمبراطوريته من التنافر إلى حد لا يجمعها غير رجل له ذكاء نافذ
ونشاط منظم ، فشقت البوسنة عصا الطاعة ، واتمست لحظة موالية . في كنف
ستفين ترتكو ، لقيادة البلقان . وحصلت بلغاريا على المرحلة الأخيرة من
مراحل عظمتها في عهد جون الإسكندر . وانفصلت ولاشيا ، التي كانت في
يوم من الأيام جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية (١٢٩٠) وحكمت دلتا
الدانوب الشاسعة . وخرجت ملدافيا عن ولائها لهنغاريا (١٣٤٩) . وداهم
الترك هذه الدويلات المتنافرة حتى قبل أن يجعل جون الخامس باليولوجس
من بيزنطة التزاماً إقطاعياً لمراد الأول . وقاد سليمان الابن المقدم للسلطان
أورخان الجيوش التركية لمعاونة جون السادس كانتاكوزين ، فتسلم أو أخذ
مكافأة له ، حصن زمبه على الجانب الأوربي للدردنيل (١٣٥٣) ولما هدم
الزلازل غاليبولى المجاورة دخل سليمان المدينة العزلاء واستجاب الأتراك
المستعمرون لدعوته فعبروا من الأناضول وانتشروا على طول الشاطئ الشمالى
لبحر مرمرة وكادوا يبلغون القسطنطينية نفسها وزحف سليمان بخيش متزايد
صوب تراقيا واستولى على أدرنة (١٣٦١) . وبعد خمس سنوات جعل
منها مراد عاصمته الأوربية . وفي هذا المركز صوب الأتراك ضرباتهم مدى
قرن من الزمان إلى إمارات البلقان المنقسمة على نفسها .

وأدرك البابا اربان الخامس مغزى هذا التسلل التركى إلى أوروبا فاستنفر
العالم المسيحي بأسره لحرب صليبية أخرى . فاتجه جيش مؤلف من
الصرب والهنغارين والولاشيين ، ببسالة صوب أدرنة . وأقاموا عند نهر
مارتزا احتفالاً بزحفهم الذى لم يلق مقاومة ، وفيما هم يشربون الأنخاب

يعربدون إذا بهم يفاجأون بهجوم ليلي من قوة تركية صغيرة بالقياس إليهم .
وذبح كثيرون قبل أن يتمكنوا من تحمل أسلحتهم ، وغرق كثيرون آخرون
وهم يحاولون الانسحاب عبر النهر وفر الباقون (١٣٧١) . وفي عام ١٣٨٥
استسلمت صوفيا وستط نصف بلغاريا في أيدي العثمانيين . واستولوا عام
١٣٨٦ على نيس وعلى سالونيك عام ١٣٨٧ . وأصبحت اليونان بأسرها
مكتشوفة أمام الأتراك .

وأوقفت بوسنه الصغرى الزحف في غضون سنة بطولية واحدة . وضم
ستيفن توتكو جنوده إلى جنود الصرب بقيادة لازار الأول وهزموا
الأتراك في بلوشنيك (١٣٨٨) . وبعد عام سارمراد غرباً على رأس
جيش فيه فرق كثيرة من الجند المسيحيين . والتقى في قوصوه بحلف من
الصرب والبوسنيين والمجريين والفلاشين والبلغار والألبان والبولفريين
وادعى فارس حربى اسمه ميلوش كوبيلتش ، أنه آبق في الخدمة العسكرية
وجاسوس واستطاع بذلك أن يشق طريقه إلى خيمة مراد وأن يفتال
السلطان فضرب حتى مات . واستثار ابن مراد ووريثه بايزيد الأول
الحمية الغضوب في نفوس الأتراك وقادهم إلى النصر . فأسر الملك لازار
وقطعت رأسه وأصبحت الصرب إمارة إقطاعية تدفع الجزية للأتراك ،
وأرغم ملكها الجديد ستيفن لازار فتش على إرسال السلاح والرجال إلى
بايزيد ، وفي عام ١٣٩٢ انضمت ولاشيا في عهد جون شيشمان ، إلى
قائمة الدول البلقانية التي تدفع الجزية للعثمانيين . ولم تقو على الدفاع غير
بلغاريا وبزنطة .

وفي عام ١٣٩٣ غزا بايزيد بلغاريا . وسقطت ترنوفو بعد حصار دام
ثلاثة أشهر ، ودنست الكنائس وأضرمت النيران في القصور ودعى زعماء
النبلاء إلى اجتماع ، ثم أعمل السيف فيهم . فاستصرخ البابا مرة أخرى العالم
المسحى ودعا الملك سيجسمند ملك هنغاريا ، أوربا لحمل السلاح . ومع

أن فرنسا كانت مشغولة بصراع حياة أو موت مع إنجلترا إلا أنها أرسلت قوة من الفرسان تحت قيادة كونت نيفير ، وجاء كونت هوهنزلون والسيد الأعظم لفرسان القديس يوحنا مع أتباعهما ، وأحضر أمير بلتين ثلثة من الفرسان البافاريين ، وأنكرجون شيشمان تبعية الإقطاعية وجاء بجنده ليحارب تحت قيادة الملك الهنغارى .

وسار الجيش المتحد الذى يتألف من ستين ألفاً من الجنود الأشداء عبر الصرب وحاصر الحامية فى نيكوبوليس . وبلغهم التحذير بأن بايزيد فى طريقه ، ومعه جيش من آسيا لرفع الحصار ، فوعد الفرسان الفرنسيون وقد لعبت الخمر والنساء برءوسهم بأن يبيدوا هذا الجيش ، وقالوا مفاخرين لو سقطت السماء على الأرض فسيرفعونها برماحهم ، أما بايزيد فقد أقسم ليربطن جواده بالمذبح الرفيع فى كنيسة القديس بطرس فى روما ووضع ضعف قواته فى المقدمة بخطة حربية بادية الوضوح . فاندفع الفرسان الفرنسيون وسط هذه القوات مستشعرين للنصر ، ثم وسط عشرة آلاف من الانكشارية ثم وسط خمسة آلاف من الفرسان الأتراك ، ثم هجموا مصعبين فى غير تبصر أحد التلال ، وإذا بهم يواجهون وراء القمة مباشرة الجزء الرئيسى من الجيش التركى المؤلف من أربعين ألفاً من حملة الرماح . وحارب النبلاء ببسالة وكانوا بين قتيل وأسير ولأئذ بالفرار ، وباندحارهم وقع الاضطراب فى صفوف المشاة المتحالفين خلفهم . ومع ذلك فقد كان الهنغاريون والألمان يردون الأتراك على أعقابهم بينما كان ستيفن لازارفتش أمير الصرب يقود خمسة آلاف من . المسيحيين ضد الجيش المسيحى وانتصر فى موقعة نيكوبوليس الحاسمة لمصلحة السلطان (١٣٩٦) .

وثارث ثائرة بايزيد عندما رأى اللحم الغفير من رجاله صرعى فى حومة القتال ، وعندما سمع ما زعمته الحامية التى أنقذت من أن المحاصرين المسيحيين قتلوا أسراهم من الترك ، فأمر بقتل أسراه البالغين عشرة آلاف

رجل . وسمح لكونت نيفير أن يتخير أربعة وعشرين فارساً في مقابل الفدية التي يحضرونها . وذبح آلاف من المسيحيين في مقتلة دموية استمرت من طلوع الشمس إلى فترة متأخرة من المساء ، حتى توسل قواد السلطان أن يخلى سبيل الباقين ، وظلت بلغاريا منذ ذلك اليوم إلى عام ١٨٧٨ ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية وبذلك استولى بايزيد على معظم اليونان ، ثم اتجه صوب القسطنطينية .

٣ - السنوات الأخيرة للقسطنطينية ١٣٧٣ - ١٤٥٣

لم تكن هناك حكومة جديدة تماماً بالسقوط كالحكومة البيزنطية . فلم ترسل فرقاً من الجنود إلى الجيوش المسيحية في مارترا وقوصوه أونيكوبوليس لأنها فقدت الرغبة في الدفاع عن نفسها وعجزت عن إقناع اليونان الممعين في السفسطة بأن الاستشهاد في سبيل الوطن عمل مجيد ونبيل ، فقد جهزت اثني عشر ألف جندي للسلطان عام ١٣٧٩ والفرق البيزنطية هي التي أجبرت بأمر جون السابع باليولوجس مدينة فيلادلفيا البيزنطية بآسيا الصغرى على التسليم للأتراك (١٣٩٠) .

ولما واصل بايزيد حصار القسطنطينيين (١٤٠٢) كانت الإمبراطورية البيزنطية قد انحسرت في عاصمتها . وسيطر بايزيد على شاطئ بحر مرمره وتحكم في الدردنيل وحكم معظم آسيا الصغرى والبلقان تقريباً وتنقل في أمن بين عواصمه الآسيوية والأوربية . ويبدو أن الساعة الأخيرة للمدينة المحاصرة قد حانت . وكان اليونان المشرفون على الموت جوعاً يلقون بأنفسهم من الأسوار ، ويلجأون إلى الأتراك لكي يطعموا . وفجأة ظهر من الشرق الإسلامي مخلص « كافر » للحدود الأممية للعالم المسيحي . وهو تيمور الأعرج - أي تيمورلنك الكبير - الذي عزم على أن يضع حداً لنمو القوة العثمانية ووجودها . ولما أخذت حشود التتار تطوى الأرض متجهة إلى الغرب رفع بايزيد الحصار عن القسطنطينية وعاد ليعيد جمع قواته في الأناضول . والتقى التتار والأتراك في أنقره (١٤٠٢) فهزم

بايزيد ووقع أسيراً وانحسر المد التركي فترة جيل . وبدا أن الله قد ناصر آخر الأمر المسيحيين .

واستعادت بيزنطة بفضل حكم عمانويل الثاني السديد ، معظم اليونان وأجزاء من تراقية . ولكن محمد الأول أعاد تنظيم الجيش التركي وتحول به مراد الثاني من الهزيمة المنكرة إلى انتصارات باهرة . وكان جنود الإسلام لا يزالون ، يستلهمون من اعتقادهم بأن الشهيد في سبيل الإسلام له الجنة ، وحتى ولو لم تكن هناك جنة وحور عين ، فإن فيهم من الإنصاف ما يجعلهم يرون الجحالم في بنات يونان^(١) . أما المسيحيون فلم يكونوا على هذا القدر من الأنصاف . فإن اليونان الكاثوليك كانوا يمتقنون الرومان الكاثوليك ، وكان الفريتان مكروهين بدورهما . ولما أخذ البنادقة يقتصون اليونان الكاثوليك في جزيرة كريت ويعملون السيف في رقابهم انضم البابا أربان الخامس إلى بترارك في تهئة أمير البندقية على حمايته للكنيسة الواحدة الصادقة (١٣٥٠) ولقد نفر الشعب وصغار القساوسة من كل محاولة لإعادة توحيد المسيحية اليونانية واللاتينية - وصرح أمير بيزنطة بأنه يفضل أن يرى العمامة التركية في القسطنطينية على القبعة الحمراء لكاردينال روماني . وكرهت معظم الحكومات البلقانية جيرانها أكثر من كراهيتها للأتراك ، وآثر البعض أن يخضع للمسلمين ، الذين لا يفرضون ضرائب أكثر مما يفرضه الحكام المسيحيون واضطهادهم للهرطقة أقل أو هم لا يضطهدونها على الإطلاق ويسمحون بأربع زيجات .

وفي عام ١٤٢٢ أعاد مراد الثاني الهجوم على القسطنطينية . وأرغمته ثورة في الولايات البلقانية على رفع الحصار . وسمح لجون الثامن بالبولوجس أن يحكم في سلام نسبي بشرط أن يدفع جزية باهظة للأتراك . وأعاد مراد فتح اليونان وسالونيك ومعظم ألبانيا . وقاومت الصرب ببساطة تحت إمرة

(١) أثبتت الوقائع قوة إيمان المسلمين وهو الإيمان الذي جعلهم يطوفون رتمة الأرض بالفتوح على الرغم من قلة عددهم وعتادهم وأقام دولتي الفرس والروم . (المترجم)

جورج برانكوفتش ، وألحق جيش موحد من الصرب والهنغارين تحت إمرة هانباد جانوس الخزيمة بمراد عند كونوفتزا (١٤٤٤) وحكم بارنكوفتش الصرب إلى أن مات بالغاً من العمر تسعين سنة (١٤٥٦) ووقع مراد . بعد انتصارين في فارنا ووقعة قوصوه الثانية (١٤٤٨) ، صلحاً مع الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر باليولوجس وانسحب إلى أدرنه ومات هناك (١٤٥١) .

ولقد جالس محمد الثانى الملقب بالفاتح على العرش العثمانى وهو فى الواحدة والعشرين من عمره . وأيد المعاهدة التى أبرمت مع قسطنطين وأرسل ابن أخيه أورخان ليتعلم (وربما ليكون جاسوساً) فى البلاط البيزنطى ولما تحدت دول إسلامية أخرى سلطانه على آسيا الغربية جعل جنوده يعبرون المضائق وترك ممتلكاته الأوروبية تحت إمرة وزيره خليل باشا المعروف بصداقته لبزنطة . وكان قسطنطين يتحلى بالشجاعة أكثر من الذكاء ، فأبلغ الوزير أنه إذا لم يضاعف المعاش الذى يدفع لرعاية ابن أخى محمد فإن بزنطة ستجعل أورخان مطالباً بالسلطنة العثمانية . ويبدو أن قسطنطين قد رأى أن الثورة فى آسيا فرصة لإضعاف الأتراك فى أوروبا . ولكنه أهمل أن يحافظ على محالفاته فى الغرب ومواصلاته بالجنوب . وعتمد محمد الصلح مع أعدائه من المسلمين ومع البندقية وولاشيا والبوسنة وهنغاريا . . وعبر ثانية إلى أوروبا وشيد حصناً منيعاً على البوسفور مشرفاً على القسطنطينية ، ومن ثم أمن المعبر المكشوف الذى تجوزه جنوده بين القارئين ، وتحكم فى التجارة كلها التى تدخل البحر الأسود . وظل ثمانية أشهر يجمع المواد والرجال . واستأجر صناع المدافع المسيحيين ، ليصنعوا له أكبر مدفع عرف لذلك العهد ، يرمى بقذائف وزنها ستمائة رطل ، وفى يونيه عام ١٤٥٢ ، أعلن الحرب ، وبدأ الحصار الأخير للقسطنطينية ومعه مائة وأربعون ألف رجل .

ودافع قسطنطين بعزم اليائس وجهاز جنوده السبعة آلاف بمدافع صغيرة ورماح وقسى وسهام ومشاعل وبنادق ساذجة ترمى قذائف من الرصاص فى

حجم الجوزة ، وكان لا ينأى إلا لحظات خاطفة ، وأشرف كل ليلة ، على إصلاح ما يصيب الأسوار من عطب في غضون النهار . ومع ذلك فإن الحصون القديمة أخذت تنهار أكثر فأكثر تحت وطأة قذائف المنجنيق ومدفعية الأتراك المتفوقة ، وهكذا انتهى تحصين المدن في القرون الوسطى بالأسوار . وفي التاسع والعشرين من مايو شق الأتراك طريقهم عبر خندق مكث بجث قتلهم ، ودخلوا كالموج المتلاطم من فوق الأسوار ومخترقين إباناً إلى المدينة التي أخذها الفزع من كل جانب ، وضاعت حشجة المحتضرين في طبول الموسيقى العسكرية وأبواقها . وحارب اليونان بشجاعة آخر الأمر ، وكان الإمبراطور الصغير في كل مكان من حومة الوغى ، واستشهد النبلاء الذين كانوا معه عن بكرة أبيهم دفاعاً عنه . ولما أحاط به الأتراك صاح قائلاً : « ألا يوجد مسيحي يضرب عنقي » . وخلع عن نفسه رداءه الإمبراطوري وحارب كجندي عادي واختفى في طريق جيشه الصغير ، ولم يسمع عنه شيء قط بعد ذلك .

وقتل المنتصرون الألوف ، حتى توقفت كل محاولة للدفاع . ثم بدأوا النهب والسلب الخشن يجنح إليه الظافرون والذي طال تعطشهم إليه ، وأخذ كل بالغ ينتفع به في العمل غنيمة ، واغتصبت الراهبات كغيرهن من النسوة في ثورة من الشهوة لا تعرف التمييز ، ووجد السادة والخدم من المسيحيين بعد أن زال عنهم الكساء الذي يدل على مكانتهم ، أنفسهم متساوين فجأة في العبودية التي لا تمييز فيها وكبح جاح النهب والسلب هوناً ما ، فعند ما رأى محمد الثاني رجلاً مسلحاً تدفعه عاطفته الدينية يتلف الممر الرخامي لكنيسة القديسة صوفيا ، ضربه بسيفه الملكي الأحذب ، وأعلن أن كل المباني يجب أن تصان لتكون غنيمة ينظمها السلطان . وحولت كنيسة القديسة صوفيا إلى مسجد بعد التطهير المناسب فأزيلت عنها كل الأمارات المسيحية ، وطلبت فسيفسائها بالبياض ونسي ما كان عليها خمسمائة سنة ، وصعد مؤذن في نفس اليوم الذي

سقطت المدينة فيه أو في يوم الجمعة التالى له إلى أعلى برج من أبراج أيا صوفيا ودعا المسلمين للصلاة فيها جماعة لله الناصر ؛ وأدى محمد الثانى فريضة الصلاة فى أشهر مزار فى العالم المسيحى .

وهز الاستيلاء على القسطنطينية كل عرش فى أوروبا . فقد سقط الحصن الذى طالما حمى أوروبا من آسيا أكثر من ألف سنة ، فإن القوة والعقيدة الإسلاميتين اللتين أمل الصليبيون فى ردهما إلى داخل آسيا ، قد شقتا الآن طريقهما على جثة بيزنطة ، وعبرتا البلقان إلى أبواب هنغاريا ؛ ورأت البابوية ، التى حلمت بإخضاع جميع المسيحيين اليونان لحكم روما ، بفزع سرعة تحول الملايين من سكان جنوب شرق أوروبا إلى الإسلام . وأصبحت طرق التجارة التى كانت مفتوحة فى يوم من الأيام للسفن الغربية فى يد أجنبية ، تفرض عليها المكوس فى وقت السلم أو تسدها المدافع فى وقت الحرب ، وهجر الفن البيزنطى موطنه ولجأ إلى روسيا . بينما اختفى تأثيره فى الغرب بالقضاء على عزمه . وأخذت هجرة العلماء إلى إيطاليا وفرنسا ، التى كانت قد بدأت عام ١٣٩٧ ، تزداد وتثمر فى إيطاليا الدعوة إلى إنقاذ اليونان القديمة . وإذا أخذنا بوجه من الوجوه فإنه لم يضع شئ ، إلا أن الموتى قد ماتوا . فقد أتمت بيزنطة دورها ، وأسلمت مكانها ، فى موكب الإنسانية الذى يتألف من البطولة والقتل ومن النبيل والخسة .

٤ - هانيادى جانوس (١٣٨٧ - ١٤٥٦)

وكان سكان هنغاريا البالغ عددهم حوالى سبعمائة ألف فى القرن الرابع عشر مزيجاً من المجر والبانونيين والسلوفاك والبلغار والخزر والباتزيناك والكومان والسلافونيين والكرواتيين والروس والأرمن والولاشيين والبوسنويين والصرب . والخلاصة أن أقلية من المجر كانت تحكم الأغلبية من الصقالبة .. وبدأت تتكون فى المدن الناشئة إبان القرن الرابع عشر طبقة وسطى تجارية وأخرى من عمال

الصناعة — ولما كان هؤلاء . في الغالب مهاجرين من ألمانيا وفلاندر وإيطاليا فقد أضيفت خلافات عنصرية إلى الكيان الجنسي المعقد .

وانتهت بموت أندرو الثالث أسرة أرباد المالكة (٩٠٧ — ١٣٠١) ، فقسمت الحرب التي اشتجرت في سبيل العرش الأمة أكثر مما هي عليه ، ولم يعد السلام إلا عندما جعلت الطبقة العليا من النبلاء الملكية بالانتخاب ، ووضعوا تاج القديس ستيفن على رأس تشارلز روبرت أمير أنجو (١٣٠٨) : فأحضر معه فكريات فرنسية من إقطاع وفروسية وفكريات إيطالية عن التجارة والصناعة فنهض بمناجم الذهب الهنغارية وشجع المشروعات وضرب السكة ، وطهر القضاء ومنح الأمة إدارة مناسبة . وأصبحت هنغاريا في عهد تشارلز وابنه لويس دولة غربية وذلك رغبة في الحصول على معاونة الغرب أمام الشرق المتكاثر .

وكتب فولتير « لقد حكم لويس الأول هنغاريا حكما سعيدا أربعين سنة (١٣٤٢ — ٨٢) » وحكم بولنده اثنتي عشرة سنة (حكما غير موفق كذلك) — ولقبه شعبه بالكبير ، الذي يستحقه عن جدارة ، ومع ذلك فلن هذا الأمير قلما يعرف في أوربا (الغربية) لأنه لم يحكم قوما يستطيعون أن ينقلوا شهرته وفضائله إلى أمم أخرى . وما أقل الذين يعلمون أنه كان في القرن الرابع عشر ، لويس الكبير في جبال الكربات . . . ومزجت أخلاقه بين الثقافة المدنية ومشاعر الفروسية بالحمية والقسوة العسكريتين : ولقد انغمس في الحروب بين حين وآخر ليثأر لمقتل أخيه في نابلي وليستعيد من البندقية الثغور الدلاشية التي اعتبرتها هنغاريا زمناً طويلاً منافذها إلى البحر ، وليضع حداً للتوسع العدواني للصرب وتركيا وذلك يجعل كرواتيا والبوسنة وبلغاريا الشمالية تحت سيطرة هنغاريا ونشر بالقوة والمبدأ مثل الفروسية الأعلى بين النبلاء ، ورفع مستوى الأخلاق والعادات بين شعبه . وحقق الفن القوطي الهنغاري في عهده وعهد أبيه أجمل آثاره ،

ونحت نيقولاس كولوزفارى وأبناؤه من التماثيل البارعة مثل تمثال القديس جورج الذى يوجد الآن فى براغ . وأسس لويس عام ١٣٦٧ جامعة بيس ، ولكنها اختفت مع الكثير من أمجاد هنغاريا فى القرون الوسطى فى الصراع الطويل المضنى مع الأتراك .

واستمع سيجسموند الأول وهو زوج ابنة لويس بحكم كان من الممكن أن يؤدى طوله (١٣٨٧ — ١٤٣٧) إلى وضع سياسة طويلة بعيدة النظر . ولكن أعماله كانت فوق طاقته . فقد جيشاً جراراً ضد بايزيد فى نيكوبوليس ، ولم ينج من الكارثة إلا بحياته . وأدرك أن الزحف التركى قد أصبح أخطر مشكلات أوروبا ، وبذل عناية فائقة وأموالا لا تكتفى لتحصين الحدود الجنوبية ، وشيد عند ملتقى الدانوب بالساف حصن بلغراد الكبير . بيد أن انتخابه لإدارة الإمبراطورية جعله يهمل هنغاريا إبان غيبته الطويلة فى ألمانيا ، كما أن حصوله على تاج بوهيميا قد وسع من مسئولياته دون أن يزيد فى قدراته .

وغزا الأتراك المنتشرون هنغاريا بعد سنتين من وفاته . وأثمرت الأمة فى هذه الأزمة أشهر أبطالها . ولقد حصل هانيدى جانوس على لقبه من قاعة هانيدى فى ترانسلفانيا ، وهو معقل منيع منح لأبيه لحسن بلاته فى الحرب ودرب جانوس — أى جون — على الحرب كل يوم تقريباً فى صباه . وبرز بانتصاره على الأتراك فى سيمندريا ، وجعله الملك الجديد ، لاديسلاس الخامس ، كبير القواد على الجيوش التى تقاوم الأتراك . وأصبح رد العثمانيين على أعقابهم هو الشغل الشاغل فى حياته . فلما دخلوا ترانسلفانيا قاد محاربتهم فرقاً حديثة التنظيم تلهبها وطنيته وقيادته . وفى هذه الموقعة بذل سيمون كيمبنى ، الأثير فى الأدب الهنغارى ، حياته فى سبيل قائده : وكان قد علم أن الأتراك طلب إليهم أن يفتشوا عن هانيدى ويقتلوه ، فناشد سيمون قائده أن يتبادل الأزياء وإياه فسمح له بذلك .

ومات تحت وطأة الهجمات المركزة عليه ، بينما قاد هانياى الجيش إلى النصر (١٤٤٢) وأرسل مراد الثانى فرقاً جديدة تتألف من ثمانين ألف رجل إلى الجبهة ، فاستدرجهم بخيلاً إليهم أنه يتراجع ، إلى ممر ضيق - لا يسمح إلا لجزء يسير منهم بالقتال دفعة واحدة ، وانتصرت خطة هانياى مرة أخرى . وأزعجت مراد الثورات فى آسيا ، فسعى إلى الصلح ووافق على دفع تعويض مالى . فوقع الملك لاديسلاس وحلفاؤه هدنة مع مندوبين عن مراد ، هدنة تدعو الفريقين إلى الإخلاق إلى السلم . وأقسم لاديسلاس على الكتاب المقدس ، وأقسم سفراء الترك على القرآن (١٤٤٢) .

ولكن الكاردينال جوليانو شيزاريني ، القاصد الرسول فى بودا ، ما لبث أن وجد الوقت مناسباً للهجوم . فإن مراداً أخذ ينقل جيشه إلى آسيا وبذلك يستطيع أسطول إيطالى يتحكم فى الدردنيل أن يحول بينه وبين العودة واحتج الكاردينال الذى عرف باستقامته وقدرته ، بأن القسم لكافر لا يقيد المسيحى . ونصح هانياى بالإخلاق إلى السلم ، وأبقت الفرقة الصربية أن تحت بالقسم . ووافق مندوبو الأمم الغربية شيزاريني ، ووعدها بأن يسهموا بالمال والرجال فى حرب صليبية مقدسة . ولم ير لاديسلاس بدا من التسليم ، وقاد بنفسه هجوماً على مواقع الأتراك . ولم يأت للعدد الموعود من الغرب ، وراغ الجيش العثمانى المؤلف من ستين ألف رجل من الأشداء ، من أمير البحر الإيطالى وعبروا عائدين إلى أوروبا . وفى فارنه بالقرب من البحر الأسود ألحق مراد هزيمة منكرة بجند لاديسلاس البالغ عددهم عشرين ألفاً (١٤٤٤) وكان حامل اللواء فى الجيش التركى يرفع المعاهدة الممتهنة على رمح . فنصح هانياى الملك بالانسحاب ولكنه أمر بالتقدم . وناشده هانياى أن يبقى فى المؤخرة ، بيد

أن الملك اندفع إلى المقدمة ، وقتل . ولم يسترد شيزاريني شرفه
ببذل حياته .

وحاول هانيادى بعد ذلك بأربع سنوات أن يرفع البلاء . فشق طريقه
عبر الصرب المعادية له ، والتقى بالأتراك في قوصوه في معركة حامية
استمرت ثلاثة أيام . واندحر الهنغار يون ولاذ معهم هانيادى بالفرار ،
واختفى أياماً في بطيحة ماء ، وبرز ، بعد أن أشرف على الموت جوعاً .
فعرفه الصرب وأسلموه إلى الأتراك . وأطلق سراحه بعد أن وعد بألا
يقود جيشاً على أرض الصرب بعد ذلك :

وفي عام ١٤٥٦ حاصر الأتراك بلغراد . وصوب محمد الثانى على
القلعة المدفعية الثقيلة التى هدمت أسوار القسطنطينية . ولم يعرف الأوربيين
قبل ذلك قصصاً عنيفاً بالقنابل كهذا . وقاد هانيادى الدفاع بحنكة وشجاعة
لم يغفلهما الشعر الهنغارى قط . وآثر المحاصرون ، آخر الأمر خوض المعركة
على الموت جوعاً ، فاندفعوا من الحصن ، وشقوا طريقهم إلى المدفع
التركى ، وهكذا انتصروا على العدو انتصاراً حاسماً فتخلصت هنغاريا
ستين سنة بعد ذلك من أى هجمة إسلامية . وبعد أيام قلائل من هذا
الدفاع التاريخى مات هانيادى بالحمى في خيمته . وتمجده هنغاريا باعتباره
أعظم رجالها .

٥ - المد في عنفوانه (١٤٥٣ - ٨١)

تابع الأتراك فتح البلقان واستسلمت الصرب آخر الأمر عام ١٤٥٩ ،
وظلت ولاية تركية إلى عام ١٨٠٤ . واستولى محمد الثانى على كورنثة
بعد أن حاصرها وأثينا دون أن يرفع ربحاً (١٤٥٨) ومنح الفاتح ،
مثله في ذلك مثل قيصر ، الآتينيين شروطاً سهلة احتراماً لأسلافهم وأبدى
اهتماماً ينم عن الثقافة بالآثار الكلاسيكية وحق له أن يبتهج ، لأنه لم ينتقم من
الصليبيين فحسب وإنما ثار لوقعة مرثون أيضاً . وقبلت البوسنة ، التى

لقت عاصمتها وثرها راجوسه بأثينا الصقلية لمظهرها الثقافي ، الحكم
التركي عام ١٤٦٣ وقبلت الإسلام في يسر أذهل الغرب .

وكان أشجع غرماء الترك في النصف الثاني من القرن الخامس عشر هو
اسكندر بك الألباني . واسمه الحقيقي جورج من كاستريوتا ، ولعله كان من
أسرة صقلية متواضعة ، ولكن الأساطير المحببة لشعبه تجعله من أسرة ملكية
أيروسية وتسبغ عليه شباباً مغامراً . ولقد أنبئنا أنه قدم في صباه رهينة لمراد
الثاني ، وأنه نشأ في بلاط العثمانيين بأدرنة . وأحب السلطان فيه الشجاعة
والاحتمال حتى عامله كأحد أبنائه وجعله ضابطاً في الجيش التركي . ودخل
في الإسلام وسمى بهذا الاسم اسكندر بك — أي الأمير اسكندر —
وبعد أن قاد الأتراك في وقائع كثيرة ضد المسيحيين ندم على ارتداده عن
المسيحية واحتال للفرار . وأنكر الإسلام ، واستولى على العاصمة الألبانية
كروجا من حاكمها التركي وأعلن العصيان (١٤٤٢) وأرسل محمد الثاني
الجيش تلو الجيش لمعاقبته ، فهزمها جميعها اسكندر بك بسرعة تحركاته
العسكرية وبراعته في المراوغة وشغل محمد بحروب أكبر ، فنحه هدنة
عشر سنوات (١٤٦١) . ولكن مجلس شيوخ البندقية والبابا بيوس الثاني
أقنعوا اسكندر بك بأن يخرج على الهدنة ويواصل الحرب (١٤٦٣) .
وتوعد محمد المسيحيين باعتبارهم كفاراً حائنين بوعودهم وعاد إلى حصار
كروجا . وأبلى اسكندر بك بلاءاً حسناً في الدفاع عنها مما اضطر السلطان
إلى رفع الحصار مرة أخرى ، وبين حطام النصر مات اسكندر بك
(١٤٦٨) واستسلمت كروجا عام ١٤٧٩ ، فأصبحت ألبانيا ولاية
تابعة لتركيا .

وفي الوقت نفسه ابتلع محمد الذي لا يشبع الموره وأطرابزنده ولسبوس
ونجروبولنت (أثيوبيا القديمة) والقرم . وفي عام ١٤٧٧ عبر جيش من

جيوشه الأيزونزو وخرب الجانب الشمالى الشرقى لإيطاليا على مسيرة اثنين وعشرين ميلا من البندقية وعاد إلى الصرب محملا بالغنائم . وسامت البندقية التى استولى عليها الفرع والتى حاربت طويلا دفاعاً عن ممتلكاتها فى بحرى إيجيه والأدرياتي ، بكل حق لها فى كروجيا وسكوتارى ، ودفعت تعويضاً مقداره عشرة آلاف بندق^(١) . أما أوروبا الغربية التى فشلت فى معاونة البندقية ، فقد أنكرت عليها أن تبرم وتحافظ على الصلح مع الكافر . ووصل الأتراك بذلك إلى الأدرياتي ، ولم يعد هناك ما يفصلهم عن إيطاليا وروما والفاتيكان ، غير جانب ضيق من البحر ، عبره قيصر بقارب صغير . وفى عام ١٤٨٠ أرسل محمد جيشاً عبر هذا الجانب الصغير لمهاجمة مملكة نابولى . واستولى على تورنتو فى يسر ، وأعمل السيف فى نصف عدد السكان البالغ اثنين وعشرين ألف نسمة ، واسترق الباقين وشطر أحد كبار الأساقفة نصفين . وأصبح مصير المسيحية ووحداية الزوجة معلقاً فى كفة ميزان . وأنهى فيرانت ملك نابولى حروبه مع فلورنسه ، وأرسل خير فرقة لاستعادة تورنتو . وكان محمد قد ورط نفسه فى حصار رودس ومات أثناء المغامرة ، وظلت رودس مسيحية إلى عهد سليمان ورفع الأتراك قبضتهم عن تورنتو وعادوا إلى البانيا (١١٨١) . وتوقف المد العثمانى عن السير لحظة .

٦ — النهضة الهنغارية (١٤٥٦ — ٩٠)

فى نصف القرن الذى ظفر فيه هانيادى لهنغاريا بالأمن ، قاد ابنه ماتياس كورفينوس بلاده إلى أوجها التاريخى . وكان فى السادسة عشرة من عمره

(١) الدوقات هى البندقى ، عملة أجنبية قديمة تنسب إلى البندقية وتسمعمل أيضا عياراً للذهب .

فقط عند جلوسه على العرش ، ولم يكن فيه سميت الملوك ، إذ كانت ساقاه قصيرتين -- بالقياس إلى جذعه ، ولا يبدو طويل القامة إلا إذا امتطى صهوة جواد ، ومع ذلك فقد كان له صدر مصارع وذراعه وقوته وإقدامه ، وبعد تنويجه بوقت غير طويل تحدى إلى مبارزة فردية فارساً ألمانيا ضخماً الجثة عظيم القوة ، صرع في جولة واحدة في مدينة بودا جميع منافسيه ، وتوعد ماتياس غريمه بأن يشنق إذا أخفق في المبارزة بكل ما أوتي من عزيمة وبراعة . وأكد المؤرخون الهنغاريون بأن الملك الشاب وقد حفزه هذا المأزق العصيب قضى على العملاق قضاء مبرماً . وأنضجت الأيام ماتياس حتى أصبح جندياً بأسلاً وقائداً محنكاً ، فهزم الأتراك كلما التقى بهم ، واستولى على مورافيا وسيليزيا ولكنه أخفق في فتح بوهيميا وخاض أربعة حروب ضد الإمبراطور فريدريك الثالث ، وأخذ ثينا وألحق بها النمسا (١٤٨٥) ، وكانت الإمبراطورية النمساوية الهنغارية في الواقع هنغارية .

وجعلت انتصاراته الملكية متفوقة على طبقة النبلاء بعض الوقت ، وكانت مركزية الحكم هنا كما كانت في غرب أوروبا طابع العصر ، وضارع بلاطه في بودا وفي القصر الملكي في فيسجراد أية أبهة ملكية وجدت في ذلك العهد ، وأصبح كبار النبلاء خدامه ، واشتهر سفراؤه بفخامة أردبتهم وخدمهم وحشمهم ، وكانت دبلوماسية ماتياس مأكرة غير مبردة ، ودودة سخية ، فقد اشترى بالذهب ما يكلف ضعفه بالحرب ، ووجد في الوقت نفسه الوقت والحاسة لإصلاح كل إدارة في الحكومة ، وليعمل بنفسه كإداري يقظ وقاض إمبراطوري . وأخذ يتجول متخفياً بين أفراد الشعب والجنود والمحاكم ، فاختبر لثوه سلوك موظفيه ، وأصلح من شأنهم بالمنافسة والعدل وبغير محاباة أو خوف وعمل ما يستطيعه لحماية الضعيف من القوي ، والفلاحين من سادتهم المغتصبين . وبينما استمرت الكنيسة تزعم أن البلاد ملك بابوي ، فإن ماتياس قد بين ونظم تعيين الأساقفة واستمتع بمجاسته عندما

عين صيبيا إيطاليا في السابعة من عمره كبير أساقفة هنغاريا فأرسل تجار مدينة فرازا ، ردأ على هذه الفكاهة ، إلى كبير الأساقفة الجديد مجموعة من اللعب .

وتزوج ماتياس عام ١٤٧٦ بياتريس أميرة أرجون ، ورحب في هنغاريا بالروح النابولية المرحية والأذواق الإيطالية المصقولة لحفيدة الفونسو الهمام . وشجع الاتصال بين هنغاريا ونابولي تلك القرابة الأنجوية^(١) بين الأسرتين المالكتين ، ولقد تعلم في إيطاليا كثير من رجال الحاشية في بودا . وتشبه ماتياس نفسه بالحكام المستبدين لعصر النهضة الإيطالية ، في نزعاته الثقافية إلى جانب اتجاهه المكيافلي في الحكم ، وأرسل لورنزو ده مدتشى نقشين بارزين من البرونز صنعها فيروكشييه وأوفد لودوفيكو أليورو ، ليوناردو دافنشى ؛ ليصور العذراء وطفلها للملك الهنغارى مؤكداً للفنان أنه من القلائل الذين يستطيعون تقدير الصورة العظيمة . وقام فيليبينولبي بعمل صورة أخرى للعذراء وطفلها وذلك لكورفينوس ؛ وزين تلاميذه القصر الملكى في أذترجوم بالصور الجدارية ؛ ووضع نحات إيطالى تمثالاً نصفياً لبياتريس ؛ ولعل الصائغ المشهور ، كارادوسو ، وهو من مدينة ميلانو هو الذى صمم صورة المسيح على الصليب البارعة في أذترجوم ؛ ونقش بينيدتو داميانو زخارف القصر في بودا ؛ وشيد إيطاليون مختلفون هيكل الكنيسة الصغيرة على طراز عصر النهضة في القسم الداخلى من العاصمة ؛

واتبع النبلاء والمطارنة الملك ، في رعاية الفنانين والعلماء ، بل إن المدن المشهورة بالتعدين في داخل البلاد قد وجد فيها من الأغنياء من يرفعون من قدر الثروة ، بالإتفاق على الفن ، وشيدت دور جميلة مدنية ودينية لا في بودا وحدها ولكن في فيزجراد وتانا وأترجوم وناجيفا وفاك أيضاً ، وزين مئات

(١) نسبة إلى أنجو .

من النحاتين والمصورين هذه المباني . ووضع جيوفاني دلمانا تماثيل مشهورة لهانيادي جانوس وغيره من الأبطال الهنغارين وتألفت في كسا ، مدرسة صحيحة للفنانين ، ولقد نقش هناك « المعلم ستمين » وغيره ، للمذبح الكبير لكنيسة القديسة اليزابث ، حظاراً زخرفياً ، تبدو تماثيله الأساسية لإيطالية في صقلها ورشاقتها وجمالها ، ونحت فريق آخر في الصخر لكنيسة بزرزبانيا نقشاً بارزاً عظيماً ، وهو « المسيح في بستان الزيتون » ، يدهش من رآه بتفاصيله الدقيقة وتأثيره الدرامي ، وظهرت قوة مماثلة في التعبير والفن في الصور الهنغارية التي بقيت من ذلك العصر ، مثل ما نجده في « صورة مريم » تزور اليزابث ، رسمها « المعلم م . س » وهي الآن في متحف بودابست . ولقد تلف أوضاع كل الفن تقريباً الذي أثمرته تلك المرحلة المشرقة من تاريخ هنغاريا إبان الغزو العثماني في القرن السادس عشر ، وبعض التماثيل يوجد الآن في اسطنبول ، نقلها إليها الأتراك المنتصرون .

وكانت اهتمامات ماتياس أدبية أكثر منها فنية ، كما كان دارسو الكلاسيات الأجانب منهم والوطنيون محل ترحيب في بلاطه ، وبمحصلون على رواتب كبيرة لوظائف اسمية في الحكومة . وكتب أنطونيو بوتفيني تاريخاً لهذا العهد بلغة لاتينية على منوال لينى ، وجمع جانوس فيتيز ، كبير أساقفة حران ، مكتبة عامرة بالكتب الكلاسيية القديمة ، وخصص الأموال لإرسال شباب الدارسين لتعلم اليونانية في إيطاليا . وأنفق أحد هؤلاء وهو جانوس بانونيوس سبعة أعوام في مدينة فرارا ، وسمح له بأن يكون في حلقة لورنزو بفلورنسة ، وأدهش البلاط بعد أن عاد إلى هنغاريا ، بأبياته اللاتينية ومحاضراته اليونانية . وكتب بوتفيني عندما تحدث بانونيوس باليونانية ، « نعتقد أنه لا بد وأن يكون قد ولد في أثينا » ولعل إيطاليا وحدها هي التي كان يجد فيها المرء ، مثل هذه الكوكبة من الفنانين والعلماء وبمحصلون على معاش لهم في بلاط ماتياس ، وذلك في الربع الأخير من القرن الخامس عشر . وتعد الرابطة

الأدبية للدانوب من أقدم الجمعيات الأدبية في العالم ، وقد أسست في بودا عام ١٤٩٧ .

وجمع كورفينوس مثل معاصريه من آل المدتشى الآثار الفنية والكتب وأصبح قصره متحفا للتماثيل والقطع الفنية ، وتذهب رواية إلى أنه كان ينفق على الكتب ثلاثين ألف كرون كل عام ، وهى فى أكثر الأحوال مخطوطات أنفق الكثير على تزيينها ولم يكن مع ذلك مثل فيديريجودا مونيفلتر ويرفض الكتب المطبوعة ، فلقد أسست مطبعة فى بودا عام ١٤٧٣ ، أى قبل دخول الطباعة لإنجلترا بثلاثة أعوام . وكانت مكتبة كورفينوس التى ضمت عشرة آلاف مجلد عند وفاة ماتياس ؛ أحل مكتبات القرن الخامس عشر خارج إيطاليا . ولقد وضعت هذه الكتب فى قصره بمدينة بودا وخصصت لها قاعتان فسيحتان ؛ لهما نوافذ من الزجاج الملون تطل على الدانوب ؛ وكانت الرفوف كثيرة النقوش ؛ والكتب مجلدة فى معظمها برق الغزال وعليها ستائر من المخمل المزركش . ويظهر أن ماتياس قرأ بعض هذه الكتب ، وتوسل بكتاب لىنى على الأقل طلبا للنعاس ، ولقد كتب إلى أحد دارسى الكلاسيات « أيها العلماء ؛ ما أسعدكم ! إنكم لا تجاهدون فى سبيل الحجد المصبوغ بالدم ؛ وفى سبيل تيجان الملوك ؛ وإنما تجاهدون فى سبيل أكاليل الغار التى تتوج الشعر والفضيلة . بل إنكم تستطيعون أن ترغمونا على نسيان ضجيج الحرب » .

ولم تعش السلطة المركزية التى نظمها ماتياس إلا فترة وجيزة بعد وفاته (١٤٩٠) . ولقد بعث قوة كبار الأمراء وسيطروا على لاديسلاس الثانى ، واختلسوا الموارد التى كان ينبغى أن تنفق على فرق الجيش فانفض الجيش وعاد الجنود إلى دورهم ؛ وبدد النبلاء ، الذين أعفوا من الضرائب ، دخلهم وجهدهم فى حياة معرودة صاخبة ، بينما كان الإسلام يهدد الجنود ، والفلاحون الذين استنزفهم الاستغلال ؛ يتهيأون للثورة . وفى عام ١٥١٤ أعلن مجلس الدايت الهنغارى حربا صليبية على الأتراك ، وعن حاجته لمتطوعين واستجاب

جم غفير من الفلاحين لفداء الصليب إذا لم يجدوا فارقا كبيراً بين الحياة والموت . ولما وجدوا السلاح في أيديهم ، انتشرت بينهم هذه الفكرة وهى لماذا ننتظر حتى نقاتل الأتراك البعيدين ، فى حين أن النبلاء المبعوثين قرييون ؟ وقادهم جندى اسمه جيورجى دوزا فى ثورة عارمة فاكتسحوا هنغاريا بأسرها ، يحرقون جميع القلاع ويقتلون جميع النبلاء الذين يقعون فى أيديهم - رجالا ونساء وأطفالا - فطلب النبلاء النجدة من كل ناحية . . . جنداً نظاميين ومرترقة ، وفاجأوا الفلاحين غير المنظمين وعذبوا زعماءهم تعذيباً مروعا . ومنع دوزا ومعاونوه الطعام أسبوعين . ثم ربط إلى عرش حديدى محمى بالنار ووضع على رأسه تاج محمى بالنار أيضاً ، ووضع فى يديه صولجان محمى بالنار . وسمح لرفاقه المشرفين على الموت جوعاً أن ينزعوا اللحم المشوى عن جسده وهو لا يزال حياً يعى . وقد تحتاج النقلة من الهمجية إلى الحضارة قرناً من الزمان ، أما التحول من الحضارة إلى الهمجية فلنما يحتاج إلى يوم واحد .

ولم يذبح الفلاحون لأنهم كانوا لا يعرضون بغيرهم ، ولكن القانون الثالث (١٥١٤) يقرر : « أن التمرد الحديث . . . يضع فى كل وقت وصمة الخيانة على كاهل الفلاحين ، ومن أجل ذلك فقد تنازلوا عن حريتهم وأصبحوا خاضعين لسادتهم الملاك فى عبودية دائمة غير مشروطة وكل نوع من أنواع الملكية يحوزه المالك الإقطاعى ، وليس من حق الفلاح أن يطالب العدل ويحتكم إلى القانون ضد أحد النبلاء .

وبعد ذلك باثنى عشر عاماً سقطت هنغاريا فى يد الأتراك .

الفصل الحادى عشر

البرتغال تستهل الثورة التجارية

١٣٠٠ - ١٥١٧

لقد جعلت البرتغال الصغيرة من نفسها فى هذا العصر ، دولة من أغنى وأقوى دول أوربا ، مع أنه لم يكن لها من المزايا الطبيعية غير ساحل بطل على البحر ولم تبلغ هذه المكانة إلا بالعزيمة الخالصة والمغامرة الجسور . ولقد أنشئت الملكية فيها عام ١١٣٩ ، فبلغت حكومتها ولغتها وثقافتها مكانة وطيدة فى عهد أحب حكامها إليها وهو دينيز « العامل » - الإدارى والمصلح والبناء والمعلم ، وداعى الفنون والمكابد الخاذق للأدب والحب . ولقد نضج ابنه أفونسو الرابع بعد حوادث إعدام وقائية ، فأصبح عهده مثمرآ ، ربطت فيه التجارة النامية مع إنجلترا ، فى اتحاد سياسى بين الأمتين لا يزال باقياً إلى اليوم . ووجه فونسو ابنه بدرو إلى الزواج من دونا كنستانزا مانويل ، توكيداً لمخالفة رشيدة مع قشتالة الآخذة فى القوة . فاستجاب الابن وتزوجها ، ولكنه استمر على حبه لإبنه ده كاسترو ، وهى من أصل ملكى . ولما ماتت كنستانزا ، كانت لإبنه عقبة فى سبيل زواج ديبلوماسى آخر لبدرو ، وأمر أفونسو بها فقتلت (١٣٥٥) على مضض . ولقد أورد كامبونز ، الذى يعد ملئن البرتغالى ، هذه القصة الغرامية المشهورة فى ملحمة القومية ، وهى لوزياد :

وهكذا جاءت جماعة القتلة ضد ابنه . . .

وأنفذ الوحوش سيوفهم فى نهديها الأبيضين . . .

وفي سورة غضب صبغوا باللون القرمزى ،
ولن يكون هناك انتقام سماوى بعد ذلك مثله .

واحتفظ بدرو بالرغبة فى الثأر ، حتى إذا ورث العرش بعد عامين
من هذا الحادث اقتص من القتلة ، ونبش القبر عن جثمان حبيبته وتوجها
ملكة ، ثم أعاد دفنها بما تستحقه من مراسيم ملكية . وحكم بقسوة
غذتها هذه المأساة .

وثمة قصة أقل شأنًا شوهت حكم خلفه . ذلك أن فرناندو الأول
فقد رأسه وقلبه فى سبيل ليونورا ، زوجة أمير بومبيرو ، وفك خطبته
لأميرة قشتالية ، وتزوج من ليونورا على الرغم من زوجها الذى على قيد
الحياة ومن كنيسة قد أهينت . وبعد أن توفى فرناندو (١٣٨٣) ،
ادعت أنها نائبة ملك ، وجعلت ابنتها بياتريز الملكة ، وخطبتها إلى
جون الأول ملك قشتالة . وثار الشعب لأنه توقع أن يصبح إقطاعاً تابعاً
لقشتالة ، وأعلن مجلس نواب اجتماع فى كوامبرا أن العرش البرتغالى انتخبى
واختار دون جُؤاً - جون - ابن بدرو من أبيه ملكاً على البرتغال .
وأخذت قشتالة على نفسها ، ~~أن تخطب~~ بياتريز بالقوة ، فحشد جون
جيشاً ، واقترض خمسمائة من حملة السهام من إنجلترا ، وهزم القشتاليين فى
ألبوباروتا ، وذلك فى الخامس عشر من أغسطس عام ١٣٨٥ - وهو اليوم
الذى يحتفل به سنوياً على أنه عيد استقلال البرتغال .

وهكذا افتتح جون الكبير حكمه الذى استمر ثمانى وأربعين سنة ،
كما بدأ أسرة - بين افز - التى جلست على العرش قرنين من الزمان .
واعترف بالإدارة وأصلح القانون والقضاء ، وجعلت اللغة البرتغالية
هى اللغة الرسمية ، وبدأ أدبها فى الظهور . وكان العلماء هنا ، كما
كانوا فى أسبانيا ، يستعملون اللغة اللاتينية ، حتى القرن الثامن عشر ،
ولكن فاسكو دا لوبرا كتب باللغة القومية قصة فروسية ، أما ديس دا

جولا (١٤٠٠) التى أصبحت بعد ترجمتها أشيع كتاب غير دينى فى أوربا . وعبر الفن القومى عن نفسه مزدهيا فى كنيسة سانتا ماريا دا فكتوريا ، التى شيدها فى باطلها جون الأول ، تمجيداً لوقعة ألجوباروتا ، وهى تضارع كاتدرائية ميلان فى الحجم ، وكنيسة نوتردام فى باريس ، فى الفخامة المعقدة للركائز والأبراج . وفى عام ١٤٣٦ أضيفت كنيسة صغيرة جميلة التصميم والزخرف تستقبل رفات الملك ابن السفاح .

ومجد فى بنيه . فخلفه دوارت — إدوارد — وأحسن الحكم مثله تقريباً ووحيد بدرو القوانين ، واستهل — هنرى — « هنرى الملاح » الثورة التجارية التى قدر لها أن تغير خريطة الكرة الأرضية . ولما استولى جون الأول على سبته من المغاربة (١٤١٥) خلف هنرى البالغ من العمر إحدى وعشرين سنة حاكماً على هذا المعقل المنيع ، وهى عند مضيق جبل طارق تماماً . وفتنته روايات المسلمين عن تمبكتو والسنغال والذهب والعاج والعبيد التى يمكن الحصول عليها على طول الساحل الغربى لأفريقيا ، فعزم الشاب الطموح على أن يكتشف تلك الربوع ويضمها إلى البرتغال . فربما قاده نهر السنغال الذى تحدث عنه من أخبروه ، صوب الشرق إلى منابع نهر النيل وإلى بلاد الحبشة المسيحية ، وبذلك يُفتتح طريق مائى عبر إفريقيا من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر — ومن ثم إلى الهند ، ويتحطم الاحتكار التجارى للتجارة مع الشرق ، وتصبح البرتغال دولة كبرى . وقد يدخل سكان الإقليم بعد فتحه فى المسيحية ويحصر الإسلام فى إفريقيا من الشمال ومن الجنوب بدول مسيحية ؛ ويصير البحر الأبيض المتوسط آمناً للملاحة المسيحية . ويبدو أن هنرى لم يفكر فى طريق يدور حول أفريقيا ، ولكن هذا الطريق كان ثمرة جهده .

ولقد أقام حوالى عام ١٤٢٠ فى ساجرس على الطرف الجنوبى الشرقى للبرتغال وأوربا ، داراً لاستخلاص الأخبار المتعلقة بالمعرفة والمغامرة

البحريتين . وجمع ودرس هناك ، هو ومعاونوه ، وفيهم فلكيون ورسامو خرائط من اليهود والمسلمين في مدى أربعين سنة تقارير الملاحين والرحالة ، وسيروا إلى البحار المخوفة بالمخاطر ، سفناً خفيفة ، مزودة بالأشعة والمجاذيف ، ويقوم عليها من ثلاثين إلى ستين رجلاً . وكان أحاً قباطنة هنرى قد أعاد كشف ماديرة (سنة ١٤١٨) ، التي سبق أن رآها البحارة الجنوبيون قبل ذلك بسبعين سنة ثم عفى عليها النسيان ، ولقد طور وقتذاك المستعمرون البرتغاليون مواردها ، وسرعان ما عوضت غلة من السكر وغيره من المنتجات ، نفقات الاستعمار ، وشجعت الحكومة البرتغالية على الاستجابة لمطالب هنرى إلى المال ولاحظ جزر الآزور على خريطة إيطالية رسمت عام ١٣٥١ ، فأرسل جنرالو كابرال للبحث عنها ، وتحقق مرايو دي روبين عامى ١٤٣٢ - ٤٤٤ ، ضم هذه الجواهر البحرية ، الواحدة بعد الأخرى إلى التاج البرتغالى .

بيد أن أفريقيا هي التي استهوته أكثر من غيرها . ولقد أبجر البحارة القطلونيون والبرتغاليون ، ما يقرب من تسعمائة ميل على طول الساحل الغربى إلى بوجا دور (١٣٤١ - ٤٦) . ومع ذلك . فإن التتوء الكبير للقارة العظيمة الممتد غربا فى المحيط الأطلسى ، قد ثبط هم البحارة فى الكشف عن الجنوب ، فانسحبوا إلى أوروبا متعللين بحكايات عن المواطنين المفزعين ، وعن بحر تشدد كثافة الملح فيه إلى حد لا تستطيع معه أن تشقه أى سفينة ، وعن دلائل تؤكد أن كل مسيحى يجاوز بوجا دور ينقلب إلى زنجى . ولقد رجع القبطان جيليان إلى سامبرس بأعذار مشابهة عام ١٤٣٣ ، فأمره هنرى أن يعيد الكرة ، وطالبه أن يعود ببيان واضح عن الأراضى والبحار جنوبى الرأس المحرم . وأدى هذا التحريض بجيليان إلى أن يصل إلى مسافة تبعد مائة وخمسين ميلا عن بوجادور (١٤٣٥) . وأذهله ما رآه من وفرة النبات فى المناطق الاستوائية ، مناقضاً ما قال به أرستو وبطليموس ، من أن

الصحرارى هى التى توجد فقط تحت الشمس المحرقة ، وبعد ذلك بست سنوات أبحر نونوترستاو ، إلى رأس بلانكو ، وعاد إلى موطنه ومعه بعض الزنوج الأشداء ، الذين سرعان ما عمدوا واستعبدوا ، وشغلهم الأمراء الإقطاعيون فى المزارع البرتغالية ، وكانت أول نتيجة هامة لجهود هنرى ، هى افتتاح تجارة الرقيق . وزود الأمير بمعونة مالية جديدة . وأبحرت سفنه لتستكشف وتنصر الأهلىن فى الظاهر ، ولتحصل على الذهب والعاج والعبيد فى الواقع . وعاد القبطان لانزاروت عام ١٤٤٤ ومعه مائة وخمسة وستون زنجياً ، وقد شرعوا فى فلاحه أراضى فرقة يسوع المسيح الرهبانية العسكرية . ولقد وصف معاصر برتغالى اقتناص هؤلاء الزنوج بقوله :

كان رجالنا يهتفون ، « القديسة ياجو ، القديس جورج ، البرتغال » . ويسقطون عليهم فيقتلون أو يخطفون كل من تقع عليه أيديهم . وقد تشاهد هناك أمهات يهربن بأطفالهن ، وأزواجاً يفرون بزوجاتهم وكل منهم يبذل — قصاراه للنجاة . يتفزع بعضهم فى البحر ، وبرى بعضهم أن يختبئ فى أركان أخصاصهم ، وخبأ البعض أطفالهم تحت الشجيرات . . . حيث كان رجالنا يعثرون عليهم . والله الذى يمنح كل إنسان ما يستحق من جزاء وهب رجالنا آخر الأمر فى ذلك اليوم النضر على أعدائهم : وتعويضاً لهم على ما بذلوه من عناء فى خدمته أخذوا مائة وخمسة وستين بين رجال ونساء وأطفال ، ولم يحسب القتلى فى هذا العدد .

ولم يأت عام ١٤٤٨ حتى كان قد أحضر إلى البرتغال نيف وتسعمائة عبد ، ويجب أن نضيف أن المسلمين فى شمال أفريقيا قد سبقوا المسيحيين فى نشر تجارة الرقيق ، وكان زعماء الزنوج أنفسهم يبتاعون الرقيق من البرتغاليين فى مقابل الذهب والعاج ، وكان الإنسان سلعة للوحوش الآدمية المفترسة . ولقد بلغ دينيز دياز عام ١٤٤٥ الجبل الخصب الداخلى فى البحر المعروف بالرأس الأخضر ، واكتشف لانزاروت عام ١٤٤٦ مصب نهر السنغال ،

وعثر كادا موستو عام ١٤٥٦ على جزر الرأس الأخضر . وفي هذه السنة مات الأمير هنرى ، ولكن المغامرة استمرت بالحافز الذى منحها إياه وبالغنى الاقتصادى الذى يمولها . وعبر جواو ده سانتارم خط الاستواء (١٤٧١) . ووصل دو يوجوكاو إلى نهر الكونغو (١٤٨٤) ، وأخير أشق بارثلميو دياز ، بعد نصف قرن من حملة هنرى الأولى ، طريقه وسط العواصف وإغراق السفن ، حتى طاف بأقصى الطرف الجنوبى لأفريقيا (١٤٨٦) . وابتهج عندما وجد أنه يستطيع بذلك الإبحار شرقا ، فالهند مستقيمة أمامه ، وقد بدت فى قبضته تقريبا ، ولكن رجاله المتعبين أرغموه على العودة ، فندب البحار القاسية التى خلعت قلوب رجاله فأطلق على الطرف الجنوبى لأفريقيا اسم رأس النداب ، ولكن الملك جون الثانى ، رأى الهند بعد الانحناء أطلق على الموضع اسم رأس الرجاء الصالح .

ولم يعيش دياز أو الملك ليريا تحتمق الحلم الذى أثار البرتغال بأسرها وهو طريق مائى كامل إلى الهند ، واستشعر الملك عمانويل الغيرة للثروة والتشريف اللذين جلبهما كولمبوس إلى إسبانيا فكلّف عام ١٤٩٧ فاسكودا جاما ، أن يبحر حول إفريقيا إلى الهند ، ولقد أبحر القبطان البالغ من العمر ثمانية وعشرين عاما ، وقد أرغمته العواصف أن يتخذ طريقا دائريا ما يقرب من خمسة آلاف ميل فى مائة وسبعة وثلاثين يوما حتى بلغ رأس الرجاء الصالح ، ثم رحل أربعة آلاف وخمسمائة ميل فى مائة وثمانية وسبعين يوما أخرى . . تتخللها مئات المخاطر والأهوال حتى بلغ كاليكوت وهى ملتقى رئيسى للتجارة بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب فى آسيا ، وألقى مراسيه هناك فى العشرين من مايو عام ١٤٩٨ ، أى بعد عشرة أشهر واثني عشر يوما من تركه لشبونه ، وما أن هبط إلى البر حتى قبض عليه باعتباره قرصانا ونجا من الإعدام بأعجوبة . وتغلب بشجاعته النادرة ومنطقه الخلاب على ارتياب الهنود فيه وغيره المسلمين منه وظفر بالترخيص للبرتغاليين

بالتجارة وأخذ معه مقداراً عظيماً من الفافل والزنجبيل والقرفة وجوز الطيب والجواهر وترك كاليكوت في التاسع والعشرين من أغسطس في رحلة شاقة استغرقت سنة عائداً إلى لشبونة . وهكذا وجد البرتغاليون آخر الأمر طريقاً إلى الهند متحرراً من نقل السلع من سفينة إلى أخرى ومن المكوس المفروضة على الطرق البحرية والبرية في إيطاليا عبر مصر وبلاد العرب وفارس . وكانت النتائج الاقتصادية أكثر حيوية لأوروبا مدى قرن كامل من تلك التي نجمت عن اكتشاف أمريكا .

ولم يفكر البرتغاليون إلى عام ١٥٠٠ في محاولة الإبحار غرباً لأنهم اعتزلوا بالوصول إلى الهند الحقيقية ، بينما كان الملاحون الإسبان يتخبطون في جزر الهند المزعومة بالبحر الكاريبي . بيد أن بدرو كبرال وقع على البرازيل في تلك السنة بعد أن جرفته الرياح عن الطريق الذي سلكه إلى الهند عن طريق إفريقيا ، وفي هذه السنة أيضاً أعاد جناسبار كورت ريال اكتشاف لبرادور . وفي عام ١٥٠٣ اكتشف أمريجو فيسبوتشي في ظل العلم البرتغالي ريوبلاتا وباراجواي ، وعثر ترستاو داكونها على الجزيرة التي تحمل اسمه في النصف الجنوبي من المحيط الأطلسي . ومع ذلك فقد رأى السياسيون البرتغاليون ، البرازيل قليلة الغناء في حين أن كل حملة تأتي من الهند تملأ خزائن الملك وجيوب التجار والملاحين .

واحتفظت الحكومة البرتغالية بالسيطرة الكاملة على التجارة الحديدية ، ما دامت التجارة تحتاج إلى حماية عسكرية صارمة . وكان التجار المسلمون قد وطدوا أقدامهم منذ أمد طويل في المراكز الهندية ، وانضم إليهم بعض ذوى النفوذ من الهنود في مقاومة الغزو البرتغالي ، واختلطت إذ ذاك التجارة بالحرب والمال بالدم في هذه الثورة التجارية العارمة . وأصبح أفونسوده ألبوكرك أول حاكم على الهند البرتغالية عام ١٥٠٩ وشن هجوماً بعد هجوم على المسلمين والهندوس حتى استولى على عدن وهرمز على الساحل العربي

وحصنهما . كما استولى على جوا في الهند وملقة في شبه جزيرة الملايو ، ومن ملقة أحضر إلى بلاده غنيمة مقدارها مليون بندق . وأصبحت البرتغال بفضل تسليحها على هذا النحو سيدة التجارة الأوربية مع الهند وجزر الهند الشرقية مدى مائة وخمسين سنة . ووطد التجار البرتغاليون أقدامهم شرقاً حتى بلغوا مولوكاس (١٥١٢) وابتهجوا إذ وجدوا جوز الطيب والتوابل والقرنفل في جزر التوابل هذه ألد طعماً وأرخص ثمناً منها في الهند . ولم يقنع البوكرك بما حققه فأبحر ومعه عشرون سفينة إلى البحر الأحمر واقترح على ملك الحبشة المسيحي أن يجمعوا قواتهما ليحفرا قناة من النيل الأعلى إلى البحر الأحمر وبذلك يحولان مجرى النهر ويجعلان مصر الإسلامية بأسرها صحراء قاحلة . وأرغمت المتاعب البوكرك أن يقفل راجعاً إلى جوا حيث مات عام ١٥١٥ . وفي العام التالي فتح دوارت جولو ، الصين الكوشينية^(١) وسيام للتجارة البرتغالية ، وفي عام ١٥١٧ أنشأ فرناو ببرز ده اندراد علاقات تجارية مع كانتون وبيكين .

وأصبحت الإمبراطورية البرتغالية — وهي أول إمبراطورية استعمارية حديثة — أوسع الإمبراطوريات رقعة في العالم ، لا تضارعها إلا الإمبراطورية التي تتكون لأسبانيا في الأمريكتين . وأضحت لشبونة سوقاً تجارية نافقة ، ترسو في مياهها سفن آتية من بلاد رومانسية بعيدة . ووجد تجار أوروبا الشمالية أن تفشل البندقية وجنوة في الحصول على السلع الآسيوية بأرخص الأسعار . وحزنت إيطاليا على احتكارها المفقود للتجارة الشرقية . وأصبحت النهضة الإيطالية بضربات قاضية على يد كولمبوس وفاسكو دا جاما ولوثر في جيل واحد ، فضعف أمرها وذبلت ، بينما سبقت البرتغال وأسبانيا ، اللتان سيطرتا على البحار المفتوحة في الازدهار الدول التي على المحيط الأطلسي .

(١) أخص دولة نامية الجنوب في الهند الصغيرة الفرنسية .

وانتعش الأدب والفن بهذا المجد الطريف . وأخذ فرنار لوبس يصف مدى عشرين سنة (١٣٣٤ — ٥٤) « تاريخه » الضخم الذى سرد فيه قصة البرتغال تتدفق فى السرد وقدرة على التشخيص يضارعان ما عند فروسار . واستهل جيل قيسانت الدراما البرتغالية بمسرحيات صغيرة للبلاط وفصول تمثل فى الأعياد العامة (١٥٠٠) وظهرت مدرسة برتغالية فى التصوير ، اتخذت قدوتها فى غلاندرز ولكنها حققت مزاجها ومزاياها الخاصة . وبلغ نوتوجونكالفز شأو مونتانيا وكاد يضارع آل فان ايكس ، فى مجموعة صورهِ القائمة التى رسمها لدير القديس سانت فنسنت . فإن الصور الجدارية بدائية فى المنظور والنسق ، بيد أن صور الأشخاص الخمسة والخمسين — وأحسنها صورة هنرى الملاح — تبرز الشخصية الفردية ببراعة واقعية . وأراد الملك عمانويل المحدود أن يخلد ذكرى رحلة فاسكودا جاما المظفرة ، فكلف المعمارى جواد القشتالى ، أن يشيد بالقرب من لشبونه دير بلم (١٥٠٠) الفخم على الطراز القوطى المشع . وهكذا دخلت البرتغال فى عصرها الذهبى .

الفصل الثاني عشر

أسبانيا

١٣٠٠ - ١٥١٧

١ - الشهيد الأسباني : ١٣٠٠ - ١٤٦٩

لقد وجدت أسبانيا في جبالها وقايتها ومأساتها في وقت واحد : فقد منحتها أمناً نسبياً من الغزو الخارجي ، ولكنها عوقت تقدمها الاقتصادي ووحدها السياسية وإسهامها في الفكر الأوربي . وقد عاش في ركن صغير من الشمال الغربي شعب نصف بدوي من الباسك وكانوا ينتقلون بأغنامهم من السهول إلى التلال ثم يهبطون إلى السهول مرة أخرى تبعاً لتقلبات الفصول . ومع أن كثيرين من الباسك كانوا رقيق أرض ، إلا أنهم جميعاً زعموا نبل المحتد ، وحكمت ولايتهم الثلاث نفسها تحت السيادة الراحية لقشتالة أو نافار . وظلت نافار مملكة قائمة برأسها ، حتى ضم فرديناند الكاثوليكي قسمها الجنوبي إلى قشتالة (١٥٥٥) بينما أصبحت البقية الباقية منها إقطاعاً ملكياً تابداً لفرنسا . وتملكت أراجون سردينيا منذ عام ١٣٢٦ وتبعها جزر البليار عام ١٣٥٤ . وصقلية عام ١٤٠٩ . وزادت ثروة أراجون نفسها بفضل صناعة وتجارة بالنسبة وطركونه وسراقسطة وبرشلونة — وهي عاصمة ولاية قطلونية ضمن مملكة أراجون . وكانت قشتالة أقوى الممالك الأسبانية وأوسعها رقعة . وقد حكمت المدن الآهلة أفيدو وليون وبرجس وبلد الوليد وسلامنكا وقرطبة وإشبيلية وطليطلة ،

وهى عاصمتها ، ولعب ملوكها أدوارهم أمام أكبر عدد من النظارة وفى سبيل أعظم المخاطر فى أسبانيا .

وأصلح ألفونسو الحادى عشر (١٣١٢ - ٥٠) قوانين قشتالة ومحاكمها وحول منافسات النبلاء إلى حروب تشن على المسلمين ، وشجع الأدب والفن ، وكافأ نفسه بخليعة نجبية . ولقد حملت له زوجته ابناً شرعياً واحداً ، نشأ فى ظروف غامضة وإهمال وحقد وأصبح فيما بعد بدرو الغشوم ومن الواضح أن اعتلاءه على العرش ولما يناهز الخامسة عشرة (١٣٥٠) جلب اليأس لأبناء الفونسو التسعة غير الشرعيين ، فقد أقصوا جميعاً عن البلاد ، وأعدمت أمهم ليونورا ده جزمان ، ولما جاءت عروسه الملكية بلانش البوربونيه من فرنسا من تلقاء نفسها ، تزوجها وأنفق ليلتين معها ثم أمر أن يدس لها السم متهماً إياها بالتآمر (١٣٦١) وتزوج عشيقته ماريادى باديللا ، التى تؤكد الأسطورة أن جمالها بلغ من الخلابه حداً ، جعل فرسان البلاط يشربون بنشوة ماء اغتسلها . وكان بدرو محبوباً فى الطبقات الدنيا التى أيدته إلى النهاية المريرة ، ولكن المحاولات المتكررة من اخوته غير الأشقاء لإقصائه عن العرش ، قد دفعته إلى مجموعة من الدسائس والقتل وانتهاك الحرمات ، تقف فى وجه كل حكاية وتلطخها بالدم . واستطاع هنرى التراستامارى ، أكبر أبناء ليونورا أن ينظم ثورة موفقة ويقتل بدرو بيديه ويصبح هنرى الثانى ملك قشتالة (١٣٦٩) .

ولكننا نظلم الأمم إذا حكمنا عليها من ملوكها ، لأنهم اتفقوا مع مكيا فى أن الأخلاق لم تجعل للملوك . وبينما نجد الحكام يتلهون بالقتل الفردى أو المتخذ صفة القومية ، فإن الشعب الذى بلغ عدده عشرة ملايين عام ١٤٥٠ ، هو الذى أنشأ حضارة اسبانيا ، ومع أنهم كانوا يعتزون ببقاء أرومتهم إلا أنهم كانوا مزيجاً غير ثابت من الكلت والفينيقيين والقرطاجنيين والرومان والقوط الغربيين والوندال والعرب والبربر واليهود ، وعند سفح الكيان

للاجتماعى قليل من العبيد ، وطبقة من الفلاحين ظلوا رقيق أرض إلى عام ١٤٧١ ، وفوقهم العمال اليدويون والصناع وتجار المدن ، وفوق أولئك وهؤلاء الفرسان (caballeros) فى طبقات رفيعة من الشرف ، والنبلاء الذين يعتمدون على الملك (أبناء الأسر العريقة bidalgos) والنبلاء المستقلون (proceres) وإلى جانب هؤلاء المدنيين طبقات الكهنوت تبدأ من قساوسة الأبروشيات فالأساقفة ورؤساء الأديرة وتنتهى برؤساء الأساقفة والكرادلة . ولكل مدينة مجلسها البلدى (conseijo) وهى ترسل مندوبين عنها ، ينضمون إلى النبلاء والمطارنة فى المجالس الإقليمية والقومية ، والأصل النظرى أن مراسيم الملوك تتطلب موافقة هذه المجالس لتصبح قوانين . ونظمت الأجور وشروط العمل والأسعار ومعدل الفائدة على الأموال ، المجالس البلدية أو النقابات . وتعثرت التجارة بسبب الاحتكارات الملكية وبالمكوس الحكومية التى تفرضها الدولة أو الأقاليم على الواردات والصادرات وتنوع الموازين والمقاييس وبالعمالات المتدهورة وقطاع الطرق وقرصان البحر الأبيض المتوسط ورفض رجال الدين للحساب واضطهاد المسلمين - الذين غلوا معظم الصناعة والتجارة بالقوة البشرية - واليهود ، الذين كانوا يدبرون شئون المال . وافتتح مصرف حكومى فى برشلونة (١٤٠١) بضمان حكومى لودائع المصرف ، وصدرت صكوك للتعامل ، وأنشئ تأمين بحرى قرابة عام ١٤٣٥ .

ولما كان الإسبان يجمعون فى أرومتهم بين الأصول السامية والأصول المناهضة للسامية ، لذلك احتفظوا بحرارة لإفريقيا فى دماهم ، وكانوا يميلون مثلهم فى ذلك مثل البربر ، إلى الوداعة والعنف فى القول والعمل فيهم سورة وفى عقولهم تطالع وفضول ، وهم جد أغرار ويؤمنون بالخرافة إلى حد نحيف واحتفظوا باستقلال للروح وكرامة للشجاعة حتى فى النكبات والفقر . كانوا يحبون اقتناء المال ولقد فطروا على ذلك ، ولكنهم لم يحتقروا الفقراء ولم

يلعقوا نعال الأغنياء . واحتقروا العمل وتقاعسوا عنه ، بيد أنهم احتملوا الشدائد برباطة جأش ، كانوا كسالى ومع ذلك غزوا نصف العالم الجديد . وظمثوا إلى المغامرة والعظمة والفروسية ، وكانوا يستمتعون بالمخاطر ولو كانت بالتفويض فحسب ، فإن مصارعة الثيران ، وهى من آثار كريت وروما كانت قد أصبحت لعبة قومية تقليدية رسمية زاخرة بالألوان محكمة ، تعلم الشجاعة والبراعة الفنية وسرعة الحاطر . ولكن الإسبان تناولوا مبايهمهم بشئ من الكآبة ، وهم يشبهون الإنجليز المحدثين (وعلى خلاف إنجليز عصر اليزابث) ولقد أضفى جذب التربة وظلال المنحدرات الجبلية على نفوسهم كآبة جارفة ، وكانت أخلاقهم جادة مستقيمة كاملة وهى أحسن كثيراً من المحافظة على صحة أبدانهم ، وكان كل إسباني مهذباً ، بيد أن التلييلين منهم . كانوا مفتولى الأجسام ، وازدهرت صور ألعاب من الفروسية وسط التاذورات التى اكتنفت الجماهير . وأصبحت مسألة الشرف عقيدة ، وكانت النساء فى إسبانيا ربات وسمجيات ، أما زى الطبقات العليا فكان بسيطاً فى أيام الأسبوع ويتحول إلى الأبهة أيام الأحاد والأعياد بالحرير الزاهى والقباء المكشكش والملمون المخرم والذهب . وكلف الرجال بالعطور والكعوب العالية . ولم يتنع النساء بفثنتهن الطبيعية فخلبن ألباب الرجال بالبنينة والخمرات والخمر يخفى وجوههن واتخذت المطاردة الجنسية آلاف الأشكال وتنكرت فى آلاف الصور ، وجاهدت صنوف الإرهاب الدينى والقوانين الصارمة ومسائل الشرف ، فى الحد من تلك المطاردة ولكن فينوس انتصرت على الجميع ، وزادت خصوبة النساء على غلة الأرض .

وكانت الكنيسة فى إسبانيا حليفاً لا ينفصل عن الدولة ، ولم تدخل باباً روما فى حسابها إلا قليلاً ، وتقدمت بمطالب كثيرة لإصلاح البابوية حتى عندما أعطتها اسكندر السادس الذى لا يعترف بالإصلاح ، وفى سنة ١٥١٣ حرم الكاردينال اكزيمينس نشر صكوك الغفران التى قدمها

يوليوس الثانى فى إسبانيا لإعادة بناء كنيسة القديس بطرس ، ونتج عن ذلك أن عد الملك رئيسا للكنيسة الإسبانية ، ولم ينتظر فرديناند فى هذا الشأن ، هنرى الثامن ليعلمه ، ولم تكن إسبانيا فى حاجة إلى إصلاح دينى يجعل الكنيسة والدولة أو الدين والقومية شيئا واحداً ، وحصلت الكنيسة على امتيازات مادية كجزء من هذا الاتفاق غير المكتوب فى ظل دولة تعتمد عليها اعتماداً واعياً فى توطيد النظام الأخلاقى والاستقرار الاجتماعى والعمل على قياد الشعب لها . ولم يكن موظفوها ، حتى الطبقات الدنيا منهم ، يخضعون إلا للمحاكم الكهنوتية . وامتلكت مساحات كبيرة من الأرض ، يفلحها مستأجرون لها ، وكانت تتسلم عشر غلة العقارات الأخرى ، ولكنها كانت تدفع ثلث هذا العشر للخزانة ، ولقد أعفيت من الضرائب علاوة على ذلك . ولعلها كانت أغنى إذا قيست إلى الدولة منها فى أى بلد آخر باستثناء إيطاليا . ومن الواضح أن أخلاق الإكليروس ونظام الأديرة ، كانت فوق مستوى القرون الوسطى ، بيد أن اتخاذ الخطايا قد شاع وسمح به كما حدث فى غير إسبانيا واستمر الزهد فى إسبانيا بينما أخذ ينقرض شمالى جبال البرانس ؛ بل إن العشاق كانوا يجلدون أنفسهم ليذيقوا مقاومة ما فى السيدات من حنان وخفر أو ليحصلوا على شىء من الوجد الماسوشى^(١) .

وكان الناس على ولاء شديد للكنيسة والملك ، لأن عليهم أن ينتظموا لمحاربة أعدائهم الألداء المسلمين بشجاعة ونجاح ، ولقد عرض الصراع لتخليص غرناطة على أنه حرب فى سبيل العقيدة المقدسة ، فسارت مواكب حاشدة من الرجال والنساء والأطفال ، الأغنياء منهم والفقراء ، أيام الأعياد فى الطرقات صامتين فى حزن أو مرددين الأناشيد ، وأمامهم تماثيل كبيرة تجسم العذراء أو أحد القديسين . واعتقدوا اعتقاداً راسخاً بأن العالم الروحى هو بيتهم الحقيقية وموطنهم الأبدى . والحياة الدنيا إلى جانبه

(١) الماسوشية ضرب من الانحراف الجنسى يقوم على إيلاء البدن .

إنما هي شروحم مؤقت . وكرهوا المراطقة باعتبارهم خائنين للوحدة والمبدأ القوميين ، ولا اعتراض لهم على إحراقهم ، وهذا هو أقل ما يستطيعون أن يبدلوه من أجل إلههم الذى انتهكت حرمة ولم تنعم الطبقات الدنيا بشيء من التعليم المدرسى إلا قليلا وهو ديني فحسب . ولما وجد كورنر القوى بين المكسيكيين الوثنيين ، شعيرة تشبه القربان المسيحى - شك بأن الشيطان هو الذى علمهم إياها لكى يضل الفاتحين .

وشجع على قوة انتشار الكاثوليكية فى أسبانيا تلك المنافسة الاقتصادية بين الأسبان وبين المسلمين واليهود ، الذين كانوا يؤلفون عشر عدد السكان فى أسبانيا المسيحية . ومن الأمور السيئة فى نظرهم أن يحتل المسلمون غرناطة الحصينة ، وأكثر من هذا مضايقة لهم أولئك المدجنون - أى المسلمين الذين لم يتنصروا ، الذين عاشوا بين الأسبان المسيحيين والذين أدت براعتهم فى التجارة والحرف إلى حسد شعب تستعبده الأرض استعباداً بدائياً . أما الأسبان اليهود فلم يصفح عنهم قط . ولقد اضطهدتهم أسبانيا المسيحية مدى ألف سنة : فقد أخضعوهم لضرائب مهنية وقروض مغتصبة ولمصادرة الأموال والاعتقال والتعميد الإجبارى ، وأرغموهم على الاستماع إلى العظات المسيحية ؛ وحرصوهم حتى فى معابدهم أحياناً على التنصر ، بينما جعل القانون تهود المسيحى جريمة عقوبتها الإعدام . ودعوا أو ألزموا على الاشتراك فى مناظرات مع علماء الدين المسيحى ، وبهم فيها بين اثنين إما أن تحيق بهم هزيمة فاضحة أو يحصلون على انتصار مخفوف بالمكارة . وأمروا هم والمودينجار عدة مرات أن يرتدوا شارة مميزة ، وكانت فى العادة دائرة حمراء توضع على الكتف فى أرديتهم وحرّم على اليهود أن يستأجروا خادماً مسيحياً ، ولم يسمح لأطبائهم أن يعالجوا المرضى المسيحيين ، ورجلهم الذين يعاشرون امرأة مسيحية بقتلون .

ولقد حرض راهب فرنسيسكانى عام ١٣٢٨ فى عظاته بمدينة ستلا من

أعمال نافر ، المسيحيين أن يعملوا القتل في خمسة آلاف يهودى وأن يحرقوا منازلهم ، وفي عام ١٣٩١ أثارت عظمات فرنان مارتينيز الجماهير في كل مركز كبير بأسبانيا ، أن يقتلوا كل من يجدونه من اليهود الذين يرفضون التحول إلى المسيحية . وفي سنة ١٤١٠ تحركت بلد الوليد وغيرها من المدن ببلاغة فيسنت فرر الذى يشبه القديس المتعصب ، فأمرت أن يحصر اليهود والمسلمون أنفسهم في أحياء معينة - جوديريا أو الباما - تغلق أبوابها من غروب الشمس إلى شروقها وربما كانت هذه العزلة من أجل حمايتهم .

واستغل اليهود كل فرصة للتطور بما اتسموا به من الصبر والعمل والذكاء فتكاثروا وازدهرت أحوالهم تحت وطأة هذه العوائق . وأحب بعض ملوك قشتالة ، أمثال الفونسو الحادى عشر وبدرو الغشوم ، اليهود وعينوا النابهين منهم في المناصب الحكومية الرفيعة . وجعل الفونسو دون يوسف الأسيجى وزيراً للمالية ، واختار يهودياً آخر هو يوسف ابن وقار طبيباً خاصاً له ، فأساء استعمال منصبيهما ، واتهما بالتآمر فسنجنا وماتا في السجن . وتكررت الحادثة مع صمويل يوسف أبى لافيسه فند عين قواما على خزانة الدولة في عهد بدرو ؛ فجمع ثروة طائلة ؛ فحكم الملك بقتله . وكان صمويل قد شيد قبل ذلك بثلاثة أعوام (١٣٥٧) في مدينة طليطلة معبداً يهودياً جميلاً على بساطته ، على الطراز التقليدى ، وهو الذى حوله غرديناند إلى الكنيسة المسيحية « الترنسيتو » وتحافظ الحكومة عليها اليوم باعتبارها أثراً من الآثار العبرية - الإسلامية في أسبانيا وكانت حماية بدرو لليهود من سوء طالعهم ، ذلك لأن هنرى أمير تراستامارا - عندما عزله عن الملك ، أعمل الجنود المنتصرون السيف في ألف ومائتى يهودى (طليطلة ١٣٥٣) ، وتبع ذلك مذابح أسوأ ، عندما أحضر هنرى

إلى اسبانيا « الصحاب الأحرار » ، الذين جمعهم دى جيكلان من
أوشاب فرنسا . .

وآثر آلاف من اليهود الأسبان التعميد على الفزع من النهب والقتل ،
فلما أصبحوا مسيحيين من الناحية الشرعية استطاع هؤلاء المنتصرون أن
يرقوا سلم الحياة الاقتصادية والسياسية ، وفي المهن بل وفي الكنيسة ذاتها
وأصبح بعضهم من كبار رجال الكهنوت وآخرون من مستشارى الملوك .
وأكسبتهم مواهبهم المالية نجاحاً يثير الحسد ، فى جمع الدخل القومى
وتدبيره . وأحاط بعضهم نفسه بمظاهر الشرف الأرستقراطى ، وجعل
بعضهم نجاحه عدوانياً واضحاً ، ووصم الكاثوليك الغضاب ، هؤلاء
المنتصرين بهذا الاسم الفظيع « حلوف العرب المورسكو » (marranos)
ومع ذلك فإن الأسر المسيحية التى كانت عراقية نسبها أكثر من ملها ،
أوالتي كانت تحترم القدرة من الناحية العملية ، قبلت الإصهار إليهم . وبهذه
الطريقة ساط الشعب الأسبانى وبخاصة طبقاته العليا ، الدم اليهودى بصورة
مادية ملموسة . وكان لفرديناند الكاثوليكي وتوركيدادا قاضى محكمة التفتيش
أسلاف من اليهود . وأطلق البابا بول الرابع على خصمه الذى
يحاربه فيليب الثانى ، وعلى الأسبان « أنهم بذرة لاقيمة لها من اليهود
والمسلمين » .

٢ - غرناطة (١٣٠٠ - ١٤٩٢)

وصف ابن بطوطة موقع غرناطة على أنه لا يضارعه موقع مدينة أخرى
فى العالم . . . وحولها من كل جانب بساتين وحدائق ومراعى مزهرة
وكروم ، وفيها مباني جليلة . واسمها العربى غرناطة - ومعناه غير محقق ؟
ونصرها الفاتحون الأسبان وجعلوه (جرانادا Granada) ومعناه الممتلئ
بالحبوب - ولعله مأخوذ من شجرة الرمان التى تكثر فيها جاورها . ولم
يطلق الاسم على المدينة فقط ، وإنما أطلق على إقليم يضم شريش وجيسان

والمربة ومالقا وغيرها من المدن ، ويبلغ عدد سكانه نحواً من أربعة ملايين نسمة . ومهضت العاصمة ، التي كانت تضم عشر هؤلاء السكان مثل « برج المراقبة » إلى قمة تسيطر على واد رائع ، يكافئ العناية بالرى والزراعة على أساس علمى بمخصولين فى السنة . وقام على حراسة المدينة من أعدائها المحيطين بها سور عليه ألف برج . واتخذت الأرستقراطية قصوراً رحة جميلة التصميم ، ورطبت نوافير المياه فى الميادين العامة سفير الشمس ، وعقد السلطان أو الأمير أو الخليفة بلاطه فى أبهاء الحمراء الرحة .

وكانت الحكومة تأخذ سبع غلة الأرض كلها ، وربما أخذت الطبقة الحاكمة مقداراً مماثلاً كنفقات للإدارة الاقتصادية والقيادة العسكرية ، ووزع الحكام والنبلاء بعض مواردهم على الفنانين والشعراء والدارسين والعلماء والمؤرخين والفلاسفة ، وتولوا جامعة سمخ فيها لعلماء المسيحيين واليهود أن يكونوا أساتذة وعمداء أحياناً . ونقش على أبواب الكلية خمسة أسطر : « دعائم الدنيا أربعة : علم الحكماء ، وعدالة العطاء ، وصلوات الأبرار ، وأقدام الشجعان » . وأسهم النساء فى الحياة الثقافية بحرية ، ونحن نعرف أسماء بعض العالمات فى غرناطة الإسلامية . ولم يمنع التعليم السيدات مع ذلك ، من تحريض رجالهم ، لا على العواطف العارمة بل على حب الفروسية ومبارزاتها . وقال أحد ظرفاء العصر : « يميز النساء بدقة ملامحهن ورشاقة أجسامهن وطول شعورهن وتموجها ، وبياض أسنانهن ، وخفة حركاتهن التى تسر الناظرين . . . وسحر حديثهن ، وعطر أنفاسهن » وكانت النظافة الشخصية ورعاية الصحة العامة أكثر تقدماً منها فى العالم المسيحي المعاصر . وكانت الأزياء والأخلاق رائعة وزينت المباريات الفروسية أو المهرجانات أيام الأعياد . والأخلاقيات سهلة ، ولم تكن أعمال العنف نادرة بيد أن الكرم والشرف الإسلاميين اكتسبا مدح المسيحيين . فقد قال مؤرخ اسباني : « لقد اشتهر سكان غرناطة بأنهم أهل

للثقة ، إلى حد أن كلمتهم كان يعتمد عليها أكثر من اعتمادنا على عقد مكتوب » . وبين هذه التطورات العظيمة اعتصر الترف النامى قوة الأمة ودعا التفكك الداخلى إلى الغزو الخارجى .

وما أن دعمت اسبانيا المسيحية ببطء ممالكها وزادت فى ثرواتها حتى نظرت بعين العداوة الحسود إلى تلك الإمارة المزدهرة المحاصرة التى تحدث ديانتها المسيحية بأنها شرك كפורر والتى قدمت تغورها ، منافذ خطيرة لدولة من الكنفار يضاف إلى ذلك أن تلك الحقول الأندلسية الحصبة قد تعوض كثيراً من فدادين الأرض القاحلة فى الشمال . ولم تحتفظ غرناطة بحريتها ، إلا لأن أسبانيا الكاثوليكية ، قد انقسمت إلى مذاهب وملوك . بل إن الإمارة المعتزة بنفسها وافقت (١٤٥٧) على دفع جزية سنوية إلى قشتالة . ولما أبى أمير مغامر هو على أبو الحسن أن يستمر على دفع رشوة السلام هذه (١٤٦٦) لم يجبره هنرى الرابع على الدخول فى الطاعة لأنه كان منغمساً فى ملذاته . بيد أن فرديناند وإليزابيلا سرعان ما أرسلوا الوفود بعد اعتلائهما العرش مطالبة بمواصلة دفع الجزية . فأجاب الأمير على بجرأة مهلكة : « قولوا لملوككم إن ملوك غرناطة الذين دفعوا الجزية قد ماتوا وإن سكتنا التى نتعامل بها الآن ليست سوى حذاء لسيوف » . ولم يعلم أبو الحسن بأن فرديناند أقوى منه سلاحاً وادعى السخط على غزوات المسيحيين على الحدود فباغت الثغر المسيحى الزهراء واستولى عليها ، وساق أهلها جميعاً إلى غرناطة لبيعهم ببيع العبيد (١٤٨١) فنأر مركيز فارس بنهب المعقل الإسلامى المنيع الحامة (١٤٨٢) وهكذا بدأ فتح غرناطة .

وعمل الحب على تعقيد الحرب . فقد فتن أبو الحسن بإحدى جواريه حتى أن زوجته السلطانة عائشة أثارت الشعب لخلعه عن العرش وتتويج ابنها أبى عبد الله ، الذى عرفه النرييون باسم (Boabdil) (١٤٨٢) فنز

أبو الحسن إلى مالقة وسار جيش اسباني لمحاورة هذه المدينة ، وأبيد كله تقريباً في ممرات سلسلة جبال أجاركيه ، على يد فرق لا تزال موالية للأمير المخلوع ، وثارت غيرة أبي عبد الله على انتصارات أبيه العسكرية فسار على رأس جيش من غرناطة لمهاجمة قوة مسيحية بالقرب من الأشانة وحارب بشجاعة ، ولكنه هزم وأخذ أسيراً . واشترى خلاصه بأن وعد بمساعدة المسيحيين ضد أبيه . وبأن يدفع للحكومة الأسبانية اثني عشر ألف دوكات كل سنة . وفي الوقت نفسه نصب عمه أبو عبد الله المشهور بلقب عز زغرل « أي الشجاع » نفسه أميراً على غرناطة ، ونشبت حرب أهلية ثلاثية بين الأب والابن والعم على العرش الغرناطي ، ومات الأب واستولى الابن على الحمراء ، وانسحب العم إلى وادي آش Guadix حيث حاول مراراً أن يهاجم الأسبان كلما وجدهم وأراد أبو عبد الله أن يقلد عمه فامتنع عن الوفاء بوعدده ودفع الجزية وأعد عاصمته لمقاومة الهجوم الذي لا مفر منه .

فوزع فرديناند وايزابلا ثلاثين ألف رجل على الحقول التي تمد غرناطة بالغذاء ليكتسحوها . فأتلفت الطواحين ومخازن الغلال ودور الفلاحين والكروم وغياض ازيتون والبرتقال ، وحوصرت مالقة لئمنعوها من تلقي المؤن إلى غرناطة أو إرسالها وصمدت مالقة للحصار حتى أكل سكانها كل ما تقع عليه أيديهم من الخيل والكلاب والقطط ، وكانوا يموتون بالمئات من الجوع أو المرض . وأرغمها فرديناند على أن تسلم بلا قيد ولا شرط ، واستعبد الاثني عشر ألف الذين بقوا من سكانها ، ولكنه سمح للأغنياء منهم بأن يفتدوا أنفسهم بتسليم كل ما يملكونه . واستسلم عز زغرل وأصبح لإقليم غرناطة بأسره خارج العاصمة في أيدي المسيحيين .

وشيد الملكان الكاثوليكيان ، فسطاطاً كاملاً لجندهم ، حول القلعة المحاصرة وأطلقوا عليها اسم سانتافييه ، وانتظروا أن يموت أهلها جوعاً ،

ليجعلاً مفخرة الأندلس تحت رحمتها . وخرج الفرسان المسلمون من غرناطة ، يطلبون مبارزة فرسان الإسبان فرداً لفرد ، واستجاب هؤلاء بعزم مماثل ، بيد أن فرديناند لما رأى أن خير المحاربين من رجاله يقتلون واحداً بعد واحد ، على أساس خطة الفروسية هذه ، وضع حداً لتلك المبارزة ، وقاد أبو عبد الله قواته في هجوم يائس ، ولكنهم ردوا على أعقابهم وأنفذت الرسائل تطلب العون من سلطان تركيا ومصر ، ولم يتلقوا شيئاً ، فقد كان العالم الإسلامى منقسماً على نفسه كالعالم المسيحى .

ولم يجد أبو عبد الله بدلاً من توقع شروط التسليم التى أسبغت شرفاً نادراً على الفاتحين . ذلك لأنه سمح لأهل غرناطة أن يحتفظوا بمالهم ولغتهم ودينهم ودينهم وشعائرهم ، ولهم أن يحتكموا إلى شريعتهم وقضاتهم ولا تفرض عليهم ضرائب إلا بعد ثلاث سنوات ، وعند ذاك يؤخذ منهم ما كان يحببه الحكام المسلمون ، وكان على المدينة أن تفتح أبوابها لاحتلال الإسبان ، وللمسلمين حق الهجرة من المدينة إذا شاءوا ، ويجب أن توفر وسائل المواصلات لمن يرغب فى العبور إلى إفريقية الإسلامية .

ومع ذلك فقد احتج أهل غرناطة على استسلام أبى عبد الله . وتهددته الثورة حتى دفع بمفاتيح المدينة إلى فرديناند (٢ يناير ١٤٩٢) وركب مع أقاربه وفرسانه الخمسين ، وسط صفوف المسيحيين ، إلى إمارته الجبلية الصغيرة التى كان عليه أن يحكمها تابعا لقشتالة ، ومن فوق الصخور الشامخة التى عبر عليها ألقى نظرة أخيرة على المدينة الرائعة التى فقدوها ، ولا تزال هذه القنة تسمى آخر زفرة للعربى El Ulximo Sospiro del Moro وأنبته أمه على بكائه قائلة « اهلك كالنساء ملكاً لم تحافظ عليه كالرجال » .

ودخل فى الوقت نفسه الجيش الإشبانى بالمدينة . ورفع الكاردينال مندوزا صليباً فضياً عظيماً فوق الحمراء ، وركع فرديناند وايزابلا فى ساحة

المدينة شكراً لله الذى أخرج الإسلام من إسبانيا بعد إحدى وثمانين وسبعمائة سنة .

٣ - فرديناند وايزابلا

يعد القرن الذى يقع بين موت هنرى أمير ترستارا (١٣٧٩) ، واعتلاء فرديناند لعرش أراجون ، فترة ركود لإسبانيا . فقد تعاقبت مجموعة من الحكام الضعفاء وسمحوا للنبلاء بأن يعيشوا فى الأرض فساداً بتنازعهم ، وكانت الحكومة مهملة فاسدة ، ولم يكن هناك رادع للتأثر الشخصى ، وكثرت الحروب الأهلية إلى حد أن الطرق لم تكن آمنة للتجارة ، وكثيراً ما احتلت الجيوش الحقول ، حتى اضطر الفلاحون إلى تركها جرداء . ولقد حكم جون الثانى القشتالى فترة طويلة (١٤٠٦ - ٥٤) وكان كلفه بالموسيقى والشعر قد جعله لا يعنى بشئون الدولة ، وتبعه تملك هنرى الرابع الويبل ، وهو الذى اكتسب لقب انريك العقيم بعدم كفايته الإدارية وعيئه بالعملة وبعثرة الموارد على المقربين الطفيليين . وأوصى بعرشه إلى جوانا ، التى ادعى أنها ابنته ، وأنكر النبلاء الغضاب أبوته وقدرته على الإنجاب ، وأجبروه على أن يستخلف أخته إيزابلا ولكنه أعاد تأكيد بنوة جوانا وحققها فى الحكم عند ما جاءته الوفاة (١٤٧٤) ومن هذا الاضطراب المعطل للمرافق ، صاغ فرديناند وإيزابلا النظام والحكم اللذين جعلوا إسبانيا أقوى دولة فى أوربا مدى قرن من الزمان .

ومهد السفراء لتحقيق ذلك بإقناع إيزابلا ، وهى فى الثامنة عشرة من عمرها أن تزوج ابن عمها فرديناند ، البالغ من العمر سبع عشرة سنة فقط (١٤٦٩) وكان العروسان معا من نسل هنرى أمير ترستامارا ، وكان فرديناند قد أصبح بالفعل ملكاً على صقلية ، وإذا مات أبوه يصبح ملكاً على أراجون أيضاً ، فجمع الزواج لذلك ثلاث دول فى مملكة قوية واحدة ،

وامتنع بول اثنائى من إعطاء الوثيقة البابوية المطلوبة لتجعل زواج أبناء الأعمام شرعيا ، وزيفت الوثيقة المذشودة على يد فرديناند وأبيه وكبير أساقفة برشلونة ، وبعد أن تم هذا الصنيع صدرت وثيقة أصيلة عن البابا سكتوس الرابع ، وبقيت صعوبة مادية أكبر هي فقر العروس ، الذى أبى أنشوها أن يعترف بالزواج ، وفقر العريس الذى أنهك أبوه فى الحرب ، انهماكا يجعله لا يستطيع إقامة حفل ملكى ، ويسر محام يهودى طريق السياسة الخالصة ، بأن قدم قرضا مقداره عشرون ألف سولدر سددها إيزابلا عند ما أصبحت ملكة على قشتالة^(١) (١٤٧٤) .

وتحدى حقها فى اعتلاء العرش افرنسو الخامس ملك البرتغال الذى تزوج من جوانا . وحددت الحرب فى تورو النتيجة إذ قاد فرديناند القشتاليين إلى النصر (١٤٧٦) وبعد ذلك بثلاث سنوات ورث عرش أراجون وهكذا أصبحت إسبانيا بأسرها ما عدا غرناطة وناقار فى ظل حكومة واحدة . وظلت إيزابلا ملكة على قشتالة فقط ، وحكم فرديناند أراجون وسردينيا وصقلية وشارك فى حكم قشتالة واحتفظ لإيزابلا بالإدارة الداخلية لقشتالة ، ولكن المواثيق والمراسيم الملكية كانت توقع منهما معا ، وحملت العملة الجديدة رأسيهما معا . وجعلت صفاتهما الحميدة فرديناند وإيزابلا أكثر زوجين ملكيين تأثيرا فى التاريخ .

(١) كانت وحدة العملة القشتالية فى القرن الخامس عشر هي المارافيدى النحاسية وكل ١٨٠٧ من هذه العملة تساوى سويلد وأراجونى ، وكل ٢٤ تصبح ريبالا فضيا و ٣٧٤ تصبح اكسكود وأودوكات ذهبية وأن تغير سعر هذه العملات يجعل من الصعب أن نفترض المكافئة لها من العملة الحديثة . ولكن لما كان أجر العامل فى إسبانيا إبان القرن الخامس عشر نحو من ستة مارافيدى يوميا ، فلن تكون مبالغين إذا جعلنا المارافيدى يعادل ٧٦ ٪ من الدولار فى عملة الولايات المتحدة عام ١٩٢٤ والسويلد ويعادل ١٠٢٠ دولار والريال يعادل ٢٠٢٨ دولار والاسكودو يعادل ٢٥ دولار .

وكانت ايزابلا ذات جمال لا يعادله جمال ، هكذا قال رجال حاشيتها
أى انها كان لها نصيب من الجمال ، كانت متوسطة القوام ، ذات عيني
زرقاوين وشعر كستنائى يميل إلى الحمرة . ونالت من التعليم حظا أكبر
من فرديناند ، وكانت أقل منه ذكاء وأرق حاشية . وكانت تستطيع أن
ترعى الشعراء وأن تتحدث إلى الفلاسفة الحذرين ، ولكنها آثرت صحبة
القساوسة . واختارت أكثر الأخلاقيين تزمنا ليكونوا أصحاب هدايتها
واعترافها . ومع أنها زفت إلى زوج غير أمين فيبدو أنها حافظت على
العهود الزوجية الكاملة إلى النهاية ، وعاشت في عصر مائع كعصرنا إلا أنها
كانت نموذجا للخفر . وظلت وسط الموظفين الفاسدين والسفراء المنحرفين
صريحة مستقيمة لا يتطرق إليها الفساد . ولقد ربتها أمها على الصرامة في
اتباع السنة والتقوى ، وتوسعت ايزابلا فيهما إلى حد التقشف ، وكانت
شديدة قاسية في القضاء على الحرطقة بمقدار ما كانت رحيمة كريمة في كل
أمر آخر . وكانت الرقة نفسها بالنسبة لأطفالها ، وسند الوفاء لأصدقائها .
وبذلت وأعطت في سعة للكنائس والأديرة والمستشفيات . ولم تمنعها
أرثوذكسيتها من اتهام بعض بابوات عصر النهضة بالخروج على الأخلاق .
وتفوقت في كل من الشجاعة المادية والمعنوية ، ولقد صمدت للنبلاء
الأقوياء وأخضعتهم ونظمتهم واحتملت بهدوء أقصى ضروب الحرمان .
وواجهت بشجاعة تنتقل منها إلى غيرها أهوال الحرب وأخطارها . ورأت
أن من الحكمة أن تحرص على مظهر الملكة أمام الشعب وغالت في المظاهر
الملكية إلى حد البذخ في الحلل والخلى ، أما في حياتها الخاصة فقد كانت
بسيطة الثياب ، معتدلة في طعامها وترجى فراغها بالتطريز الدقيق للكنائس
التي تؤثرها . وعملت بضمير حى في القيام بشئون الحكومة وأخذت على
عائقها المبادأة في الإصلاحات الرشيدة ونهضت بالقضاء وربما كانت في
ذلك صارمة أكثر من اللازم ، ولكنها صمدت على أن ترفع مملكتها من

الاضطراب الذى لا يعرف قانونا إلى سلم يعتصم بالقانون ووضعها المعاصرون الأجانب أمثال باولو جيوفيو وجويشياردن والفارس بايار ، بين أقدر ملوك العصر ، وشبهوها بالبطالات العظيمة فى التاريخ القديم . وقدسها رعاياها ، بينما احتملوا الملك بصبر نافذ .

ولم يستطع أهل قشتالة أن يغتفروا لفرديناوند أنه دخيل عليهم — أى أرجونى ورأوا فيه نقائص كثيرة حتى وهم يمجدون انتصاراته باعتباره رجل دولة وسياسيا ومحاربا ووازنوا بين مزاجه الفانر المتحفظ وبين حرارة الملكة فى عطفه ، وبين انطوائه الخدر وبين صراحتها المستقيمة ، بين تقديره وكرمها ، بين كزازته فى معاملة معاونيه وبين انبساط يدها بالمكافأة على ما يقدم لها من خدمات ، بين صبواته وبين قناعتها الهادئة ، ولم ينكروا عليه إنشاءه لمحاكم التفتيش ولا استغلاله لعواطفهم الدينية كسلاح من أسلحة الحرب ؛ فقد استحسنوا حملته على المرطقة وفتحهم غرناطة وطرده اليهود والمسلمين الذين لم يتنصروا ، وكان أكثر ما يحبون فيه أقل ما يعجب به الخلف . فلم نسمع احتجاجاً على صرامة قوانينه — قطع اللسان على السب والإجراق حياً على اللواط ولا حظوا أنه يجنح إلى العدالة بل إلى التساهل ، إذا لم يمنع ذلك امتيازاً شخصياً أو يعطل سياسة قومية وأنه يستطيع أن يقود جيشه بشجاعة وبراعة ، وإن أثر مساجلة العقول بالمفاوضة أكثر من منازلة الإنسان فى الحرب وأن بخله لم يكن للإنفاق على أسباب الترف الشخصى ولا بد أنهم تثبتوا من عاداته التى تؤثر الاعتدال ورباطة جأشه فى الملمات ، واتزانته عند النجاح ، واختياره الرشيد لمعاونيه ، وجهده المبذول بلا كلل على شئون الحكومة وشعبه وراء أهداف بعيدة بكياسة ملة ووسائل حذرة . واغتفروا له الظهور بوجهين باعتباره سياسيا وكثرة حشته بوعده ، ألم يحاول جميع الحكام غيره بوسائل مماثلة أن يدعوا قرابتهم له ويحتالوا على إسبانيا ؟ ولقد قال متجهما « إن ملك فرنسا يشكو أننى خدعته مرتين . إنه يكذب ، ذلك الغبي لقد

خدعته أكثر من عشر مرات » . ودرس مكيا فى بعناية سيرة فرديناند وأفاد من دهائه ومدح أعماله بأنها كلها عظيمة وبعضها صادق . ووصفه بأنه أفضل ملك فى العالم المسيحى . وكتب جويكشياردينى « ما أعظم الفرق بين أقوال هذا الأمير وأفعاله ، وكيف يضع خططه فى عمق وتكم » . ورأى البعض أنه مجسود . ولكن الحق أن حظه الموفق إنما كان فى تدابيرهِ للأحداث بعناية وانتهازه للفرص السانحة وإذا أحكم التوازن بين فضائله وجرائمه ، فإنه يبدو أنه دفع إسبانيا بوسائل شريفة وأخرى دنيئة ، من أجزاء متناثرة عقيمة متعددة الألوان ، إلى وحدة وقوة جعلتها فى الجبل التالى المسيطرة وحدها على أوروبا .

ولقد تعاون فرديناند مع إيزابلا على إعادة الاستقرار للأنفوس والأموال فى قشتالة ، وفى بعث السانتا هرمانداد أو الآخرة المقدسة لتكون حرساً أهلياً محلياً لتحافظ على النظام ، وفى إنهاء السطو فى الطرق العمومية والدسائس الجنسية فى البلاط ، وفى إعادة تنظيم المحاكم وتوحيد القوانين ، وفى استرداد أراضي الحكومة التى سلمها الملوك السابقون بغير اكتراث إلى المقربين ، وفى أخذ النبلاء بالطاعة الكاملة للتاج ، وهنا أيضاً ، كما كان الحال فى فرنسا وإنجلترا ، أسلمت الحرية والفوضى الإقطاعيان إلى النظام المركزى للاحكامية المطلقة وتنازلت المجالس البلدية بدورها عن امتيازاتها ، وقبلما اجتمعت المجالس الإقليمية وكان اجتماعها فى الغالب للموافقة على أموال تمنح للحكومة ، وذبلت ديمقراطية واهية الجذور وماتت فى ظل ملك صاب المراس . بل إن الكنيسة الإسبانية التى كانت عزيزة على الملكين الكاثوليكين^(١) los reyes católicos انتزع منها جانب من ثروتها وكل حقتها فى التشريع المدنى ، وأصلحت إيزابلا أخلاق رجال الدين بصراحة ، وأكره البابا سكوتوس

(١) أى الملكان الكاثوليكيان - لقد أسبغته على فرديناند وإيزابلا البابا اسكندر السادس

الرابع ، على التنازل للحكومة عن حق تعيين كبار رجال الكهنوت في الكنيسة الإسبانية ورقى الكهنة القادرون أمثال بدروجنزالس ده مندوزا واكسمنس ده نيروس ، لينصبوا كبار أساقفة دفعة واحدة لطليطلة وروساء وزراء في الدولة .

وكان الكاردينال اكسمينس شخصية إيجابية قوية كالمملك ، ولقد انخرط من أسرة نبيلة وإن كانت رقيقة الحال ، فذهب في طفولته للكنيسة ، وأحرز في جامعة سالامنكا وهو في سن العشرين ، أجازات الدكتوراه في كل من القانونين المدني والكنسي . وعمل سنوات قسيسا وناظراً لمندوزا في أسقفية سيجونزا وكان ناجحا ولكن غير سعيد ، ولم يأبه بالجاه أو المناصب ، فالتحق بأكثر فرق الأديرة صرامة في أسبانيا — وهي الفرنسيسكان الملتزمون بالأوامر والنواهي Observantine Franciscans . ولم يهجه غير الزهد فكان ينام على التراب أو الأرض الصلبة ويكثر من الصوم ويضرب نفسه بالسياط ، ويلبس قميصا من الشعر على جلده . وفي عام ١٤٩٢ اختارت إيزابلا الورعة هذا المتعبد النحيل راعيا لكنيستها الخاصة ومتلقيا لاعتراقاتها . وقبل ولكن بشرط وهو أن يسمح له بالاستمرار في سكن الدير والتزام قواعد الفرنسيسكان الصارمة ، وجعلته الفرقة رئيسها المحلي ، واستجابت لإلحاحه في الإصلاح العسير . ولما رشحته إيزابلا كبيراً لأساقفة طليطلة (١٤٩٥) رفض قبول المنصب ، ولكنه استسلم بعد إباء ستة أشهر لنشرة بابوية تأمره بالخدمة . وكان قد أشرف على الستين من عمره ، ويبدو أنه كان يرغب صادقا أن يعيش راهبا . واستمر على طباعه الخشنة وهو مطران إسبانيا ورئيس المجلس الملكي ، وكان يلبس تحت الأردية الفخمة التي يتطلبها منصبه ، ذلك الجلباب الفرنسيسكاني الخشن ، ومحتة قميص الشعر كما اعتاد قبل ذلك . وطالب جميع فرق الرهبان في الأديرة بأن تجرى نفس الإصلاحات التي أجرتها فرقته

فعارضه كبار رجال الدين ولكن الملكة أيدته وكأنما تجرد القديس فرنسيس من تواضعه وزود فجأة بقوة برنارد ودومنيك وقدرتهما .

ولم يكن ليرضى هذا القديس العبوس ، أن يجحد يهوديين لم يتنصرا لهما مكانة مرموقة في البلاط . أحدهما من أكثر مستشارى إيزابلا ثقة وهو إبراهيم سنيور . وقد أخذ هو وإسحاق إبراهيميل يجمعان الموارد لفرديناند وينظمان تمويل حرب غرناطة . وكان الملك والملكة وقتذاك معنيين بالمتنصرين بصفة خاصة آملين أن يأتى وقت يصبح فيه هؤلاء مسيحيين مخلصين وأجرت إيزابلا مدرسة لأصول الدين لتعليمهم ، ومع ذلك فقد احتفظ كثير منهم بعتقيدته السالفة سرّاً ولقنوها أبناءهم . وسكنت كراهية الكاثوليك لليهود غير المعمدين إلى حين ، بينما اشتد الحنق على « المسيحيين الجدد » ونشبت الفتن ضدهم في طليطلة (١٤٦٧) وبلد الوليد (١٤٧٠) وقرطبة (١٤٧٢) وسيجوفيا (١٤٧٤) وأصبحت المسألة الدينية عنصرية أيضاً ، ودبر الملك والملكة الفتيان الوسائل التي تحول هذا المزيج المضطرب في الشعوب واللغات والمذاهب المتصارعة إلى وحدة منسجمة وسلام اجتماعى . ورأيا أن خير وسيلة لبلوغ هذه الأهداف هى إعادة محاكم التفتيش إلى إسبانيا .

٤ - وسائل محكمة التفتيش

نحن اليوم غير متحققين ومختلفون في آرائنا حول أصل العالم والإنسان ومصيرهما حتى إننا أمسكنا في معظم البلاد ، عن معاقبة الناس لمجرد أنهم يختلفون عنا في معتقداتهم الدينية . ونحن إنما نوجه تسامحنا الحاضر إلى أولئك الذين يناقشون مبادئنا السياسية والاقتصادية ، ونحن نفسر مذهبنا الثابت المروع على أساس أن أى شك يثار في وجه ادعائنا الذى نقيم عليه الدليل ، يهدد تماسكنا وبقائنا القوميين . ولئن كان المسيحيون واليهود والمسلمون

إلى منتصف القرن السابع عشر ، أكثر تشبثا بالدين مما نحن عليه الآن ، وكانت علوم الكلام هي أثمن وأوثق ما يملكون ، ونظروا إلى أولئك الذين ينكرون هذه المذاهب كأنما يهاجمون أصول النظام الاجتماعى وجوهر الحياة الإنسانية . واعتقاد كل جماعة بصحة مذهبها جعلها متشددة إلى حد التعصب ودمغ الآخرين بأنهم كفار .

وانتشر مبدأ محكمة التفتيش فى يسر بين الأشخاص الذين لم تتأثر مذاهبهم الدينية بالتعليم والرحلة ، والذين كانت عقولهم أكثر خضوعا لحكم العادة والخيال . واعتقد جميع مسيحي القرون الوسطى تقريبا عن طريق تعليمهم فى الطفولة والوسط الذى عاشوا فيه بأن الكتاب المقدس من وحي الله بكل لفظ فيه ، وأن ابن الله قد أنشأ الكنيسة المسيحية مباشرة . وبدا أنه ينتج عن هذه المقدمات أن الله يريد أن تكون جميع الأمم مسيحية وأن الإيمان بديانات غير مسيحية — أو ضد المسيحية على التحقيق — يعد كبيرة فى حق الله . يضاف إلى ذلك ، أنه ما دامت كل هرطقة مادية تؤدى بالضرورة إلى عقاب أبدى فإن المختصين منها قد يعتقدون (ويظهر أن كثيرين منهم قد اعتقدوا بإخلاص) أنهم يلزهاق روح هرطيقى ، إنما ينقذون الهدى الكامن فيه وربما أنقذوه هو نفسه من الجحيم الأبدى .

ومن المحتمل أن إيزابلا ، التى عاشت فى جو علماء الدين ، قد شاركت فى هذه الآراء . ولعل فردينان ، الذى كان رجلا صلبا من رجال الدنيا قد ارتاب فى بعضها ، ولكن يبدو أنه اقتنع بأن توحيد العقيدة الدينية يجعل إسبانيا أيسر حكما ، وأقدر فى التغلب على أعدائها . ولقد أصدر البابا سكستوس الرابع ، بناء على رغبة فردينان وإيزابلا قرارا (أول نوفمبر ١٤٧٨) يفوض لهما أن يعينا ستة قسس ، من حملة الاجازات العليا فى علوم الدين والشريعة ، ليؤلفوا هيئة محكمة التفتيش ليحققوا تهم الهرطقة ويعاقبوا عليها . وأبرز شيء فى هذا القرار هو إعطاء السلطة لملوك إسبانيا ،

أن يعينوا هيئة محاكم التفتيش ، التي كانت في صورها السابقة ، تختار بواسطة رؤساء فرق الفرنسيسكان والدومنيكان المحلية . وهكذا أصبح الدين هنا خاضعا للدولة مدى ثلاثة أجيال ، كما حدث في ألمانيا وإنجلترا البروتستانتيتين بعد ذلك بقرن ، وكان قضاة هذه المحاكم يرشحهم الملوك فقط من الناحية العملية ، ثم يعينهم البابا ، ويستمدون سلطتهم من هذا القرار البابوي ، وظلت المنظمة كهنوتية ، ووسيلة من وسائل الكنيسة وفي الوقت نفسه وسيلة من وسائل الدولة . وكان على الدولة أن تدفع نفقاتها وأن تحصل على دخلها الخالص ويراقب الملوك تفاصيل أعمالها ، وإليهم قد تستأنف أحكامها . وآثر فرديناند بمحبته هذه الوسيلة من بين جميع وسائل حكمه . ولم تكن أهدافه أول أمرها مالية ، فقد غنم من الأموال المصادرة للمحكوم عليهم ولكنه رفض رشاوى مغرية من الضحايا الأغنياء للتأثير على القضاة ، وكان همه منصباً على توحيد أسبانيا .

وأعطى القضاة سلطة استخدام معاونين من رجال الدين ومن المدنيين كمحققين ومنفذين للأحكام . ووضعت المنظمة برمتها بعد عام ١٤٨٣ تحت إمرة وكالة حكومية ، هي هيئة التفتيش العامة وتسمى عادة « مجلس محكمة التفتيش العليا والعامة » *Concejo de la Suprema-y General Inquisitor* ، وشمل تشريع محكمة التفتيش جميع المسيحيين في أسبانيا ، ولم تمس اليهود الذين لم يتنصروا ، ووجهت أهوالها إلى المنتصرين الذين يشك أنهم ارتدوا إلى اليهودية أو الإسلام وإلى المسيحيين المتهمين بالهرطقة ، وكان اليهودي غير المنتصر إلى عام ١٤٩٢ آمناً على نفسه أكثر من الممعد . وطالب القسس والرهبان والمتعبدون الإعفاء من التفتيش ، ولكن مطالبهم رفضت ، وقاوم اليسوعيون تشريعها نصف قرن ولكنهم غلبوا على أمرهم أيضاً . والحد الوحيد لقوة الهيئة العليا إنما هو سلطة الملوك ، بل.

أن هذا الحد قد أهمل في القرون المتأخرة . وطالبت محكمة التفتيش وتلقت عادة التعاون من جميع الموظفين المدنيين .

وشرعت محكمة التفتيش القوانين والإجراءات الخاصة بها . وكانت قبل أن تقيم قضاتها في مدينة من المدن تذيب في الشعب عن طريق منابر الكنائس منشوراً دينياً « يطالب كل من له علم بهرطقة أن يكشف عنها لرجال التفتيش . وشجع كل امرئ على أن يكون شاهداً ، ليبلغ عن جيرانه وأصدقائه وأقاربه . (ولم يكن يسمح في القرن السادس عشر مع ذلك باتهام الأقربين ووعد المبلغون بالسرية الخالصة والحماية التامة ، وأوقع حرم صارم — أى حرمان ولعنة — على هؤلاء الذين يعرفون هرطقاً ويخفونه . فإن ظل يهودى معمد يأمل في عودة المسيح ، وإذا حافظ على قواعد الطعام التي في الشريعة الموسوية وإذا اعتبر السبت يوم عطلة وعبادة أو غير ملابسه لذلك اليوم ، وإذا احتفل بأى وجه من الوجوه بيوم من أعياد اليهود ، وإذا ختن أى واحد من أطفاله أو أسماه باسم عبرى ، أو باركهم دون أن يقوم بعلامة الصليب ، وإذا صلى بحركات رأسه أو ردد زموراً من مزامير الكتاب المقدس دون أن يضيف تمجيد الله في الأعلى ، وإذا اتجه بوجهه إلى الحائط وهو يحتضر ، فإذا فعل هذا وأمثاله ، كانت عند رجال التفتيش من الشواهد على الهرطقة السرية التي لا بد من إبلاغها إلى المحكمة فوراً . ولكل من يشعر بأنه اقترف هرطقة فله في خلال « مهلة صفح » أن يأتى إلى المحكمة ويعترف بها ، فيحكم عليه بغرامة أو تفرض عليه كفارة ويصفح عنه بشرط أن يكشف عن كل ما يعرفه عن هرطقة آخرين .

ويلوح أن قضاة محكمة التفتيش كانوا يفحصون بعناية القرائن التي جمعها المبلغون والمحققون . حتى إذا اقتنعت المحكمة بالإجماع بإدانة شخص من الأشخاص فإنها تصدر أمراً بالقبض عليه . ويتحفظ على المقبوض عليه

فى سجن انفرادى ، حيث لا يسمح لغير عملاء محكمة التفتيش بالتحدث إليه ، ولا يزوره أحد من أقربائه ، وكان يقيد بالسلاسل عادة . ويطلب إليه أن يستحضر معه فراشه وملابسه ، وأن يدفع جميع نفقات محبسه وطعامه . فإذا لم يقدم المال الكافى لهذا الغرض فإنه يباع القدر المناسب من متاعه لىنى بالمبلغ المطلوب . أما باقى أمتعته فيحجز عليه بوساطة مندوبى محكمة التفتيش حتى لا يخبأ أو يتنازل عنه هرباً من المصادرة . وفى معظم الأحوال يباع جانب منه لإعانة من يعجزون عن العمل من أسرة الضحية .

وعندما يدفع المقبوض عليه للحضور أمام المحاكمة فإن المحكمة وقد سبق أن حكمت عليه بأنه مذنب ، تلقى على كاهله عبء إثبات براءته . وكانت المحكمة سرية خاصة وعلى المدافع عن نفسه أن يقسم على أنه لن يفشى أية واقعة من الوقائع فى حالة إطلاق سراحه . ولا يستدعى شهود إثبات التهمة إليه ، ولا يذكر له اسم أحد ، ويرر قضاة التفتيش هذا الإجراء بأنه ضرورى لحماية مبلغهم . ولم يكن يخبر المتهم أولاً عن التهم الموجهة ضده ، وإنما يستدعى لمجرد الاعتراف بتقصيره كما تقضى بذلك العقيدة والعبادة الصحيحتان وأن يشى بكل الأشخاص الذين يتهمون بالهرطقة . فإن أقنع اعترافه المحكمة فقد يصدر عليه حكم غير الإعدام ، وإذا أبى الاعتراف سمح له باختيار محامين للدفاع عنه ، ويتمحفظ عليه فى الوقت نفسه فى سكن انفرادى . وفى كثير من من الأحوال كان يعذب ليكره على الاعتراف وتستمر القضية عادة شهوراً ، ويكفى التقييد بالسلاسل فى السجن الانفرادى غالباً للحصول على أى اعتراف .

ولم يكن يلجأ إلى التعذيب إلا بعد أن يقترح عليه أغلبية قضاة المحكمة على أساس أن الذنب محتمل ، وإن كانت القرائن لا تقطع به . ويؤجل التعذيب الذى يحكم به على هذا النحو غالباً على أمل أن الفرع منه يدفع إلى الاعتراف ويبدو أن قضاة التفتيش اعتقدوا بإخلاص أن التعذيب خدمة

للمدافع عن نفسه وهو الذى سبق أن عد مذنباً ، فقد يكسبه بالاعتراف عقاباً أخف ، بل أنه إذا حكم بإعدامه بعد اعترافه يحصل من قسيس على المغفرة تنجيه من الجحيم ؛ ومع ذلك ، لم يكن الاعتراف بالذنب كافياً ، فقد يلجأ إلى التعذيب مع مدافع عن نفسه لإكراهه على ذكر شركائه فى الهرطقة أو الجريمة . وربما عذب الشهود المتناقضون للكشف عن يذكر الحقيقة منهم ؛ وقد يعذب العبيد ليقيموا الدليل على سادتهم . ولم يكن هناك حد فى السن ينقذ الضحايا ، ذلك أن فتيات فى الثالثة عشرة ونسوة فى الثمانين قد ألزمن العذراء^(١) ، بيد أن قواعد محكمة التفتيش الأسبانية حرمت التعذيب بالنسبة للمراضع أو ذوى القلوب الضعيفة أو المتهمين بهرطقات صغيرة كالأخذ بالرأى الشائع الذى يقول إن الزنا خطيئة صغيرة يصفح عنها . ويجب أن يحال بين التعذيب وبين إصابة الضحية بعاهة مستديمة ، ولا بد أن يوقف كلما أمر الطبيب المسئول ، ولا ينفذ إلا بحضور قضاة التفتيش المنوط بهم القضية ، وأحد الأعيان وكاتب للتسجيل وممثل للأسقف المحلى . واختلفت الوسائل باختلاف الزمان والمكان . وقد توثق يد الضحية خلف ظهرها ويعلق منهما أو يربط وثاقه حتى يعجز عن الحركة تماماً ، ثم يقطر الماء فى حلقه حتى يشرف على الاختناق ؛ وقد تربط يده ورجلاه بالحبال ربطاً وثيقاً حتى تقطع اللحم إلى العظام . ولقد أنبئنا أن وسائل التعذيب التى استعملتها محكمة التفتيش الأسبانية كانت أخف مما استخدمته محاكم التفتيش البابوية السابقة ، أو مما توسلت به المحاكم المدنية فى ذلك العصر . وكان أهم وسائل التعذيب السجن الطويل الأمد .

ولم تكن محكمة التفتيش تتألف من مدع وقاض ومخلفين فقط ، ولكنها أصدرت أيضاً أوامر خاصة بالعقيدة والأخلاق وأنشأت مراتب ناعقوبات وكانت رحيمة فى معظم الأحوال ، وتتسامح فى جزء من العقوبة بسبب

(١) وهى آلة تعذيب تمتد الجسم .

سن المحكوم عليه أو جهله أو فقره أو سكره أو سمعته الحسنة بصفة عامة . وكانت أخف العقوبات هي التعنيف . وأقسى منها هو الإكراه على المجاهرة بالإقلاع عن الهرطقة أمام الناس — التي تترك حتى البريء ميسوماً بها إلى آخر حياته ، وكان يطلب عادة إلى المعاقب بالأشغال الشاقة أن يحضر القداس بانتظام ، مرتدياً لباس الإدانة « sanbenito » وهو جلباب رسم عليه صليب برّاق . وربما عرض في الطرقات وقد جرد من ثيابه إلى وسطه وحمل شعار جريرته . وقد يحرم هو وذووه من المناصب العامة إلى الأبد . أو ينفي من مدينته ، وقلما ينفي خارج أسبانيا . وقد يجلد من عشر جلدات إلى مائة جلدة إلى الحد الذي لا تزهد في روحه . وكانت هذه العقوبة تطبق على النساء كما تطبق على الرجال . وقد يلقي به في السجن أو يدفع به إلى السفن — وهو ما أوصى فرديناند بأنه أنفع للدولة ، وربما دفع غرامة مادية أو صودرت أمواله . وقد اتهم بعض الموتى بالهرطقة في أحوال متعددة وحوكموا بعد الموت وحكم عليهم بالمصادرة فيفقد الوراثة في هذه الحالة ميراثهم . وكان المبلغون عن الهرطقة الموقى يمنحون من ٣٠ ٪ إلى ٥٠ ٪ من المتحصل . ودفعت الأسر المفزعة من هذه المحاكمات ذات الأثر الرجعي للمبلغين في بعض الأحيان « مصالحات » تأميناً لهم من مصادرة ميراثهم فأصبحت الثروة خطراً على صاحبها وإغراء للمبلغين والمفتشين والحكومة . حتى إذا انسابت الأموال في خزائن محكمة التفتيش فإن موظفيها أصبحوا أقل اهتماماً بالمحافظة على العقيدة الصحيحة من الحصول على الذهب وانتشر الفساد انتشاراً مروعاً .

وكانت العقوبة القصوى هي الإحراق في المحرقة . وهي للذين حكم عليهم بأنهم اقترفوا هرطقة عظيمة ، ولم يعترفوا قبل بدء المحاكمة ، ولأولئك الذين اعترفوا في الوقت المناسب وخففت عنهم عقوبتهم أو صفح عنهم ولكنهم ارتدوا إلى الهرطقة . وصرحت محكمة التفتيش نفسها بأنها لم تقدم

على القتل قط ، وقصاراها أنها كانت تسلم المحكوم إليه إلى الساعات المدنية ، وقد علمت أن القانون الجنائي يجعل الإحراق في المحرقة نافذاً في جميع العقوبات على المهرطقة الكبيرة أو التي لا توبة عليها . وإن حضور رجال الكهنوت عند المحرقة يدل على مسئولية الكنيسة ، ولم يكن المشهد الخاص بالإيمان هو مجرد الإحراق ، ولكنه الاحتفال المؤثر المروع كله بالنطق بالحكم والتنفيذ . ولم يكن غرضه مقصوداً على ترويع المخالفين في السر ، وإنما تهذيب الشعب كأنما يطلعونهم مقدما على يوم الحساب .

وكان الإجراء في أول أمره بسيطاً فإن الذين يحكم بإعدامهم يقادون إلى الساحة العامة ، وكانوا يوثقون بأربطة على كومة حطب ، بينما يجلس قضاة التفتيش في أبهة على منصة تواجهها ، ويطلب للمرة الأخيرة إلى المحكوم عليه أن يدلي باعترافه ، وتقرأ عليه الأحكام ، وتشعل النيران . ويبلغ الفزع منتهاه . بيد أن كثرة الإحراق وفقد بعض سلطانها النفسي ، جعل الاحتفال أكثر تعميماً ورهبة . وعنى بإظهاره بكل أسباب العناية والنفقة ، التي يتطلبها إخراج مسرحى كبير . وكان يحدد ميعاده كلما أمكن ذلك للاحتفال بالاعتلاء على العرش أو الزواج أو الزيارة من ملك أو منكة أو أمير أسباني . وكان يدعى موظفو البلديات والحكومة وهيئة محكمة التفتيش والقسم والرهبان المحليون ، بل في الواقع كان يطلب حضورهم . وفي أمسية التنفيذ ينضم هؤلاء الأماثل إلى موكب كئيب يسير في طرق المدينة الرئيسية ليضع صليب محكمة التفتيش الأخضر فوق مذبح الكاتدرائية أو الكنيسة الرئيسية . وتبذل محاولة أخيرة للحصول على اعترافات المحكوم عليهم ، فيستسلم كثيرون منهم . وتخفف أحكامهم إلى السجن فترة من الزمن أو مدى الحياة . وفي الصباح التالي يساق المسجونون وسط الجموع الغفيرة إلى إحدى ساحات المدينة . وفيهم الدجالون والمجدفون في الدين والمضارون^(١) والهرطقة والمرتدون . وفي

(١) المتزوج من امرأتين .

الأيام المتأخرة كان يساق معهم البرونستانت ، وبنظم الموكب أحيانا دمي تمثل المحكوم عليهم غيايياً أو - صناديق تحمل عظام الذين حكم عليهم بعد الموت . وفي الساحة على مدرج مرتفع أو أكثر ، يجلس قضاة محكمة التفتيش ورجال الدين من قساوسة ورهبان وموظفو المدينة والدولة ، يرأسهم الملك بين حين وآخر . وتذاع عظة ، يؤمر بعدها جميع الحضور بترديد عين الطاعة لحكام محكمة التفتيش المقدس وعهد ينكر ويحارب الهرطقة بجميع أشكالها وفي كل مكان . ثم يساق المسجونون واحدا بعد واحد ، أمام المحكمة ، وتلى عليهم الأحكام الخاصة بهم . ويجب علينا ألا نتخيل معارضة باسلة لذلك ، وربما كان كل سجين في هذه المرحلة مشرفا على التلف الروحي والانهيار البدني . بل إنه قد يتخذ حياته في هذه اللحظة بالاعتراف . وفي تلك الحالة تقنع محكمة التفتيش بجلده ومصادرة أمواله وسجنه مدى الحياة . وإذا لم يعترف إلا بعد صدور الحكم عليه ، فإنه يغرم الرحمة بشنقه قبل إحراقه ، ولما كانت الاعترافات في اللحظة الأخيرة كثيرة ، فقد أصبح إحراق الأحياء نادرا نسبيا ، أما الذين يحكم عليهم بالهرطقة الكبيرة ، وينكرون ذلك إلى النهاية ، يجرمون (وظل ذلك مرعيا إلى عام ١٧٢٥) من الكنيسة المقدسة ، ويتركون برغبة محكمة التفتيش للجحيم الأبدى . أما الذين تخفف أحكامهم فيعادون إلى السجن ، والذين لم تقبل توبتهم فيدفع بهم إلى السلطة المدنية ، مع تحفظ وردع بعدم إراقة دم . ويساقون إلى خارج المدينة وسط حشود تجمعت من مسافات بعيدة للفرجة على هذا المشهد من مشاهد العظلة . حتى إذا وصلوا إلى مكان التنفيذ شق المعترفون ثم أحرقوا بينما يحرق المعاندون أحياء . وتظل النيران تغذى بالوقود حتى تصير العظام رمادا ، يفتثر على الحقول والجداول . ثم يعود القساوسة والمشاهدون إلى مذابحهم ودورهم مقتنعين ، بأن قربانا قدم استعطافا لإله غاضب من الهرطقة . وهكذا أعيد القربان البشري .

٥ - تقدم محكمة التفتيش (١٤٨٠ - ١٥١٦)

عين فرديناند وإيزابلا القضاة الأوائل لمحكمة التفتيش في سبتمبر من عام ١٤٨٠ ، لمنطقة إشبيلية . ففر كثيرون من الإشبيليين المنتصرين إلى الريف ، وبحثوا عن الملجأ الأمين عند السادة الإقطاعيين ، وكانت عند أولئك رغبة في حمايتهم ، ولكن قضاة التفتيش هددوا البارونات بالحرمان من غفران الكنيسة ومصادرة الأموال ، فها كان منهم إلا أن سلموا اللاجئين ، أما في المدينة نفسها فقد دبر بعض المنتصرين المقاومة المسلحة ولكن التدبير أفشى ، وقبض على الضالعين في هذا التدبير وسرعان ما امتلأت السجون . وتبعت ذلك محاكمات متعجلة غضوب ، واحتفل بأول محرقة أثمرتها محكمة التفتيش الإسبانية في السادس من فبراير لعام ١٤٨١ بإحراق ستة من الرجال والنساء . وما أن جاء الرابع من نوفمبر للعام نفسه ، حتى كان قد أحرق ثمانية وتسعون ومائتا شخص وسجن مدى الحياة تسعة وسبعون شخصاً .

وفي عام ١٤٨٣ عين البابا أسكستوس الرابع بترشيح وطلب من فرديناند وإيزابلا ، راهباً دومينيكياً ، هو توماس ده توركيدا ، مفتشاً عاماً لإسبانيا بأسرها ، وكان مؤمناً متعصباً لا يتطرق الفساد إليه ، يحقر الترف ويعمل بحماسة شديدة ويحتفل بفرصته السانحة ليعخدم المسيح بتصيد الهرطقة وكان يؤنب قضاة التفتيش على التساهل ، ونقض كثيراً من أحكام البراءة وطالب الرهبانيين في طليطلة مهدداً إياهم بالموت أن يبلغوا عن الذين ارتدوا إلى اليهودية . وفرع البابا اسكندر السادس من قسوته ، وهو الذي سبق أن مدحه على أخلاقه لعمله ، فأمره (١٤٩٤) أن يشرك في سلطته مفتشين عامين آخرين . وتجاوز توركيدا هذين الزميلين ، واحتفظ برئاسة حازمة عليهما . وجعل محكمة التفتيش حكومة في داخل الحكومة تضارع سلطة الملوك . وأحرقت محكمة التفتيش في سودادريال بدافع منه في سنتين (١٤٨٣ - ٨٤) اثنين وخمسين شخصاً وصادرت أموال مائتين وعشرين شريداً

وعاقبت مائة وثلاثة وثمانين تائباً . وفي مدى سنة واحدة من نقل المفتشين لمقرهم الرئيسى إلى طليطلة قبضوا على سبعمائة وخمسين يهودياً متنصراً وصادروا خمس أموالهم ، وحكموا عليهم بأن يسيروا فى مواكب حاشدة فى ستة أيام جمعة ، يضربون أنفسهم بسياط من القنب ، وفى هذه السنة (١٤٨٦) أقيمت محرقتان أخريان وأحرقت رفات ألف وستائة وخمسين تائباً . وبذلت جهود مماثلة فى بلد الوليد ووادى لوب وغيرهما من مدن قشتالة .

وقاومت أراجون محكمة التفتيش بشجاعة يائسة . فقد أغلق حكام تيرول أبواب المدينة فى وجه المفتشين . فما كان من هؤلاء إلا أن أصدروا قرار الحرمان على سكانها وأوقف فرديناند مرتبات موظفى المجلس البلدى ، وسير جيشاً يكره الأهلين على الطاعة ، أما الفلاحون المجاورون الذين كانوا على عداء دائم للمدينة ؛ فقد هرعوا يؤيدون محكمة التفتيش ، التى وعدتهم بالإعفاء من جميع الإيجارات والديون التى عليهم لأشخاص المتهمين بالهرطقة . واستسلمت مدينة تيرول وأعطى فرديناند المفتشين سلطة نى كل شخص يشكون فى أنه اشترك فى المقاومة ، وفى سرقوسة انضم إخوة المسيحيين القدماء إلى الإخوة « المسيحيين الجدد » فى الاحتجاج على دخول محكمة التفتيش مدينتهم ، ومع ذلك فلما أقيمت محكمة التفتيش هناك اغتال بعض المتنصرين أحد رجالها (١٤٨٥) وكان ذلك خطأ مهلكاً ، لأن الأهلين المفزعين احتشدوا فى الطرقات صائحين « احرقوا المتنصرين » وسكن كبير الأساقفة من روع الغوغاء بأن وعد بالمحاكمة السريعة . وقبض على جميع المتآمرين تقريباً وأعدموا ، وقفز أحدهم ليلقى مصرعه من البرج الذى سجن فيه ؛ وحطم آخر مصباحاً من الزجاج وابتلع شظاياه ، ثم وجد ميتاً فى محبسه . ورفض مجلس الكورتيس فى بلنسية ، السماح للمفتشين بمزاولة عملهم ، فأمر فرديناند بالقبض على كل من يحول بينهم وبين أداء مهمتهم ، واستسلمت بلنسية . وخنق الملك تأييداً للتفتيش الحريات التقليدية لأرجون ، الواحدة

بعد الأخرى ؛ وأثبت اتحاد الكنيسة مع الملكية ، بقرارات الحرمان والحيوش الملكية ، بأنه أقوى من أن تقاومه مدينة أو ولاية بمفردها . وحددت في بلنسية وحدها عام ١٤٨٨ تسعمائة وثلاثة وثمانون حكماً بالهرطقة وأحرق مائة رجل .

فكيف نظر الباباوات إلى اصطناع محاكم التفتيش كأداة من أدوات الدولة ليس من شك في أن عدداً من الباباوات قد حاولوا أن يوقفوا مثل هذا الإفراط وأن يبسطوا حمايتهم على ضحايا التفتيش بين حين وآخر ، منكرين هذا التحكم المدني ؛ ومدفوعين في الغالب بالعواطف الإنسانية مع إدراكهم للمصارييف الباهظة التي تدفع للتصديق على أحكام محكمة التفتيش . فقد أصدر البابا سكستوس الرابع عام ١٤٨٢ منشوراً بابوياً لوضع حداً لمحكمة التفتيش في أراجون ؛ وشكا فيه من أن المفتشين يبدون طمعا في الحصول على الذهب أكبر من الإخلاص للدين ، وأنهم سجنوا وعذبوا وأحرقوا مسيحيين مؤمنين بشهادة مريبة من أعدائهم وعبيدهم وأمر بأن على المفتش في المستقبل ألا يباشر مهمته إلا بحضور بعض ممثلي الأسقف المحلي والحصول على موافقتهم ؛ وأن يعلن المتهمون بأسماء الذين اتهموهم واتهاماتهم ولا يبيت المسجونون إلا في سجون الكنيسة ؛ وأن يسمح للشاكين في الظلم الواقع عليهم أن يقدموا ظلاماتهم إلى السدة الأسقفية المقدسة ، وأن يؤجل كل تصرف في القضية حتى يحكم في الاستئناف ، وأن يحصل جميع المتهمين بالهرطقة ، على حكم البراءة إذا اعترفوا وتابوا ؛ وبذلك يصبحون في حل من المحاكمة والاضطهاد بسبب هذه التهمة . وكل الإجراءات السابقة المناقضة لهذا المرسوم تعد باطلة وملغاة ، وكل من يخرج على هذه القواعد في المستقبل يكون عرضة للحرمان من غفران الكنيسة . لقد كان مرسوماً متنووراً وأحكامه توحى بصدقه ومع ذلك فيجب أن نلاحظ اقتصاره على أراجون التي أنفق المتنصرون فيها بسخاء في سبيل الحصول عليه . ولما رفضه فرديناند

وقبض على مبلعيه وطالب المفتشين بأن يواصلوا عملهم ، لم يتخذ البابا سكستوس إجراء آخر ؛ اللهم إلا تعطيله لمفعول قراره بعد ستة أشهر من إصداره .

وأخذ المتنصرون اليائسون يصبون الأموال صبا في مدينة روما ، مناشدين الحصول على فتاوى شرعية وبراءة من استدعاء محكمة التفتيش لهم أو حكمها عليهم . وقبلت هذه الأموال ، وأعطيت الفتاوى ، بيد أن المفتشين الأسبان الذين يبسط عليهم الملك حمايته جملة تجاهلوا ، وكان الباباوات في حاجة إلى حماية فرديناند وإلى المنحة الأسبانية السنوية ، فلم يصروا على تلك الفتاوى ، وكان المال يدفع في سبيل الحصول على قرار بالعفو فيصبا . ثم يسحب بعد ذلك . وعمل الباباوات بين حين وآخر على تأكيد سلطتهم مستدعين المفتشين إلى روما لارد على اتهامات وجهت إليهم بسوء السلوك وحاول إسكندر السادس أن يخفف من قسوة المحكمة . وأمر يوليوس الثالث بمحاكمة المفتش لوسيرو على سوء استعماله لسلطته ، وأصدر قرار الحرمان على مفتش طليطلة . ومع ذلك فقد عد ليو المهذب العالم ، القول بعدم إحراق الهرطقة ، من الهرطقة التي تستوجب اللوم .

كيف كان موقف الشعب الأسباني من محكمة التفتيش ؟ لقد عارضتها الطبقات العليا والإقليمية المتعلمة معارضة ضعيفة ، أما عامة المسيحيين فقد أيدوها عادة . وأظهرت الجماهير التي احتشدت عند المحرقة تعاطفا واهنا ، وأبدوا دائما عداوة فعالة للضححايا ، وحاولوا في بعض الأماكن قتلهم حتى لا ينجيهم اعترافهم من المحرقة . وتجمع المسيحيون لابتياح أمتعة المحكوم عليهم المصادرة بالمراد .

كم بلغت كثرة الضحايا ؟ قدر ليورنت^(٢) بأنهم بلغوا بين عامي

(١) جوان أنطونيو ليورنت ، قسيس إسباني ، كان أمينا عاما لمحكمة التفتيش في سنة ١٨٨٩ إلى سنة ١٨٠١ واندبه يوسف بونايرت عام ١٨٠٩ لفحص محفوظات محكمة التفتيش وكتابة تاريخها . وقد ترك إسبانيا مع الفرنسيين المنسحبين ونشر تاريخه عن محكمة التفتيش في باريس عام ١٨١٧ .

١٤٨٠ و ١٤٨٨ ثمانية آلاف وثمانمائة أحرقوا ، وستة وتسعين ألفا وأربعمائة وتسعين عوقبوا ، وبين عامي ١٤٨٠ - ١٥٠٨ بواحد وثلاثين ألفا وتسعمائة واثنى عشر أحرقوا ومائتين وواحد وتسعين ألفا وأربعمائة وأربعة وتسعين حكم عليهم بعقوبات صارمة ، وكانت هذه الأرقام في معظمها تخمينية . ويرفضها اليوم بصفة عامة المؤرخون البروتستنت ويعدونها تطرفا في المبالغة . يذهب مؤرخ كاثوليكي إلى أنه قد أحرق ألفان بين عامي ١٤٨٠ و ١٥٠٤ ، وألفان آخران حتى سنة ١٧٥٨ . وأحصى كاتب سر ايزابلا واسمه هرناندو ده بولجر عدد الذين أحرقوا ، بألفين قبل عام ١٤٩٠ وفاخر ذوريتا أمين محكمة التفتيش بأنها أحرقت أربعة آلاف في إشبيلية وحدها وكانت هناك ضحايا في معظم المدن الأسبانية . بل في الإمارات التابعة لأسبانيا مثل البليار وسردينيا وصقلية والأراضي الواطئة وأمريكا .

ونقص معدل الإحراق بعد عام ١٥٠٠ . ولا تصور الإحصائيات أيا كانت الفرع الذي عاش فيه العقل الأسباني في تلك الأيام والليالي . فقد كان على الرجال والنساء حتى في ستر منازلهم ، أن يرقبوا كل كلمة يتلفظون بها حتى لا يؤدي بهم نقد عارض إلى سجن محكمة التفتيش . لقد كان ضغطا عقليا لا نظير له في التاريخ .

هل نجحت محكمة التفتيش ؟ نعم ، نجحت في تحقيق غرضها الذي أعلن عنه ، وهو تخليص أسبانيا من الهرطقة الصريحة . فإن الفكرة القائلة بأن اضطهاد المعتقدات لا تأثير له أبداً ، ضلال ، فقد سحق الأليبيجينزيين والهيجونوت في فرنسا ، والكاثوليك في إنجلترا في عهد الزابث والمسيحيين في اليابان - وانتزعت ، في القرن السادس عشر ، الجماعات الصغيرة التي عطف على البروتستانتية في أسبانيا . ولعلها قوت من ناحية أخرى البروتستانتية في ألمانيا واسكنديناوه وإنجلترا بإثارة خوف قتال في نفوس شعوبها ، مما يحقق بهم ، إذا أعيدت الكاثوليكية .

ومن العسير أن نقدر نصيب محكمة التفتيش في القضاء على الفترة المزهرة من تاريخ أسبانيا ، الواقعة بين كولومبس وفيلاسكيه (١٤٩٢ - ١٦٦٠) وبلغت هذه الفترة أوجها بمجيئ سرفانتس (١٥٤٧ - ١٦١٦) لوب ده فيجا (١٥٦٢ - ١٦٣٥) وذلك بعد انتشار محاكم التفتيش في أسبانيا بمائة عام . ولقد كانت محكمة التفتيش نتيجة كما كانت سبباً لقوة المذهب الكاثوليكي . وسيطرته على الشعب الإسباني ، وإن هذه الحالة الدينية . قد تمت خلال قرون في الصراع ، ضد المسلمين : ولعل انحلال اسبانيا من جراء حروب شارل الخامس وفيليب الثاني وضعف الاقتصاد الإسباني بفضل انتصارات بريطانيا في البحر والسياسة التجارية للحكومة الأسبوعية . كان أشد تأثيراً في اضمحلال اسبانيا من أهوال محكمة التفتيش . ولقد أظهر الحكم بإعدام العرافين في أوروبا الشمالية ونيواجناند نزوعاً في الشعوب البروتستانتية قريباً لما في محكمة التفتيش الأسبانية . ومن العجيب أن نقول إن محكمة التفتيش الأسبانية قد عاملت العرافة بتعقل وعدتها وهما يستحق الإشفاق والعلاج لا العقاب . ولم تكن محكمة التفتيش وإحراق العرافين سوى تعابير عن عصر مصاب بالإيمان ، الباعث على القتل . لفرط ثقته بهجوم الدين . كما تعود بعض أسباب المذابح الوطنية في عصرنا إلى الإيمان . باعث على القتل ، بنظرية عنصرية أو سياسية . ويجب علينا أن نحاول منهم مثل هذه الحركات بمصطلحات زمانها ، ولكنها تبدت لنا الآن أكبر جريمة لا تغتفر من الجرائم التاريخية . ذلك لأن عقيدة سائدة لا تنازع عدو ومهلك للعقل الإنساني ؟

٦ - هجرة إسرائيل

كان الغرض من محكمة التفتيش أن ترهب جميع المسيحيين المحدثين والقدامى على السواء ليتمسكوا بالسنة الظاهرة على الأقل ، على أمل أن يقضى على الهرطقة في مهدها وأن الجليل الثاني أو الثالث من اليهود المعمدين سوف

ينسون يهودية أسلافهم . ولم تكن هناك نية للسماح لليهود المعمدين أن يرحلوا عن اسبانيا ، فلما حاولوا الهجرة حرمها عليهم فرديناند ومحكمة التفتيش ولكن ماذا كان مصير اليهود غير المعمدين ؟ لقد ظل حوالى مائتين وخمسة وثلاثين ألفاً منهم في اسبانيا المسيحية : فكيف السبيل إلى تحقيق الوحدة الدينية للدولة ، إذا سمح لهؤلاء أن يمارسوا شعائر عقيدتهم وأن يصرحوا بها ؟ ورأى توركيمادا استحالة ذلك ، وأوصى بإكراههم على التنصر أو نفهم .

فتردد فرديناند . ذلك أنه كان يعرف القيمة الاقتصادية لقدرة العبرانيين في التجارة والمالية . ولكنه أخبر أن اليهود عنفوا المنتصرين منهم ، وحاولوا أن يعيدوهم إلى اليهودية ، بشرط واحد هو أن يكون ذلك سراً . واتهم طبيبه رباس ألتس ، وهو يهودى معمد ، بأنه علق في رقبة كرة ذهبية تحتوي على صورة له على هيئة فيها تنجيس الصليب ، ويبدو أن التهمة غير صحيحة ولكن هذا الطبيب أحرق (١٤٨٨) . وزينت رسائل نصح فيها زعيم يهودى في القسطنطينية ، رئيس الجماعة اليهودية في أسبانيا بأن يسرق ويدس السم للمسيحيين كلما استطاع إلى ذلك سبيلا . وقبض على منتصر بتهمة وجود رقاقة مقدسة في جعبته ، وعذب مراراً فتكراراً حتى وقع على عبارة مفادها أن ستة من المنتصرين ومثلهم من اليهود قتلوا طفلاً مسيحياً ، ليستعملوا قلبه في شعيرة سحرية ، دبرت لتؤدى إلى هلاك جميع المسيحيين والقضاء الكامل على المسيحية . وكانت اعترافات الرجل الملعوب يناقض أحدها الآخر ولم يبلغ عن فقد طفل من الأطفال ، ومع ذلك أحرق أربعة من اليهود ، بعد أن انتزع لحم اثنين منهم بواسطة كلابة متوهجة وربما أثرت هذه الاتهامات وأمثالها في نفس فرديناند ، ومهما يكن من شيء فقد مهدت لرأى عام يطلب لإجلاء اليهود غير المعمدين عن أسبانيا . ولم تعد المساهمة الاقتصادية لليهود حيوية بعد أن استسلمت غرناطة (١٤٩١)

وانتقل النشاط التجارى والصناعى من المسلمين إلى أسبانيا المسيحية . وجعل التعصب الشعبى الذى تلهبه المحرقة وعظات الرهبان ، السلام الاجتماعى مستحيلا ، إلا إذا قامت الحكومة بحماية اليهود أو طردهم .

وفى ٣٠ مارس ١٤٩٢ - وهى سنة مزدحمة بالأحداث فى تاريخ أسبانيا وقع فرديناند وايزابلا مرسوم نفى اليهود . ومؤداه أن جميع اليهود غير المعمدين ، أيا كانت أعمارهم أو أحوالهم ، عليهم أن يتركوا أسبانيا فى موعد غايته ٣١ يولييه ، ولا يسمح لهم بالعودة ، ومن يفعل عقوبته الإعدام ، ولهم أن يتخلصوا من متاعهم فى هذه الفترة القصيرة بأى ثمن يحصلون عليه ولهم أن يأخذوا معهم المتاع المنقول وصكوك المعاملات دون النقد من ذهب وفضة . وقدم أبراهام سنيور وإسحاق ابرابانل ، للملكين مبلغاً كبيراً من المال ليسحبها مرسومهما ولكنهما رفضا . ولم يتم اتهام ملكى على اليهود سوى رغبتهم فى إغراء المتنصرين للارتداد إلى اليهودية . وصدر ملحق لذلك المرسوم ، يجعل الضريبة إلى آخر العام يجب أن تجبى على جميع أملاك اليهود ومبيعاتهم . أما الديون المستحقة على المسيحيين والمسلمين فلا تدفع إلا عند بلوغ سن الرشد ، عن طريق العملاء الذين يستطيع المنفيون العثور عليهم ، أو تحل هذه المطالب بنخصم لمشتريين مسيحيين . وهكذا انتقلت أموال اليهود فى هذه المدة الإجبارية القصيرة إلى أيدي المسيحيين بجزء ضئيل من قيمتها . فكانت الدار تباع فى مقابل حمار والكرمة فى مقابل قطعة من القماش . وأحرق بعض اليهود فى نوبة يأس منازلهم « أليجمعوا قيمة للتأمين عليها ؟ » وتنازل بعضهم الآخر عنها للمجلس البلدى . ووضع المسيحيون أيديهم على المعابد وحاولوا إلى كنائس . وتحولت مدافن اليهود إلى مراعى . وذاب فى شهور قليلة ، الجانب الأكبر من ثروات اليهود الأسبان ، التى كدسوها خلال قرون . وقبل خمسون ألف يهودى تقريبا التنصر ، وسمح لهم بالبقاء ، وترك أسبانيا أكثر من مائة ألف فى موكب خروج طويل كئيب .

وقبل رحيلهم زوجوا جميع أطفالهم الذين فوق الثانية عشرة . وساعد الصغار الكبار ، وأعان الأغنياء الفقراء . وسار الحجاج على متون الخيل أو الحمير وفي الغربات أو على الأقدام . وناشد المسيحيون الطيبون — من رجال دين ودنيا — المنفيين عند كل منعطف أن يذعنوا للتعميد . فقابل الرابانيون ذلك بأن أكدوا لأشباعهم بأن الله سيهديهم إلى أرض الميعاد ، وذلك بأن يفتح لهم معبراً في البحر كما فعل لآبائهم في القديم . وانتظر المهاجرون الذين أجمعوا في قادم يملؤهم الأمل بأن يتفرق الماء ويسمح لهم بالعبور إلى إفريقيا دون أن تبطل أقدامهم . فلما انجاب عنهم الوهم دفعوا الأجور الباهظة للنقل بالسفن وفرقت العواصف أسطولهم الذي كان يتألف من خمس وعشرين سفينة ، وردت ست عشر منها إلى أسبانيا حيث آثر الكثيرون من اليهود اليائسين التعميد على دوار البحر . وتحطمت السفينة بخمسين من اليهود بالقرب من صقلية ، فسجنوا عامين ثم بيعوا رقيقاً . ولم يجد الآلاف الذين أبحروا من جبل طارق ومالقة وبالنسية أو برشلونة : في العالم المسيحي بأسره إلا إيطاليا الراغبة في استقبالهم بدافع إنساني .

وكانت البرتغال أكثر الأهداف ملائمة للمهاجرين . فقد وجدت فيها من قبل جماعة كبيرة من اليهود ، وبلغ بعضهم مكانة من الثراء والمركز السياسي في كنف ملوك لا يضمرون لهم عداوة . ولكن جون الثاني أفزعه عدد اليهود الإسبان — ربما بلغوا ثمانين ألفاً — الذين تدفقوا عليها . فمنحهم مهلة ثمانية أشهر ، عليهم أن يرحلوا بعدها . وتفشى بينهم الطاعون وانتشر منهم إلى المسيحيين . الذين طالبوا بإجلائهم فوراً . فيسر جون خروج اليهود المهاجرين بأن هيا لهم سفناً بأجور زهيدة ، بيد أن الذين اعتصموا منهم بهذه السفن ، تعرضوا للسرقة والاعتصاب ، وألقي بكثيرين على شواطئ غير مأهولة وتركوا للموت جوعاً أو ليسبهم المسامون ويبيعونهم . وهام مائتان وخمسون يهودياً على ظهر سفينة في البحر أربعة

أشهر ؛ ترفض ميناء بعد ميناء نزولهم ، لأن الطاعون لما يزل متفشيا بينهم . واعتقل قرصان بسكاي لإحدى السفن ونهبوا ركابها ثم استاقوا السفينة إلى مالقة ، حيث خير القسس والحكام اليهود بين التعميد أو الموت جوعا . وبعد أن مات خمسون منهم زودت السلطات الباقين بالخبز والماء وطالبتهم بالإبحار إلى إفريقيا .

وما أن انتهت مهلة الثمانية أشهر ، حتى باع جون الثاني بيع الرقيق ، أولئك اليهود المهاجرين الذين بقوا في البرتغال وانتزع الأطفال دون الخامسة عشرة من آبائهم وأرسلوا إلى جزر القديس توماس لينشأوا تنشئة مسيحية . ولما ذهبت التوسلات إلى منفذى المرسوم عبثا ، فقد آثرت بعض الأمهات لغرق أنفسهن وأطفالهن ، على تحمل آلام فراقهم ، ومنحهم خليفة جون واسمه مانويل فرصة جديدة يجمعون فيها أنفاسهم ، فقد حرر أولئك الذين استرقهم جون وحرم على القسس أن يثيروا الدهاء على اليهود ، وأمر محاكمه أن ترفض جميع المزاعم بأن اليهود قتلوا أطفال المسيحيين باعتبارها حكايات خبيثة . ولكن مانويل خطب ايزابلا في الوقت نفسه ، وهى ابنة فرديناند و ايزابلا وورثتهما ، حالما أن يوحد العرشين في فراش واحد ووافق الملكان الكاثوليكيان بشرط أن مانويل ينفي من البرتغال جميع اليهود غير المعمدين سواء أكانوا مواطنين أم مهاجرين . وخضع مانويل لهذا الشرط ، مؤثرا الجاه على الشرف وأمر جميع اليهود والمسلمين في مملكته أن ينتصروا أو يطردوا من البلاد (١٤٩٦) . ولما وجد أن فئة قليلة منهم آثرت التنصر ، وكره أن تباد المهن والصناعات التي تفوق فيها اليهود أمر جميع الأطفال اليهود دون الخامسة عشرة ، أن يفصلوا عن آبائهم وينصروا كرها . وعارض رجال الدين الكاثوليك هذا الإجراء ، ولكنه نفذ . فقد روى أحد الأساقفة « لقد رأيت أطفالا كثيرين يسحبون إلى حوض التعميد من شعورهم » . واحتج بعض اليهود على ذلك بواد أطفالهم ثم قتل أنفسهم ،

وأصبح مانويل شرساً ، فعطل خروج اليهود ، ثم أمرهم بأن ينصروا كرها . فسحلوا إلى الكنائس ، الرجال من لحام والنساء من شعورهن ، وقتل كثيرون منهم نفسه في الطريق وأرسل المتنصرون البرتغاليون رسالة إلى البابا إسكندر السادس يرجون توسطه ولا يعرف رده ، ولعله كان في مصلحتهم ، لأن مانويل منح إذ ذاك (مايو ١٤٩١) جميع المتنصرين كرها إذناً رسمياً مدته عشرون سنة لا يقدمون أثناءها إلى أى محكمة بتهمة التشيع لليهودية . ولكن مسيحي البرتغال رفضوا منافسة اليهود معمدين وغير معمدين ، فإذا جادل يهودى فى معجزة تنسب إلى كنيسة فى لشبونه فإن الغوغاء يمزقونه إربا (١٥٠٦) ، وانتشرت المذابح ثلاثة أيام لا يمنعها أحد ، وقتل فيها ألفا يهودى ودفن مئات منهم أحياء . وأنكر المطارنة الكاثوليك هذه السوزة من الغضب ، وقتل راهبان دومينيكان حرصا على الشعب . واستتب السلام ، أو كاد ، باستثناء هذه الأحداث مدى جيل من الزمان .

وتم خروج اليهود الرهيب من اسبانيا . بيد أن الوحدة الدينية لم تكن قد تحققت بعد : فقد بقى المسلمون . ذلك أن غرناطة سقطت ، ولكن سكانها المسلمين منحوا الحرية الدينية . وانتدب كبير الأساقفة هرناندوده تالافيرا ، حاكما على غرناطة . فنفذ الميثاق فى شىء من السرية وحاول أن يستدرج المسلمين إلى التنصير بالرفق والعدل . ولكن اكسيمينيس لم يوافق على مثل هذا الاعتناق للمسيحية . فألح على الملكة ، بأن العهد لا يحافظ عليه مع الكافرين ، وأقنعها بأن تصدر مرسوماً (١٤٩٩) يخير المسلمين بين الدخول فى المسيحية وبين مغادرة اسبانيا . وذهب بنفسه إلى غرناطة ، وتسلط على طليبة وأغلق المساجد ، ونصب المحارق العامة التى التهمت جميع الكتب والمخطوطات العربية التى وصلت إليها يده ، وأشرف

على التنصير الإجبارى بالحملة . وكان المسلمون يمسحون الماء المقدس عن أطفالهم عندما يتعدون عن عين القسيس ونشبت الثورات فى المدينة والولاية ، وصحقت . وخير جميع المسلمين فى قشتالة وليون بمقتضى مرسوم ملكى صدر فى الثانى عشر من فبراير لعام ١٥٠٢ بين الدخول فى المسيحية ومغادرة البلاد وأعطوا لذلك مهلة غايتها آخر إبريل من العام نفسه . واحتج المسلمون بأن أسلافهم عند ما حكموا معظم اسبانيا ، فلمنهم سمحوا بالحرية الدينية ، إلا فى القليل النادر ، للمسيحيين الذين تحت سلطانهم ، ولكن الملكين لم يتأثرا بهذا الاحتجاج وحرّم على الأطفال الذكور دون الرابعة عشرة والإناث دون الثانية عشرة أن يغادروا اسبانيا مع آبائهم وسمح للأمرء الإقطاعيين بأن يحتفظوا بأرقائهم المسلمين على أن يوضعوا فى الأغلال . ورحل الألوّف ، أما الباقيون فقبلوا أن ينصروا بفلسفة أكبر مما فعل اليهود وتعرضوا باعتبارهم عربا موريسكيين "moriscos" محل اليهود المعمدين لتحمل عقوبات محكمة التفتيش على عودتهم إلى ديارهم السابقة وترك اسبانيا إبان القرن السادس عشر ثلاثة ملايين من المسلمين المتظاهرين بالمسيحية ووصف الكاردينال ريشليه مرسوم عام ١٥٠٢ بأنه « أكبر حدث همجى فى التاريخ » ، يد أن الراهب بليدا رآه « أعجّب حدث فى اسبانيا منذ عهد الرسل » . واستطرد قائلا : « الآن أصبحت الوحدة الدينية فى مأمن ، وأوشك عهد من الازدهار أن يبرز » .

وفقدت اسبانيا كنزاً لا يقدر بخروج التجار وأصحاب المهن والدارسين والأطباء والعلماء من اليهود والمسلمين ، وأفادت الأمم التى تلقته من «الناحيتين الاقتصادية والفكرية . ولما لم يعد يعرف الشعب الإسبانى منذ ذاك غير ديانة واحدة ، فقد أذعن تماماً لرجال الدين وتنازل عن كل حق له

فى التفكير إلا فى حدود العقيدة التقليدية . وآثرت اسبانيا أن تحتفظ بطابع القرون الوسطى ، وسيان كان ذلك لخيرها أو لشرها ، فى حين اندفعت أوروبا نحو التقدم العصرى بفضل الثورات التجارية والطبوغرافية والفكرية والبرستانتينية .

٧ - الفن الإسبانى

لقد عبرت العمارة الإسبانية المتشبثة بالطراز القوطى تعبيراً قوياً عن ذلك الطابع المكين للقرون الوسطى . ولم يسخط الشعب على المرويدات^(١) التى أعانت ضمير الملوك والنبلاء على إنفاق المال أو السياسة الدينية ، لبناء الكتدرايات الضخام كما دفعت إلى الإسراف فى الزينة باهظة النفقة والنحت والتصوير الرائعين على القديسين الأثيرين لديهم وعبادة أم الرب بكل مشاعرهم . وأقيمت كتدراية برشلونة فى بطء بين عامى ١٢٩٨ ، ١٤٤٨ : وبين فوضى الطرق الضيقة ترتفع أعمدتها الساحقة وبابها الذى لا مزية له وصحنها المنيف بينما لا تزال أروقتها ذوات النوافذ الكثيرة تصلح ملجأ يعتصم الناس فيه من جهاد النهار . ومدت بلنسية وطلليطلة وبرجوس وبرغشت ولاردة وطراكونة وسرقسطة وليون أوزينت معابدها التى كانت موجودة من قبل ، بينما أقيمت معابد جديدة فى وشقة وبمبلونة التى تعد أروقتها من الرخام الأبيض ، ذوات النقش الرشيق ، تعد فى جمال أبهاء الحمراء . وفى عام ١٤٠١ قررت هيئة الكتدراية فى إشبيلية أن تشيد كنيسة تبلغ من العظمة والجمال حداً يجعل الذين يشاهدونها فى الأجيال المقبلة يرون أننا مجانين لإقامتها . « فأزال المعاريون المسجد المتهالك الذى يقوم على المكان المختار لبناء الكنيسة ولكنهم أبقوا على أسسه ، وعلى تخطيطه ومثذنته

(١) المرويدات جمع مرويدة ، وهى عملة إسبانية تساوى ربع بنس إنجليزى فإذا كانت ذهبية بلغت قيمتها ١٤ سلنا .

الجيرالدا ، البديعة . وظلوا يضعون حجراً فوق حجر طوال القرن الخامس عشر حتى أكملت إشبيلية تشييد أكبر بناء قوطى فى العالم^(١) ، وقال عنها تيوفيل جوتيه : « إن كنيسة نوتردام فى باريس قد تسير منتصبه القامة فى صفها . » ومع ذلك فإن نوتردام كاملة ، وكندراثة إشبيلية فسيحة . وعمل سبعة وستون نحاً وثمانية وثلاثون مصوراً من موريللو إلى جويبا ، على تزيين هذا الكهف العظيم للآلهة .

واقترح المعمارى جويلوموبو فى حوالى عام ١٤١٠ على هيئة كنيسة جيرونا أن يزيل الأعمدة والعقود ، التى تقسم داخلها إلى صحن ممرات ، وأن يوحد الجدران بعقد واحد عرضه ثلاثة وسبعون قدماً . ونفذ ذلك ، وهكذا أصبح لصحن كندراثة جيرونا أعرض عقد قوطى فى العالم المسيحى . وكانت نصراً للهندسة وهزيمة للفن . وشيدت أضرحة لم تبلغ هذه الضخامة إبان القرن الخامس عشر فى برنيان ومانريزه واسترقة وبلد الوليد . وتوجت شقوبية عمارتها بتشيد كندراثة على شكل حصن عام ١٤٧٢ ، وأمت سيجونزا أروقها المشهورة عام ١٥٠٧ ، وبدأت سلمنقة فى إقامة مزارها الحديد عام ١٥١٣ وترتفع فى كل مدينة كبيرة فى أسبانيا ، ما عدا مدريد . كندراثة تبدو من الخارج بناية ضخمة فى جلال رائع وداخلها يسترحم الشمس بظلامه الدامس ويروع النفس بالتقوى ، ومع ذلك تبدو زاهية بالألوان الناصعة التى يتسم بها فن التصوير الأسبانى ، وبمآثلها الملونة وبريق الجواهر والفضة والذهب . وهذه هى دور الروح الاسبانى ، الخاضع فى خوف المتكبر فى وحشية .

وعلى الرغم من هذا كله وجد الملوك والنبلاء كما وجدت المدن ،

(١) على مساحة مقدارها ١٢٥ ألف قدم مربع ، وكندراثة القديس بطرس على مساحة تبلغ ٢٣٠ ألف ، ومساحة مسجد قرطبة ٦٠٠ ألف .

الأموال لتشييد القصور الباهظة . وكان بطرس الغشوم وفرديناند وايزابلا وشارل الخامس يعيدون تشكيل القصر "Alcazar" الذى صممه معارى مسلم فى إشبيلية عام ١١٨١ ، وقام بمعظم الترميم مسلمون من غرناطة حتى ليبدو البناء أخا ضعيفا للحمراء . ولقد شيد دون بدرو انريكز على طراز إسلامى مشابه ، لأمرأى القلعة "Alcala" فى إشبيلية (١٥٠٠) قصرأ منيفا ، وهو قصر بيلاطس وكأنما يكرر الدار التى يقال أن بيلاطس ، أسلم من بابه المسيح للصاب ولقد زود ديوان بلنسية (١٥٠٠) للبلاد المحلى بصالون دوراد وينافس فى فخامته سالا دل ماجبور كونسيجليو ، فى قصر الدوج فى البندقية .

وكان فن النحت لا يزال خادما للعمارة والعقيدة ، يزحم الكنائس الأسبانية بتماثيل العذراء من المرمر أو المعدن أو الحجر أو الخشب ، وهنا نجد التقوى تتجسم فى أشكال دينية صارخة ، أو زهدية جافية ، يذكىها اللون ويضاعف من إثارتهما للروع كتابة صحنها . ويفاخر الفن الأسباني خاصة بالحواجز المنقوشة والملونة المقامة خلف منضدة المذبح ، وأنفقت مبالغ طائلة اغتصبت تحت وطأة التهديد بالموت ، لجمع أحذق الصنائع — والاحتفاظ بالمصممين والنقاشين والنحاتين والدورادور الذين يذهبون أو يدمشقون^(١) السطوح والاستوفادور الذين يصبغون الثياب والحلى والانكارنادور الذين يلقنون الأجزاء التى تحكى اللحم ، وعمل الجميع معا أو بالتناوب فى الضريح . وخلف المذبح الرئيسى لكثدراثة إشبيلية حاجز يتألف من خمسة وأربعين قسما (١٤٨٣ — ١٥١٩) — ويصور الأساطير المحبة ، فى تماثيل ملونة أو مذهبة على الطراز القوطى المتأخر ، بينما يعرض حاجز آخر فى كنيسة القديس سانت جيمس فى كندراثة طليطلة فى خشب شربين مذهب وبواقعية متجهمة سيرة أكبر قديس أسبانيا تمجيذاً .

(١) يدمشقون يزخرفون بزخارف دمشقية .

وقد يمثل الأمراء والمطارنة في فن النحت ؛ ولا يكون ذلك إلا على قبورهم التي توضع في الكنائس أو للأديرة التي تعد المداخل إلى الجنة وعلى هذا النحو دفنت دونا منسيا أنريكيث ، دوقة البوكرك في حدث منقور نقرا جميلا ، وهو الآن موجود في متحف الجمعية الأسبانية في نيويورك ، وحفر يابلو أرتيز لكتدرائية طليطلة ، تابوتين فخمين لدون الفاروده لونا وزوجته . وصمم جيل ده سيلوى في دير ميرافلورس الكارثوسى بالقرب من برغشت ، مدفنا فخما على الطراز الإيطالى لوالدى الملكة وأخوتها . وبلغ من ابتهاج إيزابلا بهذه المدافن الشهيرة للرفات الملكية إنها عندما علمت بمصرع وصيفها ، جوان ده باديللا (الذى كان شجاعاً في استهتار حتى أطلقت عليه « معتوهى ») بإصابة في رأسه إبان حصار غرناطة ، كلفت ده سيلوى ، أن ينقر مدفنا ملكيا لضم رفاقه ، ونافس جيل مرة أخرى أحسن ما في فن النحت الإيطالى في عصره .

وليس هناك فن أكثر تميزاً من الفن الأسباني ، ومع ذلك فليس بينها ما أسلم للتأثير الأجنبي بخشوع مثله . وخضع أول أمره ، بطبيعة الحال ، للتأثير الإسلامى ، الذى استقر طويلا في شبه الجزيرة ، وإن استمد جذوره من العراق وفارس وأدخلت في الطراز الأيبيرى ، دقة في الصناعة ، وكلفا بالزينة فلما تضارع في أى بقعة من بقاع العالم المسيحى . أما في الفنون الصغرى ، حيث يحتل الزخرف المكان الأكبر ، فإن اسبانيا قلدت فيها أسانذتها العرب ولم تتفوق عليهم فيها قط . فترك الخرف بأكمله للمدجنين ، الذين لم يضارعههم في لمعان آثارهم سوى الصينيين ، والذين زادت قراميدهم الملونة - وبنوع أخص الزلزلى الأزرق - من أبهة الأرضيات والمذابح والنوافير والجدران والسقوف في أسبانيا المسيحية . كما أن الحلق الإسلامى نفسه ، قد جعل المنسوجات الاسبانية من المخمل والحريز والخرم - أدق ما في العالم المسيحى من نوعه . وهذا الحلق يبدو مرة أخرى في المصنوعات الجلدية

الاسبانية ، وفي الزخارف العربية « أرابيسك » وفي الحواجز المعدنية وفي أوعية السر المقدس الدينية وفي النقش على الخشب الذى تصنع منه الحواجز خلف المذبح ومقاعد الشماسة والأقبية وتسالت تأثيرات متأخرة من التصوير البيزنطى ثم من فرنسا وبرجنديا والأراضى الواطئة وألمانيا . واستمد النحت والتصوير الاسبانيان واقعيتهما الرائعة من الهولنديين والألمان — وهى الواقعية التى أظهرت رسوم العذراء خيفة بالقدر الذى يجعل سنّها ملائمة لأن تكون أم المصلوب ، على الرغم من رأى ميشيل انجيلو من أن العذرة التى تبتعث الشباب — ولقد انحسرت جميع هذه التأثيرات إبان القرن السادس عشر أمام انتصار الطراز الإيطالى الذى شمل القارة الأوروبية .

وسار التصوير الاسبانى فى تطور مماثل ، ولكنه تقدم ببطء ، وربما كان ذلك لأن المسلمين لم يبذلوا فى هذا المجال معاونة أو توجيها . وكانت الصور الجدارية القطلونية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، أحظ من حيث التصميم ، من الرسوم على جدران كهف التاميرا التى تعود إلى ما قبل التاريخ فى إسبانيا . ومع ذلك فما جاء عام ١٣٠٠ حتى أصبح التصوير الفتنة التى تأخذ بالألباب فى شبه الجزيرة بأسرها ، وصور ألف فنان صورا جدارية كثيرة ولوحات ضخمة على المذبح ، وقد بقى بعضها مما يرجع إلى عام ١٣٤٥ مدة طويلة أكثر مما يستحق — وفى عام ١٤٢٨ زار جان فان ايك ، إسبانيا وأدخل معه تأثيراً فلمنكيا قويا . وأرسل ملك أرجون بعد ذلك بثلاثة أعوام ، لويس دلو ، ليدرس الفن فى بروجس ، ولما عاد صور لويس صورة مغرقة فى الفلمنكية هى « عذراء مجلس الشورى » . وأخذ المصورون الاسبان منذ ذاك ، وإن ظلوا يفضاون الألوان غير اللامعة ، يغمسون ألوانهم فى الزيت شيئا فشيئا .

وبلغ عصر البدائيين فى التصوير الاسبانى ، ذروته على يد بارتولومة برميجو (المتوفى عام ١٤٩٨) وقد حفر نفسه اسما فى فترة مبكرة عام ١٤٤٧

بصورته سانتو دومنغو المعلقة في البرادو . أما صورتا : سانتا انجراسيا التي اشتراها متحف جاردنر في بوسطن ، وسانت ماكاييل الموجودة في مجموعة ليدى ليدلو ، فلنهما جديرتان برفائيل ، الذي جاء بعده بجيل من الزمان . ولكن أحسنها جميعها هي صورة بيتا (١٤٩٠) في كتدرائية برشلونة : وفيها جيروم أصلع على عينيهِ نظارات ، ومريم سمراء أسبانية تمسك بابنها الكسيح الهزيل الذي لا حياة فيه ، وفي مهاد الصورة أبراج أورشليم تظللها سماء قريبة ، وإلى اليمين صورة جافية للمنعّم الكاهن ديسبلا ، غير مرجل الشعر غير حليق اللحية ، يشبه قاطع طريق تائباً محكوماً عليه ، ويوحى تصور بزميزو المريض الإنسانية . وهنا نجد أن الرشاقة الإيطالية تتحول إلى قوة اسبانية ، وتحتفل الواقعية بانتصارها في الفن الإسباني .

واستمر التأثير الفلمنكي في فرناندو جاليجوس ، وأثمر رائعة مذهلة بـ « فارس من جماعة قلعة رباح » ، صورها مييجويل سيثيوم وهو فلمنكي في حاشية إيزابلا ، وهي من أجمل صور الأشخاص في المعرض القومي . بواشنطن . ولكن التأثير الإيطالي بدأ مرة أخرى عندما عاد بدرو برجوت إلى اسبانيا بعد تمرس طويل في إيطاليا . وهناك درس مع بييرو دلافرنشسكا وميلوزودا فورلي ، وتمثل طريقتهما الهادئة في التظليل . ولما أراد فيديريجو أمير أربينو ، مصورين يزينون قصره ، اختار جستوس فون جنت وبيرو سبانيولو ، ولما توفي الدوق (١٥٨٢) جلب بدور فن التكيليل معه إلى اسبانيا ، ورسم لوحات مذبح مشهورة في طليطلة وأبله والصور المنسوبة إليه في اللوفر والبريرا والرادو ومتحف كليفلند ، فلم تؤيد شهرته الحالية ، أباعتهاره فيلاسكين الملوك الكاثوليك ؟ ولكنها تبدو في الرسم والتأليف أعظم من جميع الآثار التي ظهرت في اسبانيا قبلهم .

وأخذت العوامل الأجنبية تتفاعل ببطء مع العبقرية الوطنية لتمهد الطريق لظهور الآثار الفنية الناضجة التي قام بها الونزو كوالو والحريكو في عهد فيليب

الثاني ، وانتصارات فيلاسكيه وزرباران وموريللو في عصر اسبانيا الذهبي
إبان القرن السابع عشر . والعبقرية موهبة فردية من القوة والإرادة . ولكتها
في الوقت نفسه ميراث اجتماعي للنظام والقدرات تشكلت على الأيام وتمثلها
النمو والعبقرية تولد وتصنع في آن واحد .

٨ - الأدب الاسباني

وكان على النفوذ الإيطالي في الأدب أن يترتب في الوقت الذي تبادلت
فيه أسبانيا التأثير مع فرنسا في القرون الوسطى . وربما أخذ التروبادور في
برفانس عن أسبانيا الإسلامية والمسيحية ، قوالبهم وأخيلتهم الشعرية ومع
ذلك فقد أرسل جون الأول ملك أرجون وفدا إلى شارل الرابع ملك
فرنسا (١٣٨٨) يطلب مجيء - التروبادور من تولوز إلى برشاونة ، لينشئوا
فيها فرعا من فرقهم ، الحكمة المرحمة وتحقيق له ذلك وعقدت المطارحات
الشعرية في برشاونة وطرطوشة على النهج البروفانسي ، وشغفت الأقلية
المتعلمة في أرجون وقشتالة بنظم الشعر وإلقائه . وأنشد منشدون جوالون
القصائد الغنائية في الحب أو العقيدة أو - الحرب بمصاحبة آلات وترية
بسيطة .

وإذا كان الجيل الثاني فقد أيد جون الثاني ملك قشتالة النماذج الشعرية
الإيطالية . وانتشرت في شبه الجزيرة الأيبيرية طرائف النظم الإيطالية
وأوزانه عن طزريق نابولي وصقلية ، حيث حكم الإسبان ، وعن طريق
جامعة بولونيا ، حيث تعلم الشباب الإسباني مثل آل بورجيا ، ووجد دانتى
وبترارك مقلدين لهما مشغوفين بهما باللسان القشتالي . وكانت مقطعات الشعراء
الإسبان الغنائية تجمع بين وآخر في دواوين الشعر الغنائي *cancioneros* ،
وهي أناشيد فروسية عاطفة بتراركية الأسلوب . واستورد ماركيز سنثيلانا
- وهو سياسي وباحث وراعية للأدب وشاعر - قالب المقطوعة الغنائية
في إيطاليا ، وسرعان ما صنف تاريخا للأدب . وقلد جوان ده مينا ، دانتى

تقليداً صريحاً في ملحمة شعرية ، عنوانها « قصر التيه » وقد فعلت الكثير لتجعل اللغة القشتالية لغة أدبية ، مثلاً فعلت الكوميديا الإلهية ، للغة الحديثة التسكانية وسبق دون جوان مانويل في الوقت نفسه بوكاشيو ، في كتابة حكايات درامية اقتبس شكسبير من إحداها الشخصية التي لا يمكن تصديقها لبتروشيو في ترويضه الغمرة .

وظلت الرومانس تجد لها مدخلا لكل طبقات القراء . وترجمت أماديس داجولا إلى الإسبانية (١٥٠٠) على يد جارسا أردونيه ، الذي أكد لقراءه ، أنه استحدث في الأصل البرتغالي تنقيحا كبيراً ، وما دامت هذه الترجمة قد ضاعت فنحن لا نستطيع أن نخالفه . أماديس ابن غير شرعى لأميرة بريطانية خيالية ، وقد ألفت به أمها في البحر . فأنقذه فارس اسكتلندى وصار وصيفاً للملكة اسكتلنده . ويترك ليوزيرات ملك إنجلترا ابنته أوريانا التي تبلغ من العمر عشرة أعوام في البلاط الاسكتلندى ، ليخمد ثورة مغتصب الملك . وتعين الملكة أماديس الذي يبلغ من العمر اثني عشر عاماً وصيفاً لأوريانا قائلة « هذا طفل يقوم على خدمتك » . . فأجابت إن هذا يسرها . واحتفظ الطفل بهذه الكلمة في قلبه ، على نحو لم تفارقه بعد ذلك قط . . . ولم يكل قط ، طوال أيام حياته من خدمتها . وهكذا بقي حبهما مابقياً ، ولكن أماديس الذي لم يعرف مطلقاً مدى حبهما له ، رأى نفسه جسوراً في أن يحصر أفكاره فيها وقد أدخل في اعتباره عظمتها وجمالها ، ولم يجسر قط ، أن يتفوه بكلمة معها وهى أيضاً ، وإن أحبته من قلبها ، حرصت على ألا تكلمه أكثر مما تكلم غيره ، ولكن عينيها وجدت الساوى العظيمة في أن تبدى لقلبها أعظم ما تحبه في الدنيا .

ومن المطمئن أن نعلم أن حبهما قد انتصر بزواجهما ، بعد محن بلغت من الكثرة في القصة قبل الزواج ، ما بلغته بعد ذلك في الحياة . وفي هذه الحكاية الطويلة لحظات كثيرة تزخر بالعاطفة وبعضها يتسم بالنبيل ، وإذا

كان سرفانتيس ، قد أقسم أن يمحو كل هذا النوع من القصص الخيالي فإنه أبقى هذه باعتبارها أحسنها .

وتعد الرومانس مورداً واحداً من موارد الدراما ، التي انبثقت ببطء من مسرحيات المعجزات والأخلاقيات ، في صورة الهزليات الشعبية ومسرحيات التنكر الخاصة بالبلاط . وأقدم وقت معاوم في تاريخ الدراما الإسبانية هو عام ١٩٤٢ ، عندما ظهرت على المسرح المحاورات الدرامية لجوان دل انسينا وسار فرناندوده روجاس وهو من المتنصرين خطوة أخرى نحو الدراما بتأليفه *La Celestina* ، « القوادة » (١٤٩٩) وهي قصة تسرد بطولتها في كل شكل حوار ، وتنقسم إلى اثنين وعشرين فصلا ، وكانت أطول من أن تمثل على المسرح ، بيد أن تشخيصها الحى وحوارها المشرق قد مهدا للكوميديا الإسبانية الإنسانية الكلاسيكية .

وكانت الكنيسة تعمل على تعويق الدراسات وتشجيعها معا . بينما فبينما أخذت محكمة التفتيش تراقب الفكر ، فإن صفوة رجال الدين قد عماوا الكثير من أجل التربية والتعليم . وجلب الإيطاليون من أمثال بيتر ومارتيره وانجييرا ، الذى جاء إلى إسبانيا عام ١٤٨٧ ، أخبار الحركة الإنسانية ، كما عاد الأسبان الذين تعلموا في إيطاليا بعدوى التعمس لها . واستجاب بيتر مارتير لطلب الملكة فافتنح في بلاطها ، كما فعل الكوبن لشرمان قبل ذلك بسبعة قرون ، مدرسة لتعليم الآداب واللغات الكلاسيكية . ودرست الأميرة جوانا اللاتينية في جد ومثابرة قبل أن تصاب بالجنون . وكتب بيتر نفسه التواريخ الأولى للكشوف الجغرافية في أمريكا ، بعنوان « في أمور المحيطات وفي أمور الكرة الأرضية الجديدة » (١٥٠٤) *De rebvs Oceanis et novò orbe* والكلمتان الأخيرتان تسيران استعمال فسبوتشى (١٥٠٢ ؟) لهما قبل ذلك لتدل على العالم الجديد .

وأسهم الكاردينال اكسيمينيس ، الذى كان إيمانه صارما حاداً كالصلب في الحركة الكلاسيكية . وقد أسس عام ١٤٩٩ كلية الدوفنسو ، وفي عام

١٥٠٨ جامعة القلعة . وهناك بدأ ، عام ١٥٠٢ ، تسعة من اللغوين تحت إشرافه بأحد الأعمال الكبيرة للنهضة العلمية ، وهو « الكتاب المقدس »^(١) بعدة لغات « Biblia polyglotta compluti » وهو أول نسخة كاملة للكتاب المقدس المسيحية باللغات الأصلية . ولقد أضاف الناشرون إلى النص العبري الماسوري للعهود القديم والنص اليوناني للعهود الجديد ، على عمود متقابل أو تعليق ، الترجمة اليونانية وترجمة جيروم لللاتينية وشرحا سريانيا للتوراة . ففتح ليو العاشر ، لمعاوني أكسيمينيس ، خزائن مخطوطات الفاتيكان ، ونشر ثلاثة من اليهود المتنصرين علمهم العبري ، وتم تحقيق هذه النصوص عام ١٥١٧ ولكن المجلدات الستة لم تطبع إلا عام ١٥٢٢ . وأحسن أكسيمينيس بالوفاة ، فاستحث علماءه . قائلا : « لا تضيعوا وقتا في تنفيذ عملنا المجيد ، وإلا ، فقدتم في خضم حوادث الحياة داعيكم أو قدر على أن أندب فقد أولئك الذين خدامتهم أعظم في نظري من كنوز الدنيا وأمجادها » ، وقدم إليه المجلد الأخير قبل وفاته بأشهر قليلة مع تحيات أصدقائه . وقال لهم إنه لا يوجد بين جميع أعمال إدارته ما هو أحق من هذا بتهنئتهم . وشرع بإصدار نصوص أرسطو بالطريقة نفسها ، مع ترجمة لاتينية جديدة لها . ولكن المنية حالت بينه وبين ذلك .

٩ — موت الملك

سبقت إيزابلا وزيرها الناشط في المغامرة الكبرى فقد كانت على الرغم من قساوتها ، امرأة عميقة الإحساس ، احتملت ملات أشد وطأة من الحروب . فقد دفنت أمها عام ١٤٩٦ . ومات من أطفالها العشرة خمسة عند الولادة أو في سن الطفولة ، ومات اثنان آخران في الشباب المبكر .

(١) نسبة إلى كبلوتم ، ومعناها شمر ، وهو الاسم اللاتيني القديم لمدينة القلعة .

وفقدت ابنها الوحيد عام ١٤٩٧ ، وهو أملها الوحيد في وراثة طليعية للعرش ، كما ماتت أحب بناتها عام ١٤٩٨ ، وهى ملكة البرتغال ، التى ربما وجدت شبه الجزيرة توحيدا سلميا لو قدرت لها الحياة . وكابدت وسط هذه الضربات المأساة اليومية وهى تشاهد ابنتها جوانا ، التى كانت وقتذاك ولية للعهد ، تفقد عقلها ببطء .

وكانت جوانا قد تزوجت فيليب الجميل ، دوق برجندي وابن الإمبراطور مكسيمليان الأول (١٩٤٦) وأنجبت منه إمبراطورين مقبلين هما شارل الخامس وفرديناند الأول . وأهملها زوجها فيليب إما لمزاجها المتقلب ، أو لسفاهتها ، واستمر على اتصال بإحدى سيدات بلاطها فى بروكسل ، وجزت جوانا شعرها الخلاب فأقسم زوجها ألا يضاجعها - وسمعت إيزابلا بهذا كله . ف وقعت مريضة وفى الثانى عشر من أكتوبر عام ١٥٠٤ كتبت وصيتها . بأن يحتفل بجنائزتها أبسط احتفال وأن المال المدخر من هذا الصنيع يجب أن يوزع على الفقراء ، وأن تدفن فى دير فرنسيسكانى داخل الحمراء ، وأضافت : ولكن إذا رأى مولاى الملك أن يكون جدته فى مكان آخر نوصيتى أن ينقل جثمانى إلى جواره ، وأن الاتحاد الذى نعمنا به فى هذه الدنيا ، وقد تقتضى رحمة الله أن تتحد معا روحانا مرة أخرى فى الآخرة ، ويمثله اتحاد جسمينا فى الثرى » وماتت فى الخامس عشر من نوفمبر عام ١٥٠٤ ودفنت كما أوصت ، حتى إذا مات فرديناند نقل جثمانها ليدفن إلى جواره فى كاتدرائية غرناطة . وكتب بيتر مارتير « لقد فقدت الدنيا أنبل زينتها ، لا أعرف أحداً من جنسها فى العصور القديمة أو الحديثة ، جديرة على الإطلاق بأن يوضع اسمها مع هذه المرأة التى لا تضارع » . (لقد كانت مرجريت ملكة السويد بعيدة عن مجال إدراكه ، كما أن إليزابث ملكة انجلترا كانت كذلك لم تأت بعد) .

وقد عينت وصية إيزابلا ، فرديناند ليكون نائب ملك على قشتالة

من أجل فيليب الذى تمثلته الأراضي الواطئة ومن أجل جوانا التى تسرع
الخطى نحو الاعتصام بالحنون . وكان أمل فرديناند أن يمنع سقوط العرش
الأسباني في يد آل هابسبرج ، في شخص شارل بن فيليب ، فبادر وهو
في الثالثة والخمسين إلى الزواج (١٥٠٥) من جرمين ده فوا ، ابنة أخى
لويس الثانى عشر ، والبالغة من العمر سبعة عشر عاماً ، ولكن الزواج
ضاعف من سخط النبلاء القشتاليين على مولاهم الأرجونى . وماتت ثمرة
هذا الزواج في سن الطفولة . فطالب فيليب بعرش قشتالة ، ووصل إلى اسبانيا
ورحب به النبلاء (١٥٠٦) بينما انسحب فرديناند إلى مقره باعتباره ملكاً
على أرجون . وبعد ذلك بثلاثة أشهر مات فيليب ، واستعاد فرديناند
ملك قشتالة باسم ابنته المحبولة . وظلت جوانا لا لوكا ، ملكة من الناحية
القانونية ، وعاشت إلى عام ١٥٥٥ ، ولم تترك قصرها في تورديزبلاس
إطلاقاً ، بعد عام ١٥٠٧ ، وكانت تأبى الاغتسال أو ارتداء الثياب ولم
تكل يوماً بعد يوم عن النظر من خلال إحدى النوافذ إلى المدافن التى تضم
وفات الزوج الخائن الذى لم تنقطع عن محبته .

وحكم فرديناند حكماً مطلقاً وهو نائب ملك أكثر مما كان وهو ملك
فقد تحرر من تأثير إيزابلا الملطف ، وتحولت عناصر الصلابة والانتقام في
شخصيته إلى التصلب الصارم . وكان قد استعاد قبل ذلك روسيلون
وسردينيا (١٤٩٣) كما فتح جونزالو أمير قرطبة باسمه نابولى عام
١٥٠٣ . ونقض ذلك معاهدة وقعها فيليب مع لويس الثانى عشر في ليور
تقسم مملكة نابولى بين أسبانيا وفرنسا : وأكد فرديناند للعالم بأن فيليب
تجاوز تعليماته . وأبحر إلى نابولى واستولى بشخصه على عرشها (١٥٠٦)
وساوره الشك في رغبة جونزالو في العرش لنفسه ! ولما عاد إلى أسبانيا
(١٥٠٧) أخذ معه القبطان الكبير وأسلمه إلى عزلة عدها معظم أهالى
اسبانيا إذلالاً لا يستحقه .

وسيطر فرديناند على كل شيء إلا الزمن . وغاضت يتابع الإرادة والنشاط فيه شيئاً فشيئاً . وطالت فترات راحته . وأصابه الإنهاك مبكراً ، فأهمل شئون الحكومة ، وأصبح نافذ الصبر قلقاً ، سيئ الظن إلى حد المرض . وأوفى خدامه له . وأضناه الاستسقاء والربو ، وتعذر عليه التنفس في المدن . فمهر في يناير عام ١٥١٦ جنوباً إلى الأندلس ، آملاً أن يقضى الشتاء في ريفه الطلق . ولكنه مرض في الطريق ، وأقنع آخر الأمر بأن يتأهب للموت . فعين أكسيمينيس ليكون نائب الملك على قشتالة ، كما عين ابنه غير الشرعي كبير أساقفة سرقسطة ، نائب الملك على أرجون . وبات في الثالث والعشرين من يناير عام ١٥١٦ في السنة الرابعة والستين من عمره ، والثانية والأربعين من حكمه .

ولا غرابة في أن يمتدحه مكيا فيقول : كان هنا ملك قام بدور الأمير قبل أن يفكر مؤلفه في كتابته . فقد جعل فرديناند من الدين أداة للسياسة القومية والحربية ، وغمر وثائقه بعبارات التقوى ولكنه لم يسمح بالاعتبارات الأخلاق قط أن تتغلب على مقاصد الضرورة أو الغم . ولا يستطيع أحد أن يشك في قدرته وكفاءته في الإشراف على الحكومة ، واختياره الفطن لوزرائه وقواده ونجاحه المستمر في الدبلوماسية والاضطهاد والحرب . أما من الناحية الشخصية فلم يكن جشعاً ولا مبذراً ، وكانت شرته تنزع إلى تحقيق السلطة أكثر من تحقيق الترف ، وكان جشعه من أجل بلاده ، يريد لها موحدة قوية . ولم يؤمن بالديمقراطية ، وتضاءلت في كنفه الحريات المحلية وماتت وكان مقتنعاً بأن النظم الإقليمية القديمة لا يمكن التوسع فيها بنجاح أمة تضم ولايات وعقائد ولغات جد كثيرة . وكان عمله وايزابلا معه أن يحل الملكية محل الفوضى والقوة محل الضعف ومهد الطريق لشارل الخامس أن يحتفظ بالسيادة الملكية على الرغم من فترات غيبته الطويلة ، كما مهد الطريق لفيليب الثاني ليركز الحكومة كلها في رأس واحد

قاصر . وكان آثماً من أجل تحقيق هذه الأغراض بما يعد في زماننا همجية وتعصباً وقسوة غير إنسانية ، ولكن يعد عند معاصريه نصراً مجيداً من أجل المسيح .

وحافظ أكسيمينيس باعتباره نائب الملك بحماسة على حكم العرش المطلق ، ولعله كان بديلاً من الارتداد إلى الانقسام الإقطاعي . وهو وإن كان في الثمانين من عمره ، فقد حكم قشتالة بإرادة صلبة ، وقضى على كل محاولة من الإقطاع أو المجالس البلدية لاستعادة سلطاتها السابقة ، فلما سأله بعض النبلاء بأى حق يمنع امتيازاتهم ، لم يشر إلى وثيقة إسناد المنصب إلى شخصه وإنما أشار إلى المدفعية في فناء قصره . ومع ذلك كانت إرادة السلطة عنده تابعة لإحساسه بالواجب ، لأنه استحث الملك الشاب شارل مراراً على أن يترك فلاندرز وأن يحضر إلى أسبانيا ليتولى ملكها . ولما جاء شارل (١٧ سبتمبر ١٥١٧) سارع أكسيمينيس شمالاً لاستقباله . ولكن مستشارى شارل القلمنكيين أيدوا نبلاً قشتالة في إعطائه تقريراً ضد إدارة الكاردينال وشخصيته ، حتى است الملك ، وكان لا يزال فتى غير ناضج في السابعة عشرة من عمره ، إلى أكسيمينيس ورسالة يشكره فيها على خدماته ، مرجئاً مقابلته مطالباً إياه بأن ينسحب إلى مقره الدينى في طليطلة لينعم براحة يستحقها . وبعث بعدها برسالة أخرى يعنى المتزمت العجوز من جميع المناصب السياسية ، وبلغته الرسالتان متأخرتين حتى لا يضاعفا من إذلاله ، فقد مات في الثامن من نوفمبر عام ١٥١٧ بالغا من العمر واحداً وثمانين عاماً . وعجب الناس من أنه على الرغم من صلاحه في الظاهر فقد جمع الثروة الشخصية الضخمة التي خلفتها وصيته إلى جامعة القلعة .

وختم لإسبانيا عصرًا غنياً بالأعجاد والأهوال والرجال الأقوياء . ويوحى الأعقاب على هذه الأحداث بأن انتصار التاج على المجالس النيابية والولايات قد أزال الوسيلة التي كانت الشخصية الإسبانية تستطيع بواسطتها أن تعبر وتحافظ

على استغلالها وتنوعها وأن توحيداً قد استتب في مقابل أن يسيطر على اسبانيا جهاز يعمل على قمع الفكر الأصيل في أوليات الأشياء وأواخرها ، وأن إجلاء اليهود والمسلمين الذين لم يتنصروا ، قد أنقص من القوة البشرية المعاملة في التجارة والصناعة في نفس الوقت الذي تطلب اكتشاف العالم الجديد فيه التوسع والتقدم الاقتصاديين ، وأن تورط أسبانيا المستمر في سياسات وحروب فرنسا وإيطاليا (ثم فلاندرز وألمانيا وإنجلترا) وضعت أثقالاً لا تحتمل على كاهل موارد الأمة في المال والرجال ، بدلاً من تحويل السياسة والمغامرة نحو تطوير الأمريكيتين ومع ذلك فهذه نظرة خلفية وهي تحكم على اسبانيا في عهد فرديناند وإيزابلا باصطلاحات لا يستطيع شعب أوربي في عصرهما فهمها . فقد اضطهدت جميع الفرق الدينية ، اللهم إلا قليلاً من المسلمين ومنكرى تعميد الأطفال ، المخالفة في الدين ، واستعملت جميع الحكومات ، إيطاليا وفرنسا الكاثولكيتان وألمانيا وإنجلترا البروتستانتان ، القوة في توحيد العقيدة الدينية ، واستشعرت جميع الدول الظماً إلى ذهب جزائر الهند - الشرقية والغربية - وكلها توسلت بالحرب والدهاء الدبلوماسي لتؤكد بقاءها وتوسع حدودها أو تزيد من ثروتها .

ولم تكن المسيحية عند جميع الأمم المسيحية حكماً بالوسائل وإنما كانت وسائل إلى الحكم ، وكان المسيح أثيراً عند الشعب وميكافلي أثيراً عند الملوك . وقد حضرت الدولة الإنسان من بعض الوجوه ، ولكن من ذا الذي يحضر الدولة ؟ .

الفصل الثالث عشر

نمو المعرفة (١٣٠٠ - ١٥١٧)

١ - السحرة

لم يزل القرنان اللذان صور تاريخهما الأوربي تصويراً مجملاً سريعاً في الفصول السابقة ، يعدان جزءاً مما اصطلاح على تسميته بالعصر الوسيط وهو ما نستطيع أن نحدده تحديداً تقريبياً بأنه سيرة أوربا بين قسطنطين وكولبس ، أى من ٣٢٥ إلى ١٤٩٢ . وإذا أردنا أن نلخص الآن العلم والتربية والفلسفة في غرب أوربا إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، فيجب أن نتذكر أن الدراسات العقلية كان عليها أن تحارب من أجل الحصول على التربية والهواء في غابة من الخرافة والتعصب والخوف . وبين أحداث القحط والطواعين والحروب ، وفي الفوضى الضاربة على البابوية الشاردة والمنقسمة على نفسها بحث الرجال والنساء في القوى الخفية عن بعض التفسير لما ينزل بالإنسانية من شقاء خفي وعن قوة سحرية ما تتحكم في الأحداث ، وعن ضرب من الفرار الصوفي من الواقع المرير ، وسارت حياة العقل متعثرة في وسط من العرافة والسحر واستحضار الأرواح وقراءة الكف وفراسة الدماغ والاستنباء بالعدد والعيافة والطيرة والتنبؤ وتفسير الأحلام وطوالع النجوم والتحويل الكيميائي للمواد والعلاج بالخوارق وللقوى الخفية في الحيوان والمعدن والنبات . ولا تزاو هذه الأعاجيب حية في أعظافنا اليوم . وتظفر هذه أو تلك منها بالولاء الصريح أو الخفي من كل واحد منا تقريباً ولكن تأثيرها الحالي في أوربا اليوم أقل بكثير من سلطانها في العصور الوسطى . .

ولم تدرس النجوم من أجل هداية السفن أو تحديد المواسم الدينية فحسب وإنما درست من أجل التنبؤ بما يقع على الأرض من أحداث وما ينجأ للأشخاص من مصير . ويبدو أن التأثير النافذ للمناخ والفصول وعلاقة المد والجزر بالقمر والتوقيت القمري للطمث عند المرأة واعتماد الزراعة على أحوال السماء وكيفياتها ، إنما تبرر مزاعم التنجيم بأن سماء اليوم تكشف عن أحداث الغد . وكانت أمثال هذه التنبؤات تنشر بانتظام (كما هو الحال الآن) وتبلغ جمهوراً كبيراً متعطشاً لها . ولم يكن الأمراء يجسرون على القيام بحملة أو واقعة أو رحلة أو تشييد بناء إلا إذا حصلوا على تأكيد من المنجمين بأن النجوم في أوضاع ملائمة لهذه الأغراض . ولقد حرص هنري الخامس ملك إنجلترا على الاحتفاظ باصطرلاب ليرسم خريطة السماء ، ولما جاء زوجته الخاض قرأ بنفسه طالع الطفل وكان بلاط متياس كورفينوس الذى يضم صفوة المثقفين يرحب بالمنجمين ترحيبه بعلماء الإنسانيات .

راعتقد الناس أن الملائكة تهدى النجوم ، وأن الهواء يزخر بالأرواح - الخفية ، بعضها من الجنة وبعضها من الجحيم . وسكنت العفاريت كل مكان وبخاصة فى مخدع الإنسان ، وينسب إليها بعض الرجال ما يسلب منهم بالليل كما نسب إليها بعض النساء ما يصيبهن من حمل فى غير أوانه ، وأجمع علماء الدين على أن أمثال تلك الخطيات الخبيثات لئن وجود حقيقى ويستطيع كل امرئ ساذج فى كل منعطف وكل لحظة أن يخرج من عالم الحس إلى مملكة من الكائنات والقوى المسحورة . ولكل شئ طبيعى صفات خارقة . وكانت كتب السحر من أروج الكتب فى ذلك العصر . ولقد عُدب أسقف كاهورز وجلد وألقى به فى المحرقة (١٣١٧) بعد أن اعترف بأنه أحرق تمناً من الشمع للبابا يوحنا الثانى والعشرين آملاً أن يلقى الأصل ، مصير الشمع ، كما وعد بذلك فن السحر . واعتقد الناس أن فطير القربان بتقديس القسيس ينزف دم المسيح إذا خدش .

وخبت شهرة الكيماويين ، ولكنهم استمروا في أبحاثهم الأمانة
وخدعهم البراقة على السواء وفي الوقت الذي أنكرتهم فيه المراسيم الملكية
والبابوية فقد أقنعوا بعض الملوك بأن الكيمياء قد تفعم الكنوز متى نصبت ،
وكان السذج يبتلعون « الذهب المذاب » الذي أكد لهم أنه يشفى كل شيء
إلا الغفلة (ولا يزال المرضى والأطباء يتعاطون الذهب في علاج داء
المفاصل) . .

ونافس علم الطب في كل خطوة من خطواته ، التنجيم وعلوم الدين
والدجل . ونسب جميع الأطباء تقريباً تشخيص مرض من الأمراض إلى
البرج الذي ولد أو مرض فيه المريض ، وهكذا كتب الجراح العظيم جى
ده شولياك (١٣٦٣) : « إذا جرح امرؤ في عنقه والقمر في برج الثور ،
فالإصابة خطيرة » ومن أقدم الوثائق المطبوعة ، تقويم نشر في مينز (١٤٦٢)
يبين أحسن الأوقات من ناحية طوالع النجوم لفصد الدم . ونسبت الأوبئة
بين جمهرة الناس إلى اجتماع سيئ الطالع بين النجوم . وأرجع ملايين
المسيحيين ، الشفاء إلى العقيدة وربما كان ذلك نخبة أملمهم في الطب .
وذهب آلاف إلى ملوك فرنسا وإنجلترا يستشفون من الدرن الخنزيري
بلمسة ملكية ويبدو أن هذه العادة قد بدأت بلويس التاسع الذي أدت
قداسته إلى الاعتقاد بقدرته على عمل المعجزات . وظن الناس أن قوته ،
قد انتقلت منه إلى خلفائه ، كما انتقلت عن طريق ايزابلا أميرة فالوا ،
وهي أم إدوارد الثالث ، إلى ملوك إنجلترا . وحج آلاف أكثر إلى أضرحة
تشفى المرضى ؛ وحولوا بعض القديسين إلى أطباء متخصصين ، وهكذا
اكتظت كنيسة القديس فينوس بالمصابين بداء الرقص الزنجي : إذ ساد
الاعتقاد بأن هذا القديس متخصص في علاج هذا المرض وأصبح قبر
بيرده لكسمبورج : وهو كاردينال مات في الثانية عشرة من عمره بسبب
غلوائه في الزهد ، مزاراً محبباً ، ونسب شفاء ألف وتسعمائة وأربعة وستين

شخص إلى قدرة عظامه السحرية . وذلك في خلال خمسة عشر شهراً من وفاته . وراجت صناعة الدجالين ، ولكن القانون بدأ يقاومهم . ففي عام ١٣٨٢ حكم على روبرت كيرك ، الذى ادعى علاج المرضى بالرقى ، أن يسير في شوارع لندن ركباً وقد علقت المبال حول عنقه .

واعتقد معظم الأوربيين في السحر ، أو بعبارة أخرى ، في قوة بعض الأشخاص على التحكم في الأرواح الشريرة والحصول على معاونتها — لقد كانت القرون المظلمة متنورة نسبياً في هذه الناحية . ولقد أنكر القديسان بونيفاس واجوبارد الاعتقاد في السحر باعتباره ذنباً وعملاً يوجب السخرية ، وجعله شارلمان جريمة يعاقب بمقتربها بالإعدام وكان يشق كل شخص يتهم بصناعة السحر ، وحرم البابا جريجورى السابع هلدبراند ، على محكمة التفتيش ، أن يحاكم السحرة على أنهم السبب في العواصف والطواعين . ولكن تأكيد الوعظ لحيثية جهنم ومكائد إبليس أذكى الاعتقاد الشعبي في وجود الشيطان وشره في كل مكان أو وجود أحد أعوانه ، وكم من عتل مريض أو نفس يائسة اعتصمت بفكرة استحضر أفعال هذه الشياطين لمعاونتها . واتهم بالسحر أنواع شتى من الناس ، يدخل فيهم البابا بونيفاس الثامن . ولقد شق الرجل الإستقراطى انجراند ده مارينى بتهمة السحر عام ١٣١٥ ، وأمر البابا جون الثانى والعشرون عام ١٣١٧ بتمثيل عدد من الأشخاص غير المعروفين ، لأنهم دبروا اغتياله مستعينين بالشياطين . وأنكر جون ماراً اللجوء إلى الشياطين وأمر باضطهاد من يقترفه ، وفرض العقوبات عليه ، ولكن الناس فسروا مراسيمه بأنها تؤيد اعتقادهم في وجود القوى الشيطانية وإمكان الانتفاع بها . وتضاعف الاتهام بالسحر بعد عام ١٣٢٠ ، وشق كثير من المتهمين أو ألقى بهم في المحرقة . وساد في فرنسا الرأى القائل بأن شارل السادس قد أصيب بالجنون بوسائل سحرية ، واستخدم ساحران لإعادة العقل إليه ، فلما أخفقا . جز رأساهما (١٣٩٧) .

وفي عام ١٣٩٧ أصدرت كلية أصول الدين بجامعة ياريس ، ثمانية وعشرين مقالة تحرم السحر ، وإن اعترفت بقدرته بين حين وآخر . وعد قاضي القضاة جرسون أن من الهرطقة أن يناقش المرء وجود الشياطين أو نشاطها .

أما الكهانة فهي ممارسة السحر بوساطة أشخاص نسبوا إلى عبادة إبليس باعتباره كبير الشياطين الذين يعملون على استخدامهما في اجتماعات ليلية أو سبئية . ويذهب الاعتقاد الشعبي إلى أن السحرة ، وأغلبهم من النساء يزودون بقوى خارقة في مقابل عبادتهم لإبليس . وانتدابهم على هذا الوجه يجعلهم يسيطرون على النواميس الطبيعية ، ويجلبون النحس أو الموت لمن يريدون . رأيد علماء أمثال ارازمس وتوماس مور وجود الكهانة في الواقع ، وشك فيها بعض القسس في كلونيا ، وأيدت وجودها جامعة كلونيا . وزعم معظم رجال الكنيسة - ويوافقهم في ذلك بعض المؤرخين من غير رجال الدين إلى حد ما - أن الاجتماعات السرية بالليل إنما هي تعلات لعلاقات جنسية مخنطة ولتحرير الشباب على الفسق . واعترف بعض السحرة اعترافاً مزعوماً لشخص أو لآخر بالأعمال الشريرة التي أسندت إليهم ، وذلك إما بوساطة وهم مخبول ، وإما للتخلص من التعذيب ، ولعل هؤلاء السحرة الشعبيين قد قاموا بما يشبه التحذير النهائي لمسيحية مثقلة ، وبزعة ترفيفية من ناحية ومتمردة من ناحية أخرى لعبادة إبليس باعتباره العدو القوي لإله يحكم على كثير من المباهج بالكبت وبلق بكثير من الأرواح في اللحيم ، وقد تذكر هذه الشعائر الخفية وتؤكد من جديد العقائد في الأعياد الوثنية لألهة الأرض والحقل والغابة الخاصة بالتناسل والإنخصاب أمثل باخوس وبريابوس وسيريس دفلورا .

واجتمعت جهود الأوساط المدنية والدينية على قمع ما رأوه أكبر فساد وكفر . وانتدب عدد من البابوات - في الأعوام ١٣٧٤ و ١٤٠٩

و١٤٣٧ و١٤٥١ وبخاصة البابا انوسنت الثامن عام ١٤٨٤ - عملاء في محكمة التفتيش للتصرف مع السحرة باعتبارهم هراطقة منبوذين ، تصيب جرائمهم ووسائلهم الثمرات والأرحام بالأذى ، وقد تحول مزاعمهم جماعات بأسرها إلى الشيطنة واعتمد البابوات اعتمادا حريا على آية في سفر الخروج (الأصحاح ٢٢ ؛ الآية ١٨) « لن تنزك ساحرة تعيش » . ومع ذلك فإن المجالس الكنسية قبل سنة ١٤٤٦ كانت تكنفى بالعقوبات المعتدلة إلا إذا كان المذنب السابق العفو عنه قد عاد إلى سابق إجرامه . ولقد أحرقت محكمة التفتيش عام ١٤٤٦ ، عددا من السحرة في هيلدبرج ، وأحرقت عام ١٤٦٠ اثني عشر رجلا وامرأة في أراس ، وأطلق عليهم الفودوا كما أطلق على الهراطقة (waldenses) وقام السحرة في فرنسا برحلة عبر الاطلنطي حتى أطلقت كلمة فودويزم voodooism على سحر الزوج في المستعمرات الفرنسية في أمريكا . وفزع جاكوب سبرنجر قاضي محكمة التفتيش الدومينيكي فزعا شديدا من انتشار السحر فأصدر عام ١٤٨٧ دليلا رسميا لمطاردة السحرة عنوانه : « مطرقة السحرة » . وقدم مكسميليان الأول وكان إذ ذاك ملك الرومان لهذا الدليل برسالة تقرّض قال فيها أعظم أثر هائل ضد الخرافة أنتجه العالم . وقال سبرنجر إن هؤلاء النسوة الشريرات بتقاييب خيرة شيطانية في قدر أو بوسائل أخرى ، يستطعن إحضار أسراب من الجراد والديدان لتلهم محصولا كاملا ، وهن يستطعن أن يصبن الرجال بالعمق ويجعلن النساء عقيمات ، ويغضن لبن المرضع أو يجهن الحامل ، ويستطعن بنظرة واحدة فقط أن يجلبن الحب أو الكراهية ، المرض أو الرفاة . ويخطف بعضهن الأطفال ويشوينهم ويأكلونهم . ويستطعن رؤية الأشياء عن بعد ويتنبأن بالحو ، وفي إمكانهن أن يحولن أنفسهن أو غيرهن إلى حيوانات . وأبدى سبرنجر ، دهشته لماذا يفوق الساحرات عدد السحرة من الرجال ، وختم بحثه بقوله إن ذلك لأن النساء أخف رؤوسا وأكثر

شهوة من الرجال ، وأضاف أنهم ، إلى هذا كله ، وسائل محبوبة دأمة لإبليس . ولقد أحرق ثمانية وأربعين منهم في مدى خمس سنوات . ومنذ عهده ، زاد هجوم رجال الدين على صناعة السحر حتى بلغ أوجه في القرن السادس عشر ، في كنف الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، وبهذا الضرب من العنف الهائل تفوقت الأزمنة الحديثة ، على العصور الوسطى . وفاخر أحد موظفي محكمة التفتيش عام ١٥٥٤ ، بأن محكمة التفتيش ، قد أحرقت ثلاثين ألفاً من السحرة على الأقل ، وإذا تركوا بلا عقاب فقد ينزلن الخراب بالعالم كله .

ولقد ألقت كتب كثيرة في هذا العصر لمحاربة الخرافات وتحتوى كلها على خرافات . ووجه أجوستينو ترينفو إلى البابا كلمنت الخامس ، رسالة بنصحه أن يحرم السحر الخفى ولكن ترينفو رأى أن الطبيب لا يغتفر له أن يجرى فصادا في مراحل معينة من أوجه القمر . ووجه البابا جون الثانى والعشرون ضربات قاسية للكيمياء (١٣١٧) والسحر (١٣٣٧) ، ونعى ما ظنه انتشارا متزايدا لتقديم القرابين إلى الشياطين ، وأخذ العهد على إبليس وصناعة التماثيل والخواتم والأمزجة للأغراض السحرية ، وأصدر قراراً تلقائياً بالحرمان ضد جميع الذين يمارسون هذه القوانين ، ولكنه أضمر اعتقاداً في قدرتها .

وكان نيقولا أرزم هو الخصم العنيد للتنجيم في ذلك العصر ، وقد توفى وهو أسقف ليزبوه عام ١٣٨٢ . وسخر من المنجمين ، الذين لا يستطيعون تحديد جنس الطفل قبل ولادته وإن زعموا أنهم يستطيعون التنبؤ بمصيره على الأرض بعد ولادته ، وقال أرزم إن مثل هذه الطوابع حكايات يسردها الزوجات العجائز وكتب مرددا عنوان شيشرون وجهده قبل ذلك بأربعة عشر قرناً رسالة عن : « قراءة الغيب » في الرد على مزاعم العرافين ومفسرى الأحلام وأمثالهم . ولقد سلم وسط شكه في العلوم الخفية بصفة

عامة ، بأن بعض الأحداث يمكن أن تفسر بأنها من عمل الشياطين أو الملائكة . وقبل فكرة « عين الحسود » : وظن أن المجرم يعتم المرأة بنظره فيها . وأن نظرة الوشق^(١) قد تخترق الخائط . واعترف بالمعجزات التي في الكتاب المقدس ، ولكنه رفض التفسيرات الخارقة إذا كانت العال الطبيعية تكفي للتفسير وقال نيقولا : إن كثيرين من الناس يصدقون السحر لأنهم يفتقرون إلى معرفة العلل والتطورات الطبيعية . وهم يقبلون بالسماع ما لم يروه ، ولذلك قد تصبح أسطورة - مثل ساحر يتسلق حبلا ألقى به في الهواء - عقيدة شائعة (وهذه هي أول رواية تذكر فيها أسطورة تسلق الحبل) واحتج أرزم تبعاً لذلك بأن انتشار عقيدة ما ليس دليلاً على صدقها بل إذا شاهد كثير من الناس حادثة تناقض تجربتنا العادية للطبيعة فيجب أن ترد في تصديقهم . يضاف إلى ذلك أن الخواس من السهل خداعها فإن ألوان الأجسام وأشكالها وأصواتها تختلف تبعاً لمسافة أعضاء الخواس وأضوائها وحالاتها ، والجسم وهو ساكن قد يبدو متحركاً ، والمتحرك قد يبدو ساكناً ، وتبدو قطعة النمود الموضوعة في قاع قنينة مملوءة بالماء ، أبعد منها في قنينة فارغة . ويجب أن تفسر الأحاسيس بالفعل ، وهذا أيضاً عرضة للخطأ ويقول أرزم ، إن خدع الخواس والفعل تفسر كثيراً من الأعاجيب التي تنسب إلى القوى الخارقة أو السحرية .

وعلى الرغم من هذا التقدم الجريء نحو الروح العلمي ، فإن الخرافات القديمة بقيت أو عدلت أشكالها فحسب . ولم تكن مقصورة على الدهماء . فقد دفع إدوارد الثالث ملك إنجلترا مبلغاً باهظاً من المال للحصول على قارورة ، كان على يقين من أنها من مخلفات القديس بطرس وعرضت على شارل الخامس ملك فرنسا في سانت شابلن : قارورة ، قيل إنها تحوى بعض

(١) الوشق : حيوان أصغر من الفهد قصير الذيل .

دم المسيح وسأل حكماءه. وعلماء الدين عنده عن صحتها ، فردوا متحفظين بالإيجاب . وفي هذا الجو جاهدت التربية والعلم والطب والفلسفة لتنمو .

٢ - المعلمون

إن نهضة التجارة والصناعة قد أضفت أهمية جديدة على التعليم . وإذا كانت معرفة القراء والكتابة تعد ترفاً غالى الثمن فى نظام زراعى فإنها تعتبر ضرورة لا غنى عنها فى عالم المدينة الذى تغلب التجارة عليه . وقد أقر القانون أخيراً هذا التجول ، ذلك أن ملاك الأرض الإقطاعيين فى إنجلترا التمسوا عام ١٣٩١ من ريتشارد الثانى تأييد القانون القديم الذى يحرم على رقيق الأرض أن يرسل ابنه إلى مدرسة دون أن يحصل على موافقة سيده ويقضى بتعويض المالك عن العجز فى الأيدى العاملة بالمزرعة . ورفض ريتشارد هذا الالتماس ، أما فى عهد خلفه فقد صدر قانون يسمح لأى رجل بأن يرسل من يشاء من أولاده إلى المدرسة . وفى ظل هذا القانون الذى أطلق حرية التعليم تضاعف عدد المدارس الأولية فى حين بقيت فى الريف المدارس التى يشرف عليها الرهبان . أما فى المدن فإن الكنائس والمستشفيات والبيع والطوائف الحرفية كانت تمول المدارس الكبيرة وكان الالتحاق بها اختيارياً بعد أنه شاع حتى فى القرى .

وكان المعلمون فى العادة من القسس ولكن نسبة المعلمين من غير رجال الدين ارتفعت فى القرن الرابع عشر . وكان برنامج الدراسة يركز على الوعظ : والعقيدة الدينية والصلوات الأساسية والقراءة والكتابة والحساب والغناء والجلد بالسياط ، ولقد كان هذا الجلد بالسياط عماد التعليم حتى فى المدارس الثانوية وفسر أحد رجال الدين ذلك بقوله : « يجب قمع أرواح الأولاد » . وسلم معه الآباء بذلك وربما كان الأمر على هذا النحو . ولقد حثت أجنس باستون مربى ابنها الخامل قائلة : « اجاده ، إذ لم ينصالح حاله : فأنا أؤثر أن يدفن حياً على أن أراه يضيع بسبب الإهمال » .

تابعت المدارس الثانوية سياسة التربية الدينية وأضافت إليها قواعد اللغة وكانت لا تشمل النحو والصرف والإنشاء فحسب ، بل كانت تشمل اللغة أيضاً كما أنها هذبت أدب روما الكلاسيكى وتعلم الطلبة من أبناء الطبقة المتوسطة قراءة اللاتينية وكتابتها وإن كان هذا قد حدث بلا اكتراث وذلك باعتبارها من الضروريات للأشتغال بالتجارة الخارجية والعمل بالكنيسة . وكانت أحسن المدارس الثانوية إبان ذلك العهد تلك التى أنشأها فى هولندا وألمانيا إخوان « الحياة المشتركة » وكان بمدرسة ديفنتر ألفا طالب . وكان لويليام الأوكهامى ، أسقف ونشستر الثرى المقدام فضل السبق فى إنشاء أولى المدارس العامة فى إنجلترا وهى معاهد تعتمد على الإعانات التى تتلقاها من الأفراد والهيئات العامة لتزود عدداً محدوداً من الأولاد بالمعلومات وتعدهم للالتحاق بالكلية . وحذا هنرى السادس حذوه فأسس عام ١٤٤٠ مدرسة ايتون ومُنحت الكثير من المال لإعداد الكبار وللالتحاق بكلية الملك بكمبردج .

وكان تعاليم النساء ، اللهم إلا بعض كريمات العقائل ، مقصوراً على البيت بعد المرحلة الابتدائية . وتعلم كثير من نساء الطبقة الوسطى مثل مارجريت باسرتون كتابة الإنجليزية السليمة وألم بضع نفر من النساء بالأدب والفلسفة . أما أبناء الطبقة الأرستقراطية فقد تلقوا تعليماً يختلف عما يلقن فى المدارس إذ كانوا حتى سن السابعة يدرسون على يد نساء البيت ثم يرسلون للعمل كوصفاء عند نبيل من الأقرباء أو الجيران وهناك بعيداً عن التأثير بالإفراط فى المحبة يتعلمون القراءة والكتابة والدين وقواعد السلوك من السيدات والقس المحلى وفى سن الرابعة عشر يصبحون تابعين أى خدما كبارا لسيدهم . وفى ذلك الوقت يكونون قد تعلموا ركوب الخيل والرماية والصيد والمقارعة والقتال . أما سعة الاطلاع فقد تركوها لأتباعهم .

وفى غضون ذلك كانت هذه تطورت تراثا من أعظم ما ورثوه من العصور الوسطى وهو — الحمامات — وفى الوقت الذى خمد فيه أوار الحماسة

للعلماء الكنسية اشتدت حدة الحماسة لإنشاء الكليات وفي هذه الفترة شهدت أكسفورد لإنشاء كليتي أكستر وأورييل وكلية الملك والكلية الجديدة وكليات لنكولن وأول سولز وماجدالين وبراسينوز وكليات الجسد الطاهر ومدرسة اللاهوت . ولم تكن عندئذ كليات بالمعنى الحديث للكلمة بل كانت قاعات . أو أماكن يقيم فيها عدد مختار من الطلبة وكان يعيش فيها أويكاد عشر الطلبة في أكسفورد وكان رجال الدين يدرسون معظم المواد بالجامعة في فصول دراسية أو في قاعات للمحاضرات متناثرة في أنحاء المدينة . وتمسك الرهبان البندكتيون والفرنسيسكان والدومينيكان وغيرهم من طوائف الرهبان بكلياتهم المعهودة في أكسفورد وتخرج من هذه الكليات الملحمة بالأديرة نفر من ألع الرجال في القرن الرابع عشر ، من بينهم دونزسكوتوس وويليام الأوكهامي وكلاهما ألحق بعض الضرر بدراسة اللاهوت الأرثوذكسي وكان الدارسون للتمانون يتلقون تدريهم في لندن . في خانات الخاكم وفي أكسفورد لم يكن هناك تعاطف بين سكان المدينة وبين الطلبة في الكليات — أى بين المواطنين وطلاب العلم . فتمد حدث في عام ١٣٥٥ أن اندفع المعسكران المتعاديان إلى حرب مكشوفة وقتل كثير من الأبطال حتى عرف هذا العام باسم عام « المذبحة الكبرى » .

وعلى الرغم من إدخال عقوبة الجلد بالسياط في جامعات إنجلترا (عام ١٣٥٠) فإن الطلبة كانوا فئة مشاغبة وإذا كان قد حرم عليهم ممارسة الألعاب الرياضية داخل جدران كلياتهم فإنهم عددوا نشاطهم في الجون واحتساء الخمر والصيد والتمنص وكانت الخانات والمواخير تلقى رواجاً بفضل رعايتهم . وانخفض عدد الملتحقين باكسفورد من ذروته في القرن الثالث عشر إلى نحو ألف وبعد طرد ويكلييف تقلصت الحرية الأكاديمية بشدة الرقابة الأسقفية .

ولقد أفادت كبردج من الخلاف مع ويكلييف ومن الفرع من اللولارد

فنع المحافظون المزمعون أولادهم من الالتحاق باكسفورد وبعثوا بهم إلى الجامعة الصغرى ، وعلى هذا فإنه ما أن أشرف القرن الخامس عشر على الانتهاء حتى كان عدد الطلبة المقيدين بالجامعتين المتنافستين متساويا . وأنشئت قاعات جديدة في كامبردج : مايكل هاوس ويونيفرسيتي أوكلير وجبروك وجونفيل وكايوس وترينتي وكوريس كرسيتي وكيمجز وكويدة وسانت كاترين وجيزوس وكريست وسانت جون . وقد أصبحت هذه كليات بالمعنى المفهوم عندنا — مثل قاعات الإقامة في أكسفورد إبان القرن الخامس عشر لأن عدداً متزايداً من المعلمين آثروها ورأوا أنها أصلح الأماكن التي تجتذب محاضراتهم فيها أكبر عدد من المستمعين وكانت الفصول تبدأ في الساعة السادسة صباحاً وتستمر حتى الساعة الخامسة بعد الظهر .

وفي غضون ذلك أنشأت اسكتلندا وأيرلندا بدافع من فقرهما جامعات سانت اندروز وجلاسجو وأبردين وكلية ترينتي والمعاهد الأربعة في دبلن التي شاعت الأقدار أن تصب العبقريّة ، جيلاً بعد جيل ، في الحياة الفكرية في الجزر البريطانية ، أما في فرنسا فقد عانى التعليم — مثل أي شيء آخر — من حرب المائة عام ومع ذلك فإن الإقبال المتزايد على المحامين والأطباء بالإضافة إلى ما يحبب الناس في الوظيفة الدينية قد شجع على إنشاء جامعات جديدة في أفينيون Avignon وأورليانز وكاهور وجرينوبل وأورانج واكس آن بروفانس وبواتييه وكانوبوردو وفالانس نانت وبورج . وأصبحت جامعة باريس في القرن الرابع عشر قوة وطنية تتحدى البرلمان وتزجي النصيح للملك وتعمل كمحكمة استئناف في شرح علم اللاهوت الفرنسي واعترف معظم المشتغلين بالتعليم في القارة الأوروبية بأنها جامعة « كون الأكوان » Universitas universitatis ، ولعل هذا يرجع إلى أن الملكية كانت توشك على الانهيار . وأدى ارتفاع شأن الجامعات الإقليمية والأجنبية إلى قلة عدد الطلبة المقيدين في جامعة باريس بل إن كلية الآداب وحدها اشتهرت بأها

تضم ألف مدرس وعشرة آلاف طالب في عام ١٤٠٦ ، وكان بالجامعة كلها عام ١٤٩٠ ما يقرب من عشرين ألفاً . عاوت على إيوائهم نحو خمسين كلية . وكان النظام هناك أقل صرامة عما هم عليه في أكسفورد والأخلاق التي تمتدح في الطلبة قد آثرت رجولتهم لا دينهم . وأضيفت إلى المنهج الدراسي برامج في اللغات الإغريقية والكلمية والعبرية .

وأنشأت أسبانيا جامعاتها الرائدة في القرن الثالث عشر في بالانسيا وسلمتقة ولاردة وارتفع شأن جامعات أخرى في برايبجنان ووشقة وبلد الوليد وبرشلونة وسرقسطة وبالم وسيقونرا وبلنسية والقلعة وإشبيلية . وخضعت هذه المعاهد لرقابة دينية صارمة وكان لعلم اللاهوت المقام الأول فيها . ومهما يكن من أمر ، فقد خصص في جامعة القلعة أربعة عشر كرسيًا (أستاذية) لعلم النحو والصرف والأدب والبلاغة واثنًا عشر كرسيًا لللاهوت والقانون الكنسي ، وظلت جامعة القلعة فترة ما أعظم مركز تعليمي في أسبانيا ، وفي عام ١٥٢٥ كان عدد الطلبة المقيدين بها سبعة آلاف . وقدمت المنح للطلبة المعوزين وكان ويتحكم في مرتب الأستاذ عدد طلابه . وكان يطلب من كل أستاذ أن يستقيل كل أربع سنوات ولا يكون صالحاً للتعين من جديد إلا إذا كان عمله مرضياً . وفي لشبونة وفي عام ١٣٠٠ أنشأ الملك دينيز جامعة ولكن شغب الطلبة جعله ينقلها إلى كويمبرا ولا تزال هذه الجامعة من مفاخرها حتى اليوم .

وكانت الحركة الفكرية في هذه الفترة بأوروبا الوسطى أقوى منها في فرنسا أو أسبانيا ، فقد أنشأ شارل الرابع عام ١٣٤٧ جامعة براغ التي سرعان ما تزعمت الحركة الفكرية لشعب بوهيميا وغدت لسانها الناطق . وظهرت جامعات أخرى في كراكوفينا وبيكس وجنيف وارفورت وهایدلبرج وكولونيا وبودا ، وفورتسبرج وليبتسيج وروستوكولوفين وترير وفرايبورج — أم — برايسجاو وجريفسفالد وبازيل وأنجولشتادت وبرسبورج وبمايز

وتوبنجن وكوبنهاجن وأوبسالا وفرانكفورت — آن — أودر وفيتنبرج .
وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر كانت هذه المعاهد تعج بأفواج
الطلاب والمناظرات . وكان في كراكو وحدها ١٨٣٣٨ تلميذاً في آن واحد
وكانت الكنيسة تقدم معظم المال ومن الطبيعي أن يطلق عليها لحن الفكر ،
ولكن الأمراء والنبلاء والمدن ورجال الأعمال أسهموا في التبرع للكتليات
وتقديم المنح الدراسية . فقد زود الأمير فريدريك صاحب ساكسونيا
جامعة فيتنبرج جزئياً بالمال المحصل من بيع صكوك الغفران والذي رفض
أن يرسله إلى روما . وأنشئت لفلسفة الكلام كراسى أستاذية في الفلسفة
بينما ارتقى شأن العلوم الإنسانية خارج أسوار الجامعة ولذلك انضمت معظم
جامعات ألمانيا إلى الكنيسة إبان عهد الإصلاح الديني باستثناء جامعتين
مهمتين : ارفورت التي درس فيها لوثر وفيتنبرج التي كان يدرس بها .

العلماء

كان المزاج العلمي لا يكاد يشيع بين جهابذة العلماء أكثر مما يشيع
بين عامة الناس . وكانت روح العصر تميل إلى « الإنسانية » بل إن
حركة إحياء الدراسات الإغريقية تجاهلت علم الإغريق . وفي مجال الرياضيات
وقفت الأرقام الرومانية حجر عثرة في سبيل التقدم ، وبدأ أنها لا تنفصل
عن الثقافة اللاتينية ثم إن الأرقام الهندية العربية ظهرت وكأنها بدعة إسلامية
وقوبلت بعدم اكتراث وبخاصة شمال الألب . وقد استخدم ديوان المحاسبة
 وإدارة حسابات الحكومة الفرنسية الأرقام الرومانية السمجة حتى القرن
الثامن عشر . ومع ذلك فإن توماس برادواردين الذي مات بوباء الطاعون عام
١٣٤٩ بعد مرور شهر من تكريسه كبيراً لأساقفة كنتربري — أدخل إلى
انجلترا عسدة نظريات عربية في حساب المثلثات وكان تلميذه ريتشارد
والنجفورد رئيس دير سانت ألبان عالماً رائداً من علماء الرياضيات في القرن
الرابع عشر . وكتابه « الجزء الرابع من شرح الجيب » أول مؤلف كبير في

حساب المثلثات في أوربا الغربية ، وقد مات بالهندام في الثالثة والأربعين وهو يأسف على الوقت الذي اختلسه من اللاهوت للعلم .

وكان نيكول أريزم من أنشط رجال الدين ومع ذلك فإنه اقتحم بنجاح مجال اثني عشر علما ومهد الطريق إلى الهندسة التحليلية بتطوير الاستخدام المنهجي للأحداثيات وباستعمال الخطوط البيانية لإيضاح زيادة الدالة . وقد لعب بفكرة البعد الرابع ولكنه نبذها . وهو مثل الكثيرين من معاصريه أشار إلى قانون جاليليو الذي يقول إن سرعة الجسم الساقط تزايد بانتظام طوال الفترة التي يستغرقها في سقوطه ، وفي تعليق على كتاب أرسطو ، كتب يقول : إننا لا نستطيع أن نثبت بأى تجربة أن السماء تتعرض لحركة يومية وأن الأرض لا تتعرض لها فثمة أسباب وجيهة تدل على أن الأرض وليست السماء تتعرض لحركة يومية . وقد لجأ أورزم إلى النظام البطليموسى وإن كان قد أعان على الإعداد لنظرية كوبرنيكوس .

وعندما نذكر أنه في ذلك الوقت لم يكن يوجد منظار مقرب ولا آلة تصوير ليرصد المرء بهما السماء أو يسجل ما يحدث فيها فإنه من الأمور المشجعة أن نسجل مقدرة وذكاء الفلكيين من المسلمين واليهود والمسيحيين في العصور الوسطى . وقد وصف جان دى لينيه ، بعد سنوات من مشاهداته الشخصية ، أوضاع ثمان وأربعين نجما بدقة لا يضارعه فيها سوى المسلمين وحسب ميل دائرة البروج في حدود سبع ثوان عن أحدث تقدير . وعرض جان دى مير وفيرين دى بوفال (١٣٤٤) إصلاح التقويم اليولياني الذي كان يسبق الشمس - بحذف اليوم التاسع والعشرين من فبراير كل أربعة أعوام خلال الأربعين سنة التالية (التي كان يمكن أن تخطئ بالزيادة) . وقدر لهذا الإصلاح أن ينتظر حتى عام ١٥٨٢ ولا يزال في انتظار تفاهم دولي وإخلاص متبادل .

ولقد خالص ويليام ميرل علم الرصد الجوى من علم الفلك بتسجيل
الطقس خلال ٢٥٥٦ يوما . واكتشف راصدون وملاحون مجهولون خلال
القرن الخامس عشر انحراف الإبرة المغناطيسية : فهى لا تشير إلى الشمال
تماما بل تميل نحو خط الزوال الفلكى بزاوية صغيرة وإن كانت مهمة وهى
كما لاحظ كولبس تختلف من مكان إلى مكان . وأعظم شخصية بين علماء
الرياضيات والفلك فى هذا العهد جوهان مولر المعروف فى التاريخ باسم
رجيو مونتانوس منذ مولده عام ١٤٣٩ قرب كنيجزبرج فى فرانكونيا
السفلى . وقد التحق فى الرابعة عشر بجامعة فيينا حيث كان جورج فون
بورباخ يتقدم الإنسانيات وآخر ما وصل إليه الإيطاليون فى الرياضة والفلك
وكلا الرجلين بلغ سن النضج مبكراً ومات فى سن غضة : فقد مات بورباخ
فى الثامنة والثلاثين ومولر فى الأربعين . وصمم مولر على أن يتعلم اليونانية
لكى يقرأ كتاب : « المجسطى » فى الفلك لبطليموس بلغته الأصلية فذهب
إلى إيطاليا ودرس اليونانية على يد جوارينو دى فيرونا واتهم كل النصوص
التي وقعت فى يده سواء كانت باليونانية أو باللاتينية عن الفلك والرياضيات
ثم عاد إلى فيينا وهناك قام بتدريس هذه العلوم بنجاح حتى لقد استدعاه
ماتياس كورفينوس إلى بودا ثم انطلق إلى نورمبرج حيث بنى له أحد أغنياء
الطبقة المتوسطة أول مرصد أوروبى وجهزه مولر بآلات أقامها أو حسنها
بنفسه . وإنا لنحس بنسيم العلم النقى فى خطاب كتبه إلى زميل له من علماء
الرياضة عام ١٤٦٤ : « لست أدرى متى يتوقف قللى . إنه سوف
يستهلك كل أوراقى إذا لم أتوقف عن الكتابة . إن المسائل تخطر لى واحدة
إثر الأخرى وكثير منها جميل بحيث أتردد أيها أضع بين يديك » . وفى
سنة ١٤٧٥ استدعاه سكستوس الرابع إلى روما لإصلاح القويم وهناك مات
جيو مونتانوس بعد عام .

وقد حدث حياته القصيرة من منجزاته . ووضع تخطيطا لمؤلفات فى
الرياضيات والطبيعة والتنجيم والفلك، وكان يأمل أن يشرف على نشر القديم

من تلك العلوم . ولم تجد طريقها للوجود والبقاء إلا شذرات من هذه الأعمال وقد أكمل خلاصة « المجسطية » لبورباخ وألف مقالا بعنوان « في المثلثات » De triangulis ، وهو أول كتاب خصص لحساب المثلثات وحده . ويبدو أنه كان أول من رأى استخدام المماسات في الحسابات الفلكية وسهلت جداوله عن جيوب الزوايا وظلالها الحسابات الفلكية لكوبرنيكوس . ووضع جداول فلكية تمتاز بدقة لا نظير لها في الجداول التي وضعت من قبل . وأثبتت طريقته في حساب درجات الطول والعرض أنها نعمة وبركة لأجيالنا .

وأصدر عام ١٤٧٤ تقويمياً بعنوان : « اليوميات » Ephemerides أوضح فيه الوضع اليومي للكواكب السيارة خلال الأعوام الاثنتين والثلاثين القادمة ومن هذا الكتاب تنبأ كولمبس بنحسوف القمر الذي سيملاً بطون رجاله الجلاء في اليوم التاسع والعشرين من شهر فبراير عام ١٥٠٤ .

وقد وضعت الملاحظات التي أبداها ريجيومونتانوس ، عن مذنب هالي أسس علم الفلك الحديث الخاص بالمذنبات . ولكن تأثيره الشخصي في حياته كان أعظم من تأثير كتبه فقد ساعدت محاضراته المشهورة على إحداث إشراقة ذهنية في نورمبرج في شباب دورر وإليه يرجع الفضل في شهرة المدينة بآلاتها وخرائطها الملاحية . ولقد رسم أحد تلاميذه ، مارتن بهام بالألوان على الرق أقدم كرة أرضية معروفة عام ١٤٩٢ وهي لا تزال محفوظة في المتحف الألماني لنورمبرج .

ولا تدين الجغرافية الحديثة بوجودها للمتخصصين في هذا العلم بقدر ما تدين للبحارة والتجار والمبشرين والمبعوثين والجنود والحجاج . وقد استخدم ربابنة السفن الاسبان من قطالونيا خرائط ممتازة وكان دليل الربان لمواني البحر الأبيض المتوسط الذي كانوا يستخدمونه في القرن الرابع عشر لا يقل دقة عن خرائط الملاح في عصرنا . ولما كانت الطرق التجارية للشرق قد

سقطت في أيدي الترك فقد طور المستوردون الأوروبيون طرقاً برية جديدة تخترق أراضي المغول وبعد أن قضى أوديريك أف بوردنون الراهب الفرنسيسكاني ثلاث سنوات في بكين (١٣٢٣ - ١٣٢٦ م) كتب تقريراً إيضاحياً عن رحلته إلى الصين عبر الهند وسومطره وعن رحلة عودته عبر التبت وإيران . وروى كلافيجو - كما سنرى - قصة خلافة عز بعثته إلى تيمور . وأما جوهان شنيترجر البافاري الذي أسره الأتراك في نيكوبوليس عام ١٣٩٦ فقد قام بجولة استغرقت ثلاثين عاماً في تركيا وأرمينيا وجورجيا وروسيا وسيبيريا وكتب في مؤلفه « كتاب النهضة » *Reisebuch* أول وصف لسبيريا لكاتب من غرب أوروبا . وفي سنة ١٥٠٠ نشر جوان دي لا كوزا أحد ربابنة سفن كولمبس خريطة متسعة للعالم توضح لأول مرة بالرسوم الجغرافية استكشافات سيده وفاسكو دي جاما وآخرين . كانت الجغرافية دراما متحركة في القرن الخامس عشر ومن أعظم الرسائل أثراً في الجغرافية بصفة خاصة « صورة العالم » *che Imago mundi* (١٤١٠) للكاردينال ببيردابلي وهي التي شجعت كولمبس على القيام برحلته بوصفها المحيط الأطلسي بأنه يمكن عبوره في بضعة أيام إذا كانت الرياح موافية . وكان هذا الكتاب واحداً من ست مؤلفات كتبها هذا القسيس المجتهد في الفلك والجغرافية والأرصاد الجوية والرياضيات والمنطق وما وراء الطبيعة وعلم النفس وإصلاح التقويم والكنيسة : وعند ما وجه إليه اللوم لتخصيصه وقتاً طويلاً كهذا للدراسات الدنيوية أجاب بأن على رجل الدين أن يطلع دائماً على العلم بل إنه كان يرى أن في التنجيم شيئاً من العلم وعلى أسس من التنجيم تنبأ بأن المسيحية سوف تتعرض لتغيير كبير في خلال مائة عام كما تنبأ بأحداث تهز العالم في عام ١٧٨٩ .

وخير فكرة علمية في القرن الرابع عشر كانت في علم الطبيعة ويرجع الفضل إلى دبتريش أوف فرايبورج في أنه قدم لنا بالذات تفسيرنا الحديث

لقوس فزح وأنه يتكون نتيجة انكسارين وانعكاس واحد لأشعة الشمس من قطرات الماء . . . وبلان بوريدان مؤلف رائع في الطبيعة النظرية ومما يؤسف له أنه اشتهر بفضل حماره فحسب ولعله لم يكن صاحبه (١) . وقد ولد بوريدان قرب آراس قبل عام ١٣٠٠ وتلقى علومه ثم درس في جامعة باريس . وهو لم يعلل دوران الأرض اليومى حول الشمس فحسب بل إنه أسقط من علم الفلك المعارف الملائكية التي نسب إليها أرسطو وأكونياس مسار الأجرام السماوية وحركاتها وقال بوريدان : « لا حاجة بنا بعد اليوم إلى تفسير حركاتها أكثر من أنها بدأت تتحرك أصلا بإذن الله وبقانون قوة الدفع — أن أى جسم يتحرك يستمر في الحركة ما لم منعه قوة موجودة » . وهنا كان لبوريدان فضل سبق على جاليليو وديكارت ونيوتون . واستطرد قائلا إن حركة النجوم تحكمها نفس القوانين الآلية التي تتحكم في الأرض . وهذه الآراء التي تعد الآن رثة بالية كان لها أثر عظيم في هدم آراء الناس في العصور الوسطى . وهي تكاد تؤرخ لبداية الطبيعة الفلكية .

ونقل تلاميذ بوريدان آراءه إلى ألمانيا وإيطاليا وتأثر بها ليونارد وكوبرنيكوس وبرونو وجاليليو ثم حملها ألبرت أمير ساكسونيا إلى الجامعة التي أنشأها في فيينا عام ١٣٦٤ ونقلها مارسيلوس فون انجهن إلى الجامعة التي أسسها في هيدلبرج عام ١٣٨٦ وكان ألبرت أول من نبذ رأى أرسطو القائل أن الفراغ مستحيل ، وطور فكرة وجود مركز الجاذبية في

(١) لا توجد حكاية « حمار بوريدان » في أعمانه البتة ومع ذلك فهي رواية مأثورة من عصر خليق بالاحترام : ولعلها وردت في إحدى محاضراته . وقد أثبت جان أن الإرادة عند ما تواجد الاختيار بين أمرين تجب لزما عليها أن تختار ما يرى العقل أنه أكثر نفعاً . وعلى ذلك انتهى أحد الأذكيا إلى القول إنه لو وضع حمار جائع على بعدين متساويين من حزمتين من العلف ، شبتين ومتساويتين فإنه لن يجد سببا يعود إلى تفضيل إحدهما على الأخرى ، وإذا لم يكن هناك طعام آخر فإنه قد يهلك جوعاً .

كل جسم وسبق مبادئ جاليليو عن التوازن في حالة السكون والعجلة المنتظمة للأجسام الساقطة وتمسك بأن تعرية الجبال بسبب الماء وارتفاع الأرض التدريجي أو بعوامل بركانية تعد قوى معوضة في الجيولوجيا - وهي فكرة خلبت لب ليوناردو .

وأحرز علم الميكانيكا العملية بعض التقدم المتواضع واستخدمت الطواحين لموائية المعقدة لضخ الماء وصرفه من الأرض وطحن الغلال وللقيام بأعمال ومية أخرى . واستخدمت القوة المائية في الصهر والنشر وفي تشغيل منفاخ الفرن والمطارقة الميكانيكية وآلات غزل الحرير وكان المدفع يسبك ريثقب وكان الصلب يصنع بكميات كبيرة الحجم وأقيمت أفران الصهر العالية في أوروبا الشمالية إبان القرن الرابع عشر ونذكر الثاقب الحديد في سنة ١٣٧٣ وكان سحب الأسلاك يمارس في نورمبرج في القرن الخامس عشر ووردت صورة مضخة تتكون من دلاء مركبة على سلسلة لا نهاية لها في مخطوط عام ١٤٣٨ . وفي رسم للمهندس كونراد كيزر وهو من أتباع هس (١٤٠٥) ما توجد أقدم صورة معروفة للمحركة المترددة التي تتحول إلى حركة دوارة : ذراعان يتحركان على التعاقب ويديران في دقة استطاعة بنما تدوير المكابس عمود المحور لسيارة .

وكانت الحاجة ماسة إلى ميكانيكية أفضل لقياس الوقت لنمو حجم التجارة والصناعة : وقسم الرهبان والفلاحون النهار إلى عدد بعينه من الفترات في كل الفصول وجعلوا الفترات في فصل الصيف أطول منها في فصل الشتاء . وتطلبت الحياة في المدينة تقسيمات للوقت أكثر تجانسا فصنعت إبان القرنين الثالث عشر والرابع عشر ساعات حائط وساعات معصم يقسم فيها اليوم إلى أجزاء متساوية طوال العام . وفي بعض الأماكن كانت الساعات ترقم من واحد إلى أربع وعشرين كما يجري عليه العمل لضبط الوقت عند العسكريين في عصرنا . وفي أواخر عام ١٣٧٠ كانت

بعض الساعات الكبيرة مثل التي صنعت في سان جوتارد وفي ميلان تدق الرقم بأكمله . وقد ثبت أن هذا إسراف في الضجيج . وما أن حل عام ١٣٧٥ حتى كان اليوم مقسما بانتظام إلى نصفين كما منهما به اثنتا عشرة ساعة .

وكانت القاعدة الأساسية في الساعة الآلية ثقلا يدير عجلة ببطء ويتحكم في دورانها ترس له أسنان مقاومته كافية بحيث تسمح للعجلة بأن تدور بمقدار سن واحدة في فترة معينة من الزمن . ولقد وضعت هذه الساعة التي تقيس الوقت حوالى عام ١٢٧١ . وأقيمت أول ساعات آلية كبيرة في أبراج للكنائس أو قباب يمكن رؤيتها من مساحات بعيدة في أى مدينة . ومن أوائل هذه الساعات ماركب في دير سانت ألبانز على يد ريتشارد والنسفورد وكانت لاتبين الساعات والدقائق في اليوم فحسب بل كانت تبين أيضا الجزر والمد وحركات الشمس والقمر ، وأما الساعات التي صنعت فيما بعد فقد أضيف إليها مزيج من الأجهزة المبتكرة في الساعة الكبيرة في كاتدرائية ستراسبورج (١٣٥٢) وكان يظهر فيها ديك يصبح وثلاثة من الجيوس وتمثال شخص موضح عليه الوقت المناسب لحجامة كل عضو من أعضاء الجسم ، وكانت ساعة الكاتدرائية في ولز تستخدم صورة متحركة للشمس تشير إلى الساعة ونجما صغيرا يتحرك على دائرة داخلية ليبين الدقيقة ودائرة ثالثة تبين أى يوم في الشهر وعلى منصة فوق المزولة أربعة من الفرسان يبرزون ويهاجمون كلما دقت الساعة وفي إحدى الساعات التي صنعت في القرن الخامس عشر في فيينا كانت هناك رأس مهرج يفتح فمه الهائل ليلتهم تفاعية ذهبية من أحد الحجاج ولكنه لا يكاد يطبق عليها فسه حتى تختطف منه وكانت هذه الملهاة تمثل كل ساعة من ساعات اليوم خلال مئات الأعوام ولا تزال هذه الساعة موجودة . وقد أقيمت عام ١٥٠٦

ساعة مماثلة في نورمبرج وأوقفها الحرب العالمية الثانية بحفاء عن العمل
ثم استأنفت عروضها المسرحية في سنة ١٩٥٣ .

ولصنع الساعات الصغيرة استبدل بالثقل المعلق زنبرك حلزوني عام ١٤٥٠
شريط من الصلب الرقيق يلف على شكل حلقة صغيرة أو طارة وتحدث
بفكها تدريجيا الأثر الذي يحدثه الثقل على العجلة البطيئة : وما أن أشرف
القرن الخامس عشر على نهايته حتى أصبحت الساعات الصغيرة متوفرة
بعضها كبير في حجم الكف والبعض الآخر صغير في حجم اللوزة وكثير
منها كان يبيض الشكل مثل « بيض نورمبرج » التي صنعها بيتر هيل
(١٥١٠) وطبقت قاعدة الثقل والترس والعجلة لأغراض أخرى بحيث
أصبحت الساعة الآلية سببا في صنع عشرات الآلاف من الآلات المتعددة .

وبينا كان علم الطبيعة بشيرا بالثورة الصناعة كانت الكيمياء القديمة
تنمو ببطء في علم الكيمياء وفي نهاية هذا العصر كان الكيميائيون قد
اكتشفوا ووصفوا الزنك والبرموت والكبريت الحى وحجر الأثمد
(الأنثيمون) والفورين القلوى الطيار ومواد أخرى كثيرة وقطروا الكحول
وبخروا الزئبق وصنعوا حامض الكبريتيك بتسخين الكبريت وأعدوا الأثير
والماء الملكي وصبغة قرمزية تفوق المصبغات التي تستعمل الآن وأورثوا
علم الكيمياء الطريقة التجريبية التي أثبتت أنها أعظم ما وهبه علم العصور
الوسطى للعقل الحديث .

وكان علم النبات لا يزال في الأغلب مقصورا على كتيبات في الفلاحة
أولا يعدو كتابا يصف أعشابا ونباتات طبية . وكان من رأى هنرى أوف
هيس (١٣٢٥ - ١٣٩٧) أن أنوعا جديدة . بخاصة بين النباتات .
يمكن أن تتطور طيعيا عن أنوع قديمة وكان هذا رأيه قبل داروين
بخمسمائة عام . وليس من شك في أن إقامة معارض ملكية أو بابوية للوحوش

تربية الحيوانات والطب البيطرى وعجالات فى القنص أو صيد السمك
أو تربية النحل أو دود القز وحكايات خرافية أبطالها من الحيوانات تروى
نصصا منها ماله مغزى أخلاقى وكتبا فى فن رياضة الصقور مثل كتاب
رآة فيبوس (١٣٨٧) من تأليف جاستون الثالث كونت أوف فو ،
ند جمعت بلا قصد مادة لعلم الحيوان .

وكان لا بد للتشريح والفسولوجيا (علم وظائف الأعضاء) من
الاعتماد على تشريح الحشرات وعلى إصابات الجنود والحالات العرضية
التي يحتم فيها القانون إجراء تشريح لمعرفة سبب الوفاة . وكان المسيحيون
المؤمنون يحسون بأنهم على حق فى الاعتراض على تشريح جثث الآدميين
فالمفروض أنهم على الرغم من وفاتهم سيبعثون من القبور وأبدانهم سليمة
يوم الحساب ، وكان من الصعب الحصول على جثث لدراسة التشريح
خلال القرن الرابع عشر وأتيح لعدد قليل جداً من الأطباء شمال الألب
قبل عام ١٤٥٠ رؤية جثة بشرية بعد تشريحها ومع ذلك فإن جى دى
شولياك أقنع السلطات فى أفنيون عام ١٣٦٠ بأن تحول المدارس الطب جثث
المجرمين الذين ينفذ فيهم حكم الإعدام لإجراء تشريح لها . وكانت عمليات
التشريح تتم أمام طلبة الطب فى البندقية عام ١٣٦٨ وفى مونبلييه عام ١٣٧٧
وفى فلورنسا عام ١٣٨٨ وفى لاردة عام ١٣٩١ وفى فيينا عام ١٤٠٤ .
وشيدت جامعة بادوا عام ١٤٤٥ أول مشرحة معروفة وكانت النتائج
لأنهاية لها فى عالم الطب .

٤ — المعالجون

كانت أوروبا الشمالية متخلفة بنصف قرن أو أكثر عن إيطاليا فى علم
الطب وممارسته شأنها فى ذلك شأن الأدب والفن بل إن إيطاليا لما تصل ثانية
عام ١٣٠٠ إلى ما وصل إليه جالينوس وسورانوس فى الطب قبل ذلك بألف

عام ، ولكن مدارس الطب في مونييه وباريس وسمورد أحرزت تقدماً لا بأس به ، وكان أعظم الجراحين في هذا العصر من الفرنسيين . وكانت المهنة وقتئذ منظمة تماماً وتدافع بشدة عن امتيازاتها ولكن لما كان الطلب على العلاج يزيد كثيراً عن عدد الأطباء فإن تجار الأعشاب الطبية وبائعي العقاقير والقابلات والأطباء المتجولين والحلاقين والجراحين — ولا ضرورة لذكر أدعياء الطب — ناسوا في كل مكان الأطباء المتمرسين . وأما الجمهور الذي كان يصاب بالمرض بسبب المعيشة الخاطئة ثم يبحث عن تشخيص لا يخطئ وعلاج رخيص يتم به الشفاء في ليلة واحدة فقد كان يجار بالشكاوى المعتادة من الأطباء المترقة والسفاحين ورأى فرواسار أن « هدف كل رجال الطب أن يحصلوا على مراتب كبيرة » وكأن هذا لم يكن مرضاً متوطناً بالنسبة لكل الحضارات .

وكان أهم رجال الطب إبان هذا العصر الجراحين ولم يكونوا قد أقنعوا بعد الأطباء بالاعتراف بهم على قدم المساواة ، والحق أن جامعة باريس كانت لا تقبل طالبا في مدرسة الطب في القرن الرابع عشر إلا بعد أن يقسم أنه لن يجرى أية عملية جراحية . بل إن الحجامة التي أصبحت علاجاً لكل الأمراض حرمت على الأطباء وكانت تترك لتابعيهم . ولجأ الناس إلى الحلاقين لإجراء عمليات كثيرة إلا أن الحلاقين الجراحين كانوا إبان ذلك الوقت يهجرون ممارسة الحلاقة ويتخصصون في الجراحة ، وكان هناك أربعون من هؤلاء الحلاقين في باريس عام ١٣٦٥ ، وفي إنجلترا استمروا يزاولون المهنة حتى عام ١٥٤٠ . وصدر عام ١٣٧٢ قانون قصر عملهم في فرنسا على علاج « الجروح التي ليس من شأنها أن تسبب الوفاة » ولذلك فإن العمليات الكبيرة لا يمكن أن يجريها قانوناً إلا « أساتذة الجراحة » الإخصائيون ، وصدر عام ١٥٠٥ مرسوم بإنشاء كلية ملكية للجراحين في أدنبرة .

وأعظم المتخصصين في الجراحة في النصف الأول من القرن الرابع عشر هم هنرى دى موند فيل وجى دى شولياك ولعل فرواسار سجل أن موند فيل ظل فقيراً حتى آخر يوم في حياته على الرغم من أن أعماله كانت دائماً في رواج وأنه قام بعمله على الرغم من إصابته بالربو والسل . وقد استوعب كتابه « الجراحة » Chirurgia (١٣٠٦ - ٢٠) وهو أول مؤلف في الجراحة لفرنسى ، الميدان كله بإتقان وجدارة تبوأ بهما - الجراحون مكاناً مرموقاً وكان أعظم ما أسهم به تطبيق وتطوير طريقة تعلمها من تيودوريك بوجونيوفى في بولونيا لعلاج الجروح بالتنظيف الكامل ومنع التقيح وتسرب الهواء وعمل الضمادات بالنبيذ ، وقد دافع عن الطريقة التي ابتدعها بأن حذر من قبول رأى جالينوس أو غيره من الثقافات القديمة بلا مناقشة ، وكتب يقول مستخدماً صفة محبة في العصور الوسطى : « إن المؤلفين المعاصرين بالنسبة للقداى منهم يشبهون قزماً يركب فوق كتف عملاق فهو يرى كل ما يراه العملاق بل ويرى أبعد منه » .

وقد أنجب الجيل الذى جاء بعده أشهر الجراحين في العصور الوسطى وهو جى دى شولياك وهو من أصل رينى وولد في قرية ريفية أخذ منها اسمه ، وقد أثر في سادة القصر فجعلهم يتكفلون بنفقات تعليمه في تولوز ومونبلييه وبولونيا وباريس ، وفي عام ١٣٤٢ أصبح طبيباً خاصاً للبابا في أفنيون . واحتفظ بهذا المنصب الصعب ثمانية وعشرين عاماً وعندما اجتاحت وباء الطاعون أفنيون لم يغادر موقعه ومد يد العون للضحايا وأصيب بالوباء ولم ينج من الموت إلا بمعجزة ، وقد ارتكب أخطاء جسيمة مثل أى إنسان إذ كان تارة يعزو انتشار الوباء إلى اقتران بين الكواكب في ساعة نحس وتارة يتهم اليهود بأنهم يهدفون إلى تسميم أبناء العالم المسيحى وأخر الثام الجروح بنبذه طريقة موند فيل في اللصقات والمرام ولكنة عاش معظم حياته وفيها لأرفع تقاليد مهنته العظيمة . ويعد مؤلفه Chirurgia magna (١٣٦٣)

الجامع في فن الجراحة » أكمل بحث في الجراحة وأكثر تنسيقاً وأغزر
أداة من الرسائل التي ألفت قبل القرن السادس عشر .

وواكبت الصحة الجماعية والفردية بصعوبة تقدم الطب فلم تكن النظافة
الشخصية شيئاً مقدساً بل إن ملك إنجلترا كان لا يستحم إلا مرة واحدة
كل أسبوع وكان يغفل الاستحمام أحياناً . . . وكان الألمان يستخدمون
حمامات عامة - أحواضاً واسعة يقف فيها المستحمون أو يجلسون عراة
الأجسام وأحياناً يستحم فيها الجنسان معاً . وكان في أولم وحدها ١٦٨ حماماً
عاماً ١٤٨٩ وفي كل أنحاء أوروبا - دون استثناء للطبقة الأرستقراطية دائماً -
كانت نفس القطعة من الملابس ترتدى شهوراً أو سنوات أو أجيالاً .

وكان في كثير من المدن ما يكفيها من الماء ولكنه كان لا يصل إلا إلى
بضع منازل وكان على معظم الأسر أن يجلبوا الماء من أقرب نافورة أو بئر
أو ينبوع . وظل هواء لندن ملوثاً برائحة الماشية المذبوحة إلى أن حرمت هذه
المذبحة عام ١٣٧١ وكانت المراحيض تنغص حياة الناس السهلة في الريف .
ولم يكن في منازل لندن إلا مرحاض واحد لكل السكان وخلا كثير من
أى مرحاض وكانت تفرغ ما فيها من براز في الأفنية أو الطرقات . وكانت
٦ آلاف الفضلات تلقى في نهر التيمز وقد صدر عام ١٣٥٧ قانون يحرم
ذلك وإن استمر الحال على ما هو عليه وفي سنة ١٣٨٨ أقر البرلمان أول
قانون للصحة العامة يسرى في جميع أنحاء إنجلترا وقد دفعه إلى هذا انتشار
الوباء أكثر من مرة « نظراً لأن كثيراً من الغائط والنفايات القذرة والأسماء
والذبائح والمواد المتعفنة الأخرى تلقى وتوضع في الحضر والأنهار والمياه
الأخرى . . . ونظراً لأن الهواء يتلوث ويفسد إلى حد كبير فتنتشر كل
يوم أمراض كثيرة وأقسام أخرى لا تطاق بين السكان وبين الآخرين
من يترددون أو يسافرون إلى هناك فقد تم الاتفاق والرضى على نشر

هذا الاعلان - في أنحاء مملكة إنجلترا . . . إن جميع من يلتقون ويضعون مثل هذه الأشياء المقلقة للراحة سيجبرون على إزالتها تماماً . . . وإلا تعرضوا لعقوبة الغرامة من مولانا الملك » .

وقد صدرت قوانين مماثلة في فرنسا في مثل هذا الوقت وفي سنة ١٣٨٣ أمرت السلطات في مارسيليا ، مقتفية أثر سلطات راجوزا (١٣٧٧) بعزل الأشخاص المصابين بالوباء لمدة أربعين يوماً - بالحجر الصحي . واستمرت الأوبئة في الانتشار - الحمى الدخنية في إنجلترا (١٤٨٦ - ١٥٠٨) ومرض الخناق والجدري في ألمانيا (١٤٩٢) - إلا أن العدوى بها قد تضاءلت وقلت الوفيات . وعلى الرغم من التهاون في الرعاية الصحية فإن المستشفيات كانت كثيرة نسبياً فقد كان في إنجلترا ٤٦٠ مستشفى عام ١٥٠٠ وكان في يورك وحدها ستة عشر مستشفى .

وتجاوز علاج المجانين شيئاً فشيئاً مرحلة احترام الخرافات والأوهام والقسوة الممجية إلى مرحلة العلاج العلمي ، فقد حدث عام ١٣٠٠ أن نبشت جثة فتاة ادعت أنها الشيخ المقدس وأحرقت بأمر من رجال الدين ، ولقيت فتانان عبرتا عن إيمانهما بما ادعته ، مصرعهما بالجلوس على الخوازيق وفي سنة ١٣٥٩ فوض كبير أساقفة طليطلة السلطات المدنية في إحراق إسباني حياً وكان قد ادعى أنه أبخ ميكائيل كبير الملائكة وأنه يتردد على السماء والجحيم كل يوم .

رتحسنت الأمور في القرن الخامس عشر إذ أن راهبا يدعى جان جوفر ، امتلاً قلبه عطفاً على المجانين الذين كانت الغوغاء تتابعهم في الشوارع بصفير الاستهزاء أنشأ مستشفى للمجانين (١٤٠٩) وحدت السلطات حدوده في مدين أخرى وتحولت مستشفى سانت ماري أوف بيت لحم التي أسست في لندن عام ١٢٤٧ ، إلى مستشفى للمجانين عام ١٤٩٢ وأصبحت

كلمة « بيت لحم » التي حُرِفَت إلى كلمة « بدلام » — مرادفة لمستشفى المجانين .
وكان الذين يثبت إصابتهم بالجدام منبوذين من المجتمع وإن كان الجدام
قد اختفى أو كاد من أوروبا الغربية في القرن الخامس عشر وحل محله مرض
الزهرى ، ولعله مرحلة متطورة لمرض الزهرى المعروف من قبل في فرنسا وربما
كان مرضا وافدا من أمريكا وظهر أخيرا في إسبانيا عام ١٤٩٣ وفي إيطاليا
عام ١٤٩٥ ثم انتشر انتشارا واسعا في فرنسا حتى أطلق عليه اسم الوباء الغالى^(١) .
وقد اجتاحت بعض المدن في ألمانيا فالتمست إعفاءها من الضرائب — وما
أن أشرف القرن الخامس عشر على نهايته حتى سمعنا عن استخدام الزئبق في
علاجه . وأخذ تقدم الطب في ذلك الوقت كما هو الآن يسابق بشجاعة كل
مستحدث في المرض .

٥ — الفلاسفة

على الرغم من أن عصر واضعى النسق قد انقضى فإن الفلسفة كانت
لا تزال في أوج قوتها والحق أنها زعزعت أركان العقيدة المسيحية في القرن
الرابع عشر . وانتشر تذبذب علماء اللاهوت في الفلسفة بفضل تحول في
الرأى : فقد اهتم قادة الفكر مثل بوريدان بالعلم اهتماما كبيرا وبالاقتصاديات
مثل أريزم وبالنظام الكنسى مثل نيكولاس الكوزى وبالسياسة مثل بيير
ديبوا ومارسيلوس البادوى . وكان هؤلاء الرجال أندادا في الفكر لالبرتوس
ماجينوس وتوما الأكوينى وسيجيردى باربان ودونس سكوتوس
وظلت فلسفة الكلام — كمنهج للجدل والعرض ومحاولة لإظهار ارتباط
العقل بالإيمان — تسود الجامعات في الشمال واعتبر الأكوينى قديسا عام
١٣٢٣ وبعد ذلك أحس أتباعه من الدومينيكان وبخاصة في لوفين وكولونيا
أن من دواعى الشرف أن يتمسكوا بعقيدة في مواجهة كل التحديات .

(١) نسبة إلى بلاد الغال .

أما معارضوه من الفرنسيسكان الثابتين على العهد فقد آثروا أن يتبعوا أوجستين ودونس سكوتوس . وصدم ويليام ديراند من سان بورسان ، وهو أحد الرهبان الدومينيكان المتحررين ، طائفته عندما انحرف بين أتباع سكوتوس وعندما بلغ الثامنة والثلاثين (عام ١٣٠٨) بدأ في كتابة حاشية مفصلة وفرغ منها في سن متقدمة . ولقد نبذ أثناء تقدمه آراء أرسطو والأكويني ورأى أن يغلب العقل على حجة كل عالم مهما كان حظه من الشهرة أو الخطر » وهنا كان فيلسوفا له نصيب من حاسة الفكاهة . وبينما ظل صراحة وفي آراء علماء اللاهوت فإنه مهد السبيل لأسمية أوكهام المتشددة وذلك باستعادة المذهب التصوري لأبيلاز : الأشياء الفردية فقط التي تبقى وكل الأفكار المجردة أو العامة ليست إلا أقرب التصورات للعقل . وأطلق أصدقاء وليام عليه اسم دكتور ريزو وتوسيموس أما خصومه فأطلقوا عليه اسم دوروس دوراندوس — ديران الصاب — وكانوا يعللون أنفسهم بأن نيران جهنم سوف تلين قناته في النهاية .

وكان ويليام الاوكهاى أشد صلابة ولكنه لم ينتظر حتى يلقي حتفه حرقا ، وقضى حياته بأسرها في جدل حاد ولم تخف حدته إلا بالسجن من آن لآخر وتحت ضغط الأيام ليعبر عن حرارته في صيغة الفلسفة الكلامية ولم يسلم في الفلسفة إلا بسلطان التجربة والعقل . وكان يتحمس لنظرياته ويمسك بخناق نصف أوربا دفاعا عن آرائه . وهو بحياته ومغامراته وأهدافه يسبق إلى تمثيل فولتير ومغامراته وأهدافه . ولعله كان أعظم منه أثرا .

ولا نستطيع أن نقول أين أو متى ولد على وجه التحديد ، ولعله ولد في أوكهام بمقاطعة سورى حوالى نهاية القرن الثالث عشر . واندرج في سلك طائفة الفرنسيسكان وهو بعد صبي صغير وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره أرسل إلى جامعة اكسفورد باعتماده صبيا ذكيا سيكون ولا ريب ضوء

مشرقا في الكنيسة . وفي اكسفورد وربما في باريس ، أحس بتأثير راهب فرنسيسكاني آخر داهية هو دونس سكوتوس لأنه على الرغم من أنه عارض « واقعية » سكوتوس فإنه دفع بنقد سلفه التعقلي للفلسفة واللاهوت بضع خطوات نحو مذهب الشك الذي يذيب الفوارق بين العقائد الدينية والقوانين العلمية . وقام بالتدريس ست سنوات في اكسفورد وربما يكون قد درس في باريس . ويبدو أنه كتب تعليقات على فلسفة أرسطو وبيتر لومبارد قبل عام ١٣٢٤ - وهو لا يزال حدثا في العشرين وأعظم أثر له هو كتاب « الجامع لكل علم المنطق *Summa totius logicae* » وهو موجز لكل قواعد المنطق .

ويبدو الأمر لأول وهلة صورة من صحراء جرداء في تقطيع أوصال المنطق والمصطلحات اللغوية التكنوأوجية ، موكب لا حياة فيه من التعريفات والتقسيمات والتفريعات والصفات المميزة والتصنيفات والمهارات . وعرف أوكهام كل شيء عن « علم المعاني » وأسف لعدم دقة الاصطلاحات المستعملة في الفلسفة وقضى نصف الوقت في محاولة توخي الدقة فيها أكثر من قبل . واستاء من الصرح القوطي للتجريدات يركب أحدها الآخر كالعقود في الطبقات الموضوعية لإحداها فوق الأخرى ، والتي أثارها الفكر في القرون الوسطى . ولا نستطيع أن نجد في أعماله الباقية بالدقة الصيغة المشهورة التي سميت في التراث باسم « مبضع أوكهام » الذاتيات لا تتضاءل بحيث تتجاوز الحاجة . ولكنه عبر عن المبدأ بمصطلحات أخرى مرارا وتكرارا - التعددية (في الذاتيات أو العلل أو العوامل) لا تثبت (أو تفترض) إلا لضرورة » و « من العبث أن نبحث عن إنجاز أو شرح بافترض أو علل يمكن تفسيرها بأقل منها » ، ولم يكن المبدأ جديدا فقد قبله الأكوييني واستخدمه سكوتوس ولكنه بين يدي أوكهام أصبح سلاحا قاتلا يقطع به مئات من الأوهام الغامضة والتجريدات العظيمة .

وبتطبيق المبدأ على نظرية المعرفة رأى أوكهام أنه لا داعى لأن يفترض كمصدر ومادة للمعرفة ، أى شىء أكثر من الإحساسات ومن هذه تنشأ الذاكرة (إحساس ينعش) والإدراك (إحساس يفسر من خلال الذاكرة) والخيال (ذاكرات متحدة) والتوقع (ذاكرة تنعكس) والفكرة (ذاكرات تقارن) والتجربة (ذاكرات تفسر من خلال الفكرة) . « لا شىء يمكن أن يكون موضوعاً للحس الداخلى (الفكرة) إلا إذا كان موضوعاً للحس الخارجى (الشعور) » . وها هو الشىء التجريبي للوك قبل ظهوره بثلاثمائة عام .

وكل ما ندركه خارج نفوسنا هو ذاتيات فردية — أشخاص معينين وأشياء وأفعال وأشكال وألوان وأذواق وروائح وضغوط ودرجات حرارة وأصوات ، والكلمات التى تعبر بها عن هذه هى « كلمات أول قصد » أو المراد الأولى وتشير مباشرة إلى ما ننشرها على أنها حقائق خارجية ، وبدوين وتجريد الملامح العامة للذاتيات الماثلة التى أدركت على هذا النحو يمكننا أن نصل إلى أفكار عامة أو مجردة — رجل ، فضيلة ، ارتفاع ، حلاوة ، حرارة ، فصاحة . والكلمات التى نعبر بها عن مثل هذه التجريدات هى كلمات « القصد الثانى » وتشير إلى المفاهيم المستخلصة من المدركات . وهذه « العموميات » لا تختبر فى الإحساس فهى تعبيرات ودلالات وأسماء لتعميمات نافعة للغاية (وخطرة) فى الفكر أو العقل وفى العلم والفلسفة واللاهوت ، وهى ليست أشياء توجد خارج العقل . وأن كل شىء خارج العقل مفرد ويساوى عددياً واحداً .

والعقل شىء رائع ولكن استنتاجاته لا تكون لها معنى إلا إذا كانت تشير إلى التجربة — أى إلى إدراك الذاتيات الفردية ، أو إلى أداء الأفعال الفردية وإلا فإن استنتاجاته تكون من قبيل العبث وقد تكون تجريدات خادعة وما أكثر اللغو قولاً وكتابة بإساءة فهم الأفكار على أنها أشياء

والتجريدات على أنها حقائق . إن الفكرة المجردة لا تقوم بوظيفتها إلا عندما تؤدي إلى بيانات معينة عن أشياء معينة .

ومن هذا المذهب الاسمي طرق أوكهام في تهوّر لا يبقى ولا يذر كل ميدان في الفلسفة واللاهوت . وأعلن أن كلا من الميتافيزيقيا والعلم تعميمات مثقلة لأن تجربتنا ليست إلا عن ذاتيات معينة في مساحة وزمن محصورين في نطاق ضيق ولذلك فإنه من الغرور أن نفترض على وجه الشمول والدوام صحة القضايا والقوانين الطبيعية التي نستمدّها من هذا القطاع الصغير من الحقيقة فتصاغ معرفتنا وتحدد بوسائلنا وطرقنا في إدراك الأمور (وهذا هو رأى كانت قبل ظهور كانت) وهي تبقى حبيسة في سجن عقولنا ويجب ألا يدعى أنها الحقيقة الموضوعية أو النهائية عن أى شيء .

أما بالنسبة للروح فإنها تجريد أيضاً وهي لا تظهر أبداً في إحساساتنا أو مدركاتنا سواء أكانت خارجية أم داخلية وكل ما ندركه هو الإرادة والذات (الأنا) التي تؤكد نفسها في كل فعل وكل فكرة . والعقل نفسه وكل مجد ينسب للذهن آلات للإرادة ، والذهن ليس الإرادة التفكير تبحث عن غاياتها بالفكر « وهذا هو رأى شوبنهاور » .

ويبدو أن الله نفسه لا يصمد أمام هذه الفلسفة الحادة . ولم يجد أوكهام (مثل كانت) أية قوة باقية في أى من المناظرات التي دارت لإثبات وجود الله . ورفض الأخذ برأى أرسطو القائل أن سلسلة الحركات أو العلل تجبرنا على أن نفترض الحركة الأولى أو العلة الأولى . ولم يعبد غير مدرك ردة لانهاية للحركات والأسباب أكثر من المحرك الثابت أو العلة التي لا سبب لها في لاهوت أرسطو ، ونظراً لأنه لا يمكن أن يعرف شيء إلا بطريق الإدراك المباشر فإنه لن يتيسر لنا الحصول على معرفة واضحة بأن الله موجود .

ولا يمكن للعقل أن يرى أن الله قادر على كل شيء أو لا حد لقدرته ، وعالم بكل شيء أو لطيف أو واحد ، كما أن العقل لا يستطيع أن يثبت أن الله ثالث ثلاثة ، أو أن الله تجسد إنساناً ليكفر عن خطيئة آدم وحواء بعصيانهما أو أن ابن الله حاضر في القربان المقدس ، ثم إن التوحيد ليس مطابقاً للعقل أكثر من الشرك ، وربما يكون هناك أكثر من عالم يحكمها أكثر من إله .

إذن ماذا يبقى من البناء البهيم للعقيدة المسيحية ؟ أساطيرها الخميلة وأناشيدها وفنها . ما نصت عليه من أخلاق من وحي الله أم أمليها الحصين ؟ وقد تراجع أوكهام أمام هدم العقل للاهوت وفي محاولة يائسة لإنقاذ نظام اجتماعي قائم على شريعة أخلاقية تقوم على عقيدة دوفية رأى التضحية بالعقل على مذهب الإيمان ، وربما يكون الله موجوداً على الرغم من أنه لا يمكن إثبات هذا وأنه وهب كلا مناروحا خالدة . ويجب أن نميز ، كما أشار ابن رشد ودينس سكوتوس ، بين الحقيقة اللاهوتية وبين الحقيقة الفلسفية ، وأن نقبل متواضعين في مجال الإيمان ما يرتاب فيه العقل الفخور بنفسه .

وكان من قبيل المبالغة أن تقبل الكنيسة هذه الحاشية الذنبية التي تكرم العقل العملي كفارة لذنوب أوكهام لقيامه بنقد العقل المحض . فأمر البابا جون الثاني والعشرين بتكوين مجلس تحقيق من رجال الدين للنظر في « الهرطقات البغيضة » التي اقترفها الراهب الشاب واستدعاه ليمثل أمام المحكمة البابوية في أفينيون ، وجاء أوكهام ، لأننا نجده عام ١٣٢٨ في سجن بابوي هناك ، مع راهبين من الفرنسيسكان وفر الثلاثة وهربوا إلى إنجلترا واستقلوا قارباً صغيراً والتقطتهم سفينة أخذتهم إلى لويس ملك بافاريا في بيزا . وحرّمهم البابا من غفران الكنيسة بينما أسبغ عليهم الإمبراطور حمايته . واصطحب ويليام لويس إلى ميونخ وانضم هناك إلى مارسيلوس من بادوا وعاش في دير فرنسيسكاني مناهض للبابا وأصدر منه سيلا من الكتب والنشرات ضد سلطان وهرطقة البابوات بعامة وجون الثاني والعشرين بخاصة .

وكما فاق أوكهام في ميثافيزيقياته الشكية عند سكوتس فإنه في نظريته العملية دفع مهاجمة مارسيليوس البادوى للإكليروس نتائج جريئة . وأعمل مبضعه في العقائد والشعائر التي أضافها الكنيسة إلى المسيحية الأولى وطلب العودة إلى عقيدة أبسط وعبادة « العهد الجديد » .

وفي الحاجة عنيدة نشر كتابه « مائة لسان » Centiloquium theologicum في علم اللاهوت واحتكم إلى مائة عقيدة للكنيسة ورأى أن كثيراً منها يؤدي منطقياً إلى نتائج سخيفة لا تحتل ؛ فمثلاً إذا كانت مريم أم الله وكان الله والدنا جميعاً فإن مريم تكون أما لوالدها . وناقش أوكهام الخلافة الرسولية للبابوات وعصمتهم من الخطأ ، وعلى النقيض من ذلك أكد أن كثيراً منهم كانوا هراطقة وأن بعضهم كانوا مجرمين وطالب بمعاملة رقيقة للهراطقة ورأى أن التعبير عن الرأي يجب أن يترك حراً إلا بالنسبة لنشر الزيف المتعمد . ورأى أن المسيحية في حاجة إلى العودة من الكنيسة إلى المسيح ومن الثروة والسلطان إلى البساطة في الحياة والخضوع لحكم الشريعة ويجب ألا تكون الكنيسة مقصورة على رجال الدين وحدهم بل يجب أن تضم المجتمع المسيحي بأسره . وهذه الزمالة الكاملة بما فيها النساء يجب أن تختار ممثلين لها يكون من بينهم نساء وتدعوهم إلى عقد مجلس عام وهذا المجلس يجب أن يختار البابا ويرأسه ويجب أن يكون على رأس الكنيسة والدولة شخص واحد .

ويجب أن تكون الحكومة نفسها خاضعة لإرادة الشعب لأنه يملك كل السلطة النهائية على وجه الأرض . وهو يفوض حقه في التشريع والإدارة إلى ملك أو امبراطور على أساس أنه سوف يصدر القوانين لصالح الجميع ؛ وإذا كان الصالح العام يقتضي هذا فإن الملكية الخاصة يمكن أن تلغى . وإذا ارتكب الحاكم خطأ جسيماً فإن حقيقة العقيدة الدينية تقضي عليه

بالصيام . وقد مات متأثراً بالطاعون عام ١٣٤٩ أو عام ١٣٥٠ وهو لا يزال في زهرة العمر .

ونحن لا نعرف إلا القليل عن مصير أوكهام فهو لم يجد في جمعة ميونيخ عزاء له عن نبيذ باريس الذى افتقده ، وقد قارن نفسه بجون الإنجيلى فى باتموس وإن كانت لم تواته الجراحة على التخلّى عن حماية الإمبراطور . وطبقاً لرواية أحد الفرنسيسكان المعاصرين وقع الراهب المتمرد فى آخر سنى عمره لإقرارا ينكر فيه هرطقاته ، ولعل تصالح لويس مع الكنيسة جعلت هذا أمراً يمليه العقل والرشد ، وربما يكون وليام قد أحس بأن التساؤل عن حقيقة عقيدة دينية أمر سخيّف . ومات متأثراً بالطاعون عام ١٣٤٩ أو عام ١٣٥٠ وهو لا يزال فى مقتبل العمر .

وقبل وفاته بزمان طويل اعترف به كأقوى مفكر فى عصره وارتجت الجامعات بالجدل حول فلسفته . وقبل كثير من علماء اللاهوت وجهة نظره فى أن العقائد الأساسية للدين المسيحى لا يمكن إثباتها بالعقل وأن التمييز بين الحقيقة الفلسفية والحقيقة الدينية كان واسع الانتشار فى القرن الرابع عشر كما تنتشر اليوم المهادنة المفهومة ضمننا بين التحقيق العلمى والخدمة الكهنوتية الدينية . وفى أكسفورد تكونت مدرسة من أتباع أوكهام أطلقت على نفسها اسم « الحياة العصرية » (كما سُمى أبيلارد مذهبه التصورى قبل ذلك بثلاثمائة عام) وسخرت من الواقعية الميتافيزيقية لسكوتوس أكويتاس . وكان انتصار العصريين بخاصة ساحقاً فى جامعات أوروبا الوسطى فلن هس فى براغ ولوثر فى أرفورت كانا يتلقيان المذهب الاسمى وربما يعزى تمردهما إليه : وفى باريس منعت سلطات الجامعة (١١٣٩ - ٤٠) تدريس آراء أوكهام ولكن كثيراً من تلاميذه وبعض الأساتذة هملوا له باعتباره حاملاً للواء الفكر الحر وحدث أكثر من مرة أن تقالت الأنحزا

المعارضة كما يحدث الآن ، بالكلمات واللطمات في المقاهي أو في الشوارع . ولعل توماس أكيمس Thomas a Kempis أدان الفاسفة في كتاب « محاكاة المسيح » كرد فعل ضد آراء أوكهام وقد لعب أوكهام دوراً ، وإن اقتصر على صوت ، في تأليب الحكومة الوطنية ضد الكنيسة العالمية وقد أثرت دعوته إلى أن يكون رجال الدين فقراء في ويكليف كما أن هجراته على البابوية واستنصاره الدائم للإنجيل والمسيحية الأولى بدلا من الكنيسة مهدت لظهور لوثر الذي عده أوكهام من أعظم أساتذة فلسفة الكلام وأكثرهم عبقرية إذ عبر سلفا في مذهبه في الاختيار ومذهبه في الفردية عن الروح القوية لعصر النهضة ثم إن مذهبه في الشك انتقل إلى راموس ومونتينى وربما إلى أرازاموس ، ومذهبه وتحديده الذاتي للمعرفة بالأفكار رمز إلى بركلي كما أنه سبق « كانت » بمحاولته إنقاذ الإيمان عن طريق « العقل العملى » وعلى الرغم من أنه مثالى من الناحية الفلسفية فإن تأكيده أن الإحساس هو المصدر الوحيد للمعرفة جعله يتبوأ مكاناً مرموقاً في موكب الفلسفة الإنجليزية التجريبية من روجر وفرانسيس بيكون من خلال هوبز ولوك وهيرم وميل ومن سبنسر إلى برتراند راسل . واقتحامه الطارئ لميدان العلم الطبيعى وإدراكه لقانون القصور الذاتى وربأيه في العمل على بعد — حث المفكرين من جان بوريدان إلى إسحق نيوتن والنتيجة العامة لعمله شأنه في هذا شأن دونس سكوتوس ، هو تقويض الغرض الأساسى لفلسفة الكلام — وأن العتميدة المسيحية في القرون الوسطى يمكن إثباتها بالعقل وقد حافظت فلسفة الكلام حتى القرن السابع عشر ، على وجود باهت بعد الموت ولكنها لم تسترد قوتها بعد هذه الصفحات .

٦ — المصلحون

بينما كان ابن خلدون يضع قواعد علم الاجتماع في العالم الإسلامى كان

بيير ديبوا ونيكول أورزم ومارسيلوس البادوى ونيكولاس الكوزاوى
يطورون فى العالم المسيحى الدراسات التى تبحث العلاقة بين الأقارب
وإن كانت أقل تنسيقا . وقد خدم ديبوا ملك فرنسا فيليب الرابع كما
خدم أوكهام ومارسيلوس الملك لويس البافارى بتوجيه حملات فكرية
ضد البابوية . وفى ابتهاج لشعب فرنسا للملك ضد البابا بونيفاس (١٣٠٨)
وفى رسالة عن استرداد الأرض المقدسة أوصى المدره الغيور على هذا المبدأ بأن
تجرد البساوية من كل أملاكها الدنيوية وسلطانها الزمنى ، وأن يرفض
حكام أوروبا الخضوع لسلطات البابا فى محاكمهم وأن تنفصل الكنيسة
الفرنسية عن روما وتخضع للسلطة الزمنية والقانون . فضلا عن هذا فإن
ديبوا مضى قدماً يقول إن كل أوروبا يجب أن تتحد تحت لواء
ملك فرنسا باعتباره إمبراطورا يتخذ عاصمته فى القسطنطينية وأن تكون
هذه قلعة تناهض الإسلام وأنه يجب لإنشاء محكمة دولية تفصل فى المنازعات
بين الأمم وأن تعلن مقاطعة اقتصادية لكل أمة مسيحية تبدأ الحرب ضد
أمة مسيحية أخرى وأن تتاح للنساء الفرص التعليمية نفسها وأن تكون لهن
نفس الحقوق السياسية كالرجال .

ويبدو أن أحدا لم يعر هذه الآراء التفاتا ولكنها اقتحمت التيارات
الفكرية التى قوضت صرح البابوية . وبعد مرور قرنين على وفاة ديبوا
اتبع هنرى الثامن ، الذى لم يسمع عنه ولا ريب ، برنامجا هو وويكيليف فى
الدين وفى مطلع القرن التاسع عشر أقام نابليون إلى حين أوروبا المتحدة
تحت الزعامة الفرنسية وجعل من البابا أسيرا للدولة . وليس من شك فى
أن ديبوا من زمرة المشتغلين بالشريعة الناهضين الذين كانوا يطمحون
إلى ألا يقوم رجال الدين بتوجيه سياسة الحكومة . وقد فاز فى معركته
ونحن نجنى اليوم ثمار انتصاره .

وقد كتب أورزم الذى أثار كثيرا من المناقشات الحامية حوالى سنة

١٣٥٥ مقالات صريحة واضحة في الأدب الاقتصادي ، عن الأصل والطبيعة والشرعية وتغيير العملة وقال إن عملة البلد ملك للجماعة لا للملك فهي منفعة اجتماعية وليست عائدا ملكياً وللمحاكم أو الحكومة تنظيم إصدارها ولكن يجب أن يحافظ على قيمتها المعدنية ولا يخفضها وأى ملك يخفض قيمة العملة لص . وفضلا عن هذا فإن العملة الرديئة (وفقا لقانون جريشام) تطرد العملة الجيدة من التداول والناس يخفون أو يصعدون العملة الجيدة والحكومة غير الآمنة لن تتلقى في دخولها سوى العملة البخسة . ولم تكن الآراء التي ردها أورزم مثلاً علياً فحسب بل إنه درسها بصفته مربياً ، لابن جون الثانى . وعندما أصبح هذا الطالب شارل الخامس استفاد الملك الشاب ، بعد تدهور للعملة ، من تعليمات أستاذه واستعاد شتات أمواله . نسا بعد أن تخلصت من الحرب على أساس سليم شريف .

كان مرسيلوس البادوى ذا مزاج أكثر تقلباً من أورزم : كان فيلسوفاً لا يدين ينادى بالفردية فخوراً بفكره وشجاعته وكان يجعل فلسفته السياسية جزءاً لا ينفصل من حياته القلقة . وكان ابناً لموثق عقود فى بادوا ودرس الطب فى الجامعة ولعله يدين ببعض تطرفه المناهض للأكليروسية إلى جو من مذهب الشك الذى يرجع إلى ابن رشد الذى وجدته بترارك وفضحه فى الجليل نفسه . وعندما انتقل إلى باريس أصبح مديراً للجامعة وشغل هذا المنصب عاماً . ثم ألف عام ١٣٢٤ بشيء من التعاون مع جون الجندوانى أعظم رسالة أثرت على السياسة بالعصور الوسطى وهى « المدافع عن السلام » .

ولما كان المؤلفان يعلمان أن الكنيسة سوف تستنكر كتابهما فقد فرا إلى نورمبرج ووضعوا نفسيهما تحت جناح الإمبراطور لويس البافارى ثم حاربوا البابا . ولم يتوقعا من محارب شديد المراس مثل جون الثانى والعشرين أن يتقابل بالهدوء دفاعهما الشديد عن السلام . وقد برهن هذا الكتاب على أن

السلام في أوروبا يقوضه النزاع بين الدولة وبين الكنيسة وأنه يمكن استعادة السلام والحفاظ عليه بوضع الكنيسة بكل ممتلكاتها والعاملين بها تحت نفس السلطة الإمبراطورية أو الملكية مثل باقي الجماعات والأموال ، ومن الخطأ (كما جاء في البحث) أن تقتنى الكنيسة ممتلكات ، فليس في الكتاب المقدس ما يبرر هذا الاقتناء .

وعرف المؤلفان الكنيسة كما فعل أوكهمان بأنها طائفة المسيحيين بأكملها . وكما كان الشعب الروماني ، صاحب السيادة الحقيقي في القانون الروماني ، وكان هذا الشعب هو الذي يفوض في سلطته القناصل أو الشيوخ أو الأباطرة فإن على الجماعة المسيحية أن تفوض في سلطاتها ، ممثليها من رجال الإكليروس وان كان لا يجب أن تسلم لهم قيادها ، ويجب أن يكون هؤلاء مسئولين أمام الشعب الذي يمثلونه وادعاء البابا أنه يستمد سلطته من بطرس الرسول خطأ تاريخي في نظر مارسيليوس إذ لم يكن بطرس أقوى سلطة من باقي الرسل ولم يكن لأساقفة روما في أوائل عهدهم في القرون الثلاثة الأولى سلطة تزيد عن سلطة الأساقفة في كثير من العواصم القديمة الأخرى وكان يرأس المجالس العامة الأولى الإمبراطور أو نوابه وليس البابا . وأى مجلس عام ينتخبه شعب العالم المسيحى يجب أن يفسر الكتب المقدسة ويعرف العقيدة الكاثوليكية ويختار الكرادلة وهؤلاء يجب عليهم أن يختاروا البابا . ويجب على رجال الإكليروس بما فيهم البابا أن يخضعوا للقضاء المدني والقانون في جميع الأمور الدنيوية ، ويجب أن تعين الدولة رجال الإكليروس وتمنحهم مرتبات وتحدد عدد الكنائس والقسس وتستغنى عن القسس كما رأيت أنهم غير جديرين بمناصبهم وتراقب الهبات الكنسية والمدارس التابعة للكنيسة ودخلها وترفعه عن الفقراء من فائض دخول الكنيسة .

ها هو صوت الدولة الوطنية الطاغية يرتفع مرة أخرى . وما إن أخضع الملوك البارونات والكومونات بفضل مؤازرة الطبقات الوسطى الناهضة

حتى أحسوا بأنهم بلغوا من القوة حدا جعلهم يرفضون ادعاء الكنيسة بأن لها السيادة على السلطة المدنية . وانتهر الحكام الزمونيون الفرصة التي أناحها لهم انحطاط السلطة الدولية والأدبية للكنيسة وأخذوا يحلمون بالسيطرة على كل وجوه الحياة في ممالكهم بما فيها الدين والكنيسة وكانت هذه النتيجة تستحق الكفاح في الإصلاح الديني . ويعد انتصار الدولة على الكنيسة مرحلة نهائية في العصور الوسطى .

(في سنة ١٥٣٥ أمر هنرى الثامن ، وهو في أوج تمرده على الكنيسة ، بترجمة كتاب المدافع عن السلام ونشره على نفقة الحكومة) وبعد أن اقترح مارسيلوس ، مثل أوكهام ولوثر ، أن يستبدل بسلطة الكنيسة سلطة الشعب ، اضطر ، بسبب النظام الاجتماعي ومن أجل سلامته الشخصية أن يستبدل بها سلطة الحكومة . ولكنه لم يرفع من شأن الملوك حتى يصبحوا غيلانا قادرين على كل شيء فقد كان يتطلع من وراء انتصار الدولة إلى اليوم الذى يمارس فيه الشعب فعلا سيادته التى طالما ود فقهاء القانون أن يقلدوها له . ودافع عن الديمقراطية في مجال الإصلاح بين رجال الكنيسة ، فعلى كل طائفة مسيحية أن تختار ممثلا لها في مجالس الكنيسة وعلى كل أبرشية أن تختار قساوستها وتراقبهم وتطردهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، ويجب ألا يحرم عضو في الأبرشية دون موافقتها ، وطبق مارسيلوس مبادئ مماثلة على الحكومة المدنية وإن كان قد أدخل عليها بعض التعديل على استحياء :

طبقاً لحقيقة ورأى أرسطو ، نعلن أن المشرع — الدافع الأول والصحيح لسن القانون — يجب أن يكون هو الشعب — طائفة المواطنين بأكملها أو قسمها الأثقل وزنا ، تأمر وتقرر بمحض اختيارها أو لإرادتها ، وتعبر عن رأيها شفويًا في جمعية عمومية للمواطنين . . . وأقول قسمها الأثقل وزنا ، آخذًا في الاعتبار عدد الأشخاص وصفاتهم معا في الجماعة التى يسن من أجلها القانون . وطائفة المواطنين بأسرها أو قسمها الأثقل وزنا إما أن تسن

القانون مباشرة أو تعهد بهذه المهمة إلى البعض أو إلى فئة قليلة ، ولكن هذه الأخيرة لا تكون ، أولاً تستطيع أن تكون ، المشرع بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة ، فهي تعمل فقط في مجال هذه الأمور - وهذه الفترات التي تخول لها من المشرع الأول . . . وفي رأي أن المواطن هو كل من يشارك في الجماعة المدنية بسلطة مداولة أو سلطة قضائية على حسب رتبته ، وعلى أساس هذه التعريفات يفرق القصر والعبيد والأجانب والنساء عن المواطنين . . . وخير قانون يصدر هو الذي يكون نتيجة مداولة وثمره إرادة الجماعة بأسرها . . . ويمكن لأغلبية منها ، بسرعة أكثر من سرعة أية أقسام منها ، إصدار أى قانون يقترح سنه لأن أى طائفة بأكملها أعظم سلطاناً وثروة من أية أقسام منفصلة .

وهذا بيان عظيم بالنسبة لعصره (١٣٢٤) ولا شك أن ظروف العصر تبرر ما صاحبه من تردد . بل إن مارسيليوس لم يكن بوسع أن يدافع عن المساواة في التصويت بين جميع البالغين في أوروبا حيث كان من العسير أن تجد واحداً يستطيع القراءة بين كل عشرة وحيث كانت المواصلات صعبة والانقسامات الطبيعية راسخة لا تتزعزع بمرور الزمن . والحق أنه رفض الديمقراطية الكاملة التي تتحدد فيها السياسة والتشريع بعدد الأنوف (مجموعة من الناس المعوزين) ولتصحيح هذا الفساد في جمهورية كان يريد من الأفراد أن تكون لهم سلطة سياسية مناسبة لمكانتهم في المجتمع ، وإن لم يقل كيف ومن يحكم على هذا . وأفسح مكاناً للملكية ولكنه أضاف أن « الحاكم الذي ينتخب أفضل بكثير من الحكام الذين يتبأون مناصبهم بالوراثة » فالملك يجب أن يكون نائباً وخادماً للجمهور وإذا أساء السلوك فإن من حق الجمهور أن يخلعه .

ولهذه الآراء أصل يرجع للقرون الوسطى بل إن لها أصلاً قديماً ، فقد منح المحامون الرومان والفلاسفة الكلاسيون بانتظام الشعب سيادة نظرية

وكانت البابوية نفسها ملكية انتخابية إذ كان البابا يطلق على نفسه اسم «خادم أجراء الله» وقد وافق توما الأكويني على رأى جون أف سالبورى القائل بحق الشعب فى خلع أى ملك يخالف القانون . ولكن قلما بلغت هذه الآراء فى العالم المسيحى درجة تصل إلى صيغة واضحة لحكومة برلمانية ، وها هو رجل فى القرن الرابع عشر جمع بين آراء أنصار الإصلاح الدينى من البروتستانت والمؤيدين للثورة الفرنسية .

وكان مارسيلوس سابقا جدا لعصره فلم يهدأ لحظة واحدة إذ ارتفع شأنه بسرعة بارتفاع شأن لويس البافارى وسقط كذلك بسقوطه . وعندما عادى لويس الباباوات طلب منه أن يطرد مارسيلوس باعتباره هرطقا ولا ندرى شيئا عن النتيجة ، ويبدو أن مارسيلوس مات عام ١٣٤٣ وهو منبوذ من الكنيسة التى حاربها ومن الدولة التى عمل على رفع شأنها .

ولعل نجاحه المؤقت ماكان ليتحقق لو لم تخول مهنة القانون الناهضة للدولة سلطة تنافس سلطة الكنيسة . فقد رفع المحامون « القانون الوضعى » للدولة إلى جانب ، وغالبا ضد ، القانون الكنسى ، وعلى أطلال القانون الإقطاعى والشيوعى ، وانتشر هذا القانون الملكى أو الديوى على الأيام وتغلغل فى أمور الناس . وأخرجت مدارس القانون فى مونبلييه وأورليانز وباريس قانونيين يتصفون بالحرارة والدهاء ، وقد استخدموا القانون الرومانى لتكوين نظرية الحق الإلهى والسلطة المطلقة لسادتهم من الملوك وذلك مقابل الادعاءات البابوية . وكانت هذه الآراء أقوى فى فرنسا منها فى أى مكان آخر إذ انتشرت هناك فى صورة شعارات مثل « أنا الدولة » و « الملك الشمس » كما سادت فى اسبانيا ومهدت بذلك إلى الحكم المطلق لفرديناند وشارل الخامس وفيليب الثانى بل إن ويكلييف فى إنجلترا البرلمانية قال بسلطة غير محدودة للملك المقدس . وعارض النظرية أعضاء مجلس اللوردات والعموم وأصر سيرجون

فورتيسكو على أن الملك الإنجليزي لا يستطيع أن يصدر قوانين دون موافقة البرلمان وأن القضاة الإنجليزي ملزمون بمقتضى قسمهم أن يحكموا وفقاً لقانون البلاد مهما كانت رغبة الملك ولكن إنجلترا ركعت بدورها أمام حكام مستبدين في عهد هنرى السابع وهنرى الثامن واليزابث . وبين استبدادى البابوات وأندادهم من الملوك اعتصمت بعض النفوس المثالية بفكرة « القانون الطبيعى » وهو يقوم على عدالة إلهية متغلغلة في الضمير الإنسانى ومنصوص عليها فى الأناجيل وهو قانون أعلى من أى قانون من صنع الإنسان . ولم تعبأ الدولة أو الكنيسة بهذا المفهوم وظل فى المهاد معترفاً به ومتجاهلاً فى الوقت نفسه وإن ظل هذا المفهوم حياً واهياً . وقد تبنى فى القرن الثامن عشر إعلان الاستقلال الأمريكى والإعلان الفرنسى لحقوق الإنسان ولعب دوراً صغيراً وإن كان بليغاً فى ثورة قوضت لبعض الوقت عروش الحكام المستبدين الذين حكموا العالم وحارب نيكولاس الكوزاوى استبداد البابوية ثم استسلم لها .

وفى خلال حياته المتقلبة أظهر أفضل وجه للمسيحية المنظمة بالنسبة لألمانيا التى لم تكن تطمئن إلى الكنيسة . وقد جمع فى إهاب شخصيته القوية خير عناصر العصور الوسطى التى تلائم حياته وذلك باعتباره فيلسوفاً وإدارياً وعالماً باللاهوت وقانونياً . وقد ولد فى كولس قرب تريير (١٤٠١) وجمع بين التضام فى القانون والتخصص فى الدين فى مدرسة « إخوان الحياة المشتركة فى ديفنتر » وفى عام قضاه بهيدلبرج تأثر بمذهب أوكهام الاسمى فى بادوا تأثر بمذهب الشك عن ابن رشد بعض الوقت وفى كولونيا تشرب التراث الأورثوذكسى لألبرتوس ماجنوس وتوما الأكوينى . لقد كانت فيه كل العناصر التى تجعل منه أكمل مسيحى فى عصره .

ولم يتخل قط عن نزعه الصوفية التى انتقلت إليه من مايسترا كهارت

فكتب مؤلفا كلاسيا في التصوف عنوانه : « رؤية الله » وفي دفاع فلسفي عن مثل هذه الرؤى « دفاع عن الجهل العليم » *Apologia doctae ignorantiae* صاغ عبارة مشهورة هي « الجهل العليم » ورفض المذهب العقلي الكلاسي الذي يبحث في إثبات علم اللاهوت بالعقل وذهب إلى أن كل المعارف الإنسانية نسبية وغير ثابتة فالحقيقة خفية في الله . وأعرض بوجه عام عن التنجيم وإن كان قد انهمك في بعض الحسابات الفلكية مستسلماً في ذلك للأوهام الشائعة في عهده وظن أن نهاية العالم ستكون عام ١٧٣٤ . وفي وسط حياة تزخر بالنشاط الكنسي حافظ أولاً وقبل كل شيء على الفكرة العلمية وحث على القيام بمزيد من التجربة ومزيد من المقاييس الدقيقة وأشار إلى زمن سقوط الأجسام المختلفة من شتى الارتفاعات ودرس أن الأرض « لا يمكن أن تكون ثابتة ولكنها تتحرك مثل غيرها من النجوم فكل نجم يتحرك منهما بدا لنا ثابتاً ، وكل مدار فلكي دائري والأرض ليست مركز العالم إلا كما تعد أي نقطة مركزاً للعالم لانهائي . وكانت هذه الآراء استعارات حكيمة حيناً ولحاحات ذكية حيناً آخر .

وذهب نيكولاس عام ١٤٣٣ إلى بازيل ليقيم للمجلس الكنسي هناك مطالب صديق إلى كبير أساقفة كولونيا . وسقطت حجته ولكنه انتهر الفرصة ليقيم للمجلس على خلاف من البابا — عملاً هو ثمرة لحظة مشهورة في تاريخ الفلسفة . وأطلق عليه اسم : *De concordantia Catholica* « الائتلاف الكاثوليكي » وكان الهدف العام الذي يرمى إليه هو أن يتوصل إلى اتفاق بين المجالس وبين البابوات وقد صور الكنيسة وحدة عضوية لا تستطيع أن تؤدي وظيفتها بنجاح إلا من خلال التعاون الوثيق بين أجزائها وذلك في قياس محكم وتركيب متقن . وبدلاً من أن يستنتج نيكولاس ، كما فعل البابوات ، أن الأجزاء يجب أن تسترشد بالرأي فإنه رأى أن مجلساً عاماً فحسب هو الذي يمكن أن يمثل ويعبر عن ويوحد عناصر الكنيسة التي يعتمد بعضها على البعض

الآخر . ورد آراء الأكويين ومارسيلوس بل وسبق آراء روسو وجيفرسون في فقرة مثالية : « كل قانون يعتمد على قانون طبيعي وإذا تناقض معه فإنه لا يمكن أن يكون قانوناً صحيحاً » وبما أن الناس قد خلقوا أحراراً فإن أية حكومة توجد فقط بموافقة رعاياها ورضاهم فحسب . . . والقوة الملزمة لأي قانون يتضمنها هذا الاتفاق وهذا الرضا صراحة أو ضمناً فالشعب صاحب السيادة يفوض في سلطانه بعض الجماعات الصغيرة المرودة بالتعليم أو الخبرة لسن القوانين أو تطبيقها غير أن هذه الجماعات تستمد سلطاتها العادلة من رضا المحكومين وعندما تفوض الجماعة المسيحية في سلطاتها مجلساً عاماً للكنيسة فإن هذا المجلس وليس البابا هو الذي يمثل السلطة العليا في الدين . وفضلاً عن هذا فإن البابا لا يستطيع أن يستند فيما يدعيه من حق شرعى مطلق ، إلى هبة قسطنطين المفترضة لأن هذه الهبة اختلاق وأسطورة . إن للبابا الحق في عقد مجلس عام ولكن مثل هذا المجلس يمكنه أن يخلعه إذا رآه غير لائق بمنصبه . ونفس المبادئ يمكن أن تطبق على الأمراء الزمانيين : وربما تكون الملكية الانتخابية خير حكومة تتاح للناس في حالتها الفاسدة الحالية ولكن يجب على الحاكم الديوى ، كما يجب على البابا ، أن يعقد بانتظام مجلساً نيابياً ويجب أن يخضع للقوانين التي يصدرها هذا المجلس .

وكان مثالا يحتذى للبطاركة في أخريات أيامه فعندما رسم كاردينالا عام ١٤٤٨ أصبح شخصية كاثوليكية مصلحة . وقام بجولة مجهدة في هولندا وألمانيا وعقد خلالها مجمعات مقدسة إقليمية وأحيا النظام الكنسى وأصلح أديرة الرهبان والراهبات وهاجم تسرى القنس وارتقى بتعليم رجال الإكليروس ورفع على الأقل لفترة ما المستوى الخلقى لرجال الدين والشعب ، وقد كتب العلامة أبوت تريميميوس : « ظهر نيكولاس الكوزاوى في ألمانيا كملاك ينشر النور والسلام وسط الظلام والشك وقد أعاد وحدة الكنيسة ودعم سلطة رأسها الأعلى وزرع بذرة ثمينة في حياة جديدة .

ويمكن لنيكولاس أن يضيف إلى ألقابه الأخرى لقب عالم بالإنسانيات فقد أغرم بالكلاسيات القديمة وشجع على دراستها وفكر في طبع المخطوطات اليونانية التي أحضرها بنفسه من القسطنطينية لتوزيعها على نطاق واسع وكان يتسم بتسامح العلامة الحقيقي فقد طالب بتفاهم متبادل بين الأديان كالأشعة المختلفة المنبعثة من حقيقة أزلية واحدة وذلك في كتاب « حوار حول السلام » الذي ألفه في نفس العام الذي سقطت فيه القسطنطينية في أيدي الأتراك . وفي فجر الفكر الحديث عندما كانت حرية الرأي سيما ناعما كتب هذه الكلمات السليمة النبيلة :

« إنها لمنعة أن تعرف وأن تفكر وأن ترى الحقيقة بعين العقل . وكلما تقدم المرء في السن وجد في هذا متعة أكبر ولما كان الحب هو حياة القلب فإن حياة العقل في السعى وراء المعرفة وحقيقة الحياة . ووسط حركات الزمن والعمل اليومي وتناقضات الحياة وارتباطاتها فإننا يجب أن نرفع أبصارنا بلا خوف صوب قبة السماء الصاخبة ونحاول الحصول على إدراك أشد رسوخا لأصل كل خير وجمال ومدى قدرة قلوبنا وعقولنا وثمار العقول البشرية كلها خلال القرون وظواهر الطبيعة الرائعة حولنا على أن نذكر دائماً أن العظمة الحققة إنما تكمن في التواضع وحده ولا يمكن الإفادة من المعرفة والحكمة إلا إذا كانتا تسيطران على حياتنا :

ولو قد ظهر كثيرون من أمثال نيكولاس لما قدر لمثل لوثر أن يوجد .

الفصل الرابع عشر

غزو البحر

١٤٩٢ - ١٥١٧

١ - كولمبس

لقد كان « قدرا ظاهرا » أن يجروا امروء في هذا العصر على اقتحام مخاطر الأطلنطى ليكتشف الهند أو « كاثي » إذ تحدثنا الأسطورة عن وجود « أطلانتس » عبر البحر يل إن الأساطير المتأخرة ذهبت إلى وجود نبع وراء الأطلنطى تمنح مياهه الشباب الدائم . وأدى فشل الحملات الصليبية إلى ضرورة كشف أمريكا وكانت لسيطرة الأتراك على شرق البحر الأبيض المتوسط وما اقترفه العثمانيون في القسطنطينية والأسر الملكية المناهضة للمسيحية في فارس وتركستان من إغلاق الطرق البرية ومنع المرور فيها سببا في جعل الطرق القديمة للتجارة بين الشرق والغرب باهظة التكاليف ومحفوفة بالمخاطر . وتشبثت إيطاليا وفرنسا ببقايا تلك التجارة على الرغم من كل عوامل التثبيط من ضرائب الطرق والحرب ولكن البرتغال واسبانيا كانتا بعيدتين جدا في الغرب وكان من الصعب عليهما الاستفادة من مثل هذه الاتفاقات وكانت مشكلتهما لا تحل إلا بالعثور على طريق آخر وقد وجدت البرتغال طريقا حول افريقيا ولم يعد أمام اسبانيا إلا أن تجرب حظها في المرور غربا .

وقد أدى تقدم المعرفة إلى إثبات كروية الأرض منذ عهد بعيد وشجعت أخطاء العلم ذاتها على الأقدام وذلك بإساءة تقدير عرض المحيط الأطلنطى وتصوير آسيا على أنها أرض سهلة للغزو والاستثمار في الطرف الأقصى ،

ولقد وصل البحارة الاسكنديناويون عامى ٩٨٦ و ١٠٠٠ إلى لبرادور وعادوا يحملون نبأ العثور على قارة جديدة فسيحة، وزار كريستوفر كولمبس أيسلندا عام ١٤٧٧ ، إذا صدقنا القصة التى رواها بلسانه ، ومن المسلم به أنه سمع الروايات المأثورة التى تردد فى فخر رحلة لايف اريكسون إلى ثنلنده Vindland .

كان المال هو كل ما تحتاجه المغامرة الكبرى وقتذاك أما الشجاعة فكانت متوفرة . وقد سجل كولمبس نفسه فى المايورازو mayorazzo أو الوصية التى حررها قبل أن يقوم برحلته الثالثة عبر الأطلنطى أنه من مواليد جنوا . حقا إنه كان فى محرراته الموجودة لدينا يتسمى بالاسم الأسبانى كريستوبال كولون ولم يستخدم قط اسمه الإيطالى كريستوفورو كولومبو ولكن المعتقد أن هذا كان بسبب كتابته بالأسبانية لأنه عاش فى اسبانيا أو لأنه كان يقوم برحلاته البحرية لحساب ملك اسبانيا لا لأنه ولد فى اسبانيا . ومن المحتمل أن يكون أجداده أسبانيين من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية وهاجروا إلى إيطاليا ، والدليل قوى على أن الدم العبرى يسرى فى عروق كولمبس وعلى ميله لليهود . وكان والده ناسجا ويبدو أن كريستوفورو امتن هذه المهنة بعض الوقت فى جنوا وسافونا ، وقد ورد فى الترجمة الذاتية التى كتبها ابنه فرديناند أنه درس التنجيم والهندسة وعلم الكون (الكوزموجرافيا) فى جامعة بافيا وإن لم يدرج اسمه فى سجلات الجامعة ، وها هو يقول لنا بنفسه إنه أصبح بحارا فى الرابعة عشرة من عمره لأن كل طريق فى جنوا يؤدى إلى البحر .

وهاجم القراصنة عام ١٤٧٦ سفينة كان كولومبس بها نحو لشبونه وأغرقت هذه السفينة . ويروى كولمبس أنه سبى ستة أميال حتى وصل إلى الشاطئ مستعينا ببعض الحطام ولكن يبدو أن أمير البحر العظيم أطلق

تخيله العنان إذ يقول إنه سافر بعد بضعة شهور إلى إنجلترا بحارا أو قبطانا ثم سافر إلى أيسلندة فلبشونة وهناك تزوج واستقر واشتغل برسم الخرائط الجغرافية ، وكان حموه بحارا خدّم الأمير هنرى الملاح ، وليس من شك في أن كولومبوس سمع منه بعض الحكايات الممتعة عن شاطئ غيليا ، ولعله انضم عام ١٤٨٢ كضابط إلى الأسطول البرتغالي الذي أبحر حذاء الشاطئ إلى المينا ، وقرأ باهتمام كتاب البابا بيوس الثاني *Historia rerum gestarum* « تاريخ الأجناس » وكثيرا من التعاينات مما أوحى إليه بفكرة الطواف بحرا حول إفريقيا .

ولكن دراساته مالت به شيئا فشيئا نحو الغرب وعرف أن سترابون روى في القرن الأول من عصرنا محاولة للطواف حول الكرة الأرضية وكان يعلم ما كتبه سينيكا : « بعد سنوات سيأتي عصر يطلق فيه المحيط قيود الأشياء وتظهر أرض فسيحة ويكشف فيه النبي تيفيس عوالم جديدة ولن تكون ثولى (أيسلندة ؟) أقصى طرف للأرض » ، وقد قرأ « كتاب سيرماركوبولو الذى امتدح ثروات الصين وحدد وضع اليابان على بعد ١٥٠٠ ميل شرق قارة آسيا . وكتب أكثر من ألف ملاحظة في نسخته من كتاب بير دالى (صورة العالم) *Imago mundi* وقبل التقدير الراجح لمخطط الأرض بأنه يبلغ من ١٨٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ ميل وبيربط هذا بتحديد بولر لمكان اليابان حسب أن أقرب الجزر الآسيوية على بعد ٥٠٠٠ ميل غرب لشبونة وقد سمع عام ١٤٧٤ عن خطاب كتبه الطبيب الفلورنسى باولو توسكانيلى للملك البرتغالى ألفونسو الخامس يشير عليه بأنه يمكن اكتشاف طريق أقصر للهند من الطريق حول إفريقيا وذلك بالسفر بحرا لمسافة ٥٠٠٠ ميل غربا . وكتب كولومبوس إلى توسكانيلى وتلقى منه ردا مشجعا ونضجت الفكرة في ذهنه .

وحوالى عام ١٤٨٤ عرض على جون الثانى ملك البرتغال أن يجهز ثلاث سفن للقيام بحركة استكشافية لمدة عام عبر الأطلنطى والعودة منها على أن يعين كولومبس أمير بحر أعظم للمحيط وحاكما دائما لكل الأراضى التى يكتشفها ، وأن يحصل على عشر كل الإبراد والمعدن الثمين الذى تحصل عليه البرتغال من تلك الأراضى (ومن الواضح أن فكرة نشر المسيحية كانت ثانوية بالنسبة للاعتبارات المادية) . وقدم الملك العرض إلى لجنة من العلماء فرفضوه على أساس أن تقدير كولومبس للمسافة عبر الأطلنطى بأنها لا تعدو ٢٤٠٠ ميل أقل بكثير من الحقيقة (كان هذا التقدير صحيحا تقريبا للمسافة من جزر كانارى إلى جزر الهند الغربية) وعرض ملاحان برتغاليان عام ١٤٨٥ مشروعا مماثلا على الملك جون ولكنهما وافقا على تمويله بنفسيهما فمنحهما جون بركته وهذا أضعف الإيمان ، وانطلقا عام ١٤٨٧ متخذين طريقا أقرب للشمال تحف به الرياح الغربية الشديدة ثم عادا بحفى حنين . وجدد كولومبس طلبه عام ١٤٨٨ فدعاه الملك لمقابلته وأقبل كولومبس فى الوقت المناسب ليشهد العودة الظافرة لبارثولوميو دياس من رحلة ناجحة طاف فيها حول افريقيا . ولما كانت الحكومة البرتغالية تطمع فى اكتشاف طريق إلى الهند يمر بأفريقيا فلإنها تخلت عن فكرة البحث عن طريق عبر الأطلنطى فتحول إلى جنوبا والبنديقة ولكنهما بدورهما لم يقدما له أى تشجيع لأن اهتمامهما كان موجها لاكتشاف طريق للشرق بالاتجاه شرقا . وفوض كولبس أخاه فى جس نبض هنرى السابع ملك إنجلترا فدعاه إلى مقابلته ولكن عند ما وصلت الدعوة إلى كولبس كان قد وضع نفسه فى خدمة أسبانيا . وكان عندئذ (١٤٨٨) فى حوالى الثانية والأربعين من عمره . طويلا نحىلا له وجه مستطيل وبشرة حمراء قانية وأنف معقوف وعينان زرقاوان بوجهه نمش وشعره أحمر فاتح بدأت تتخلله الشجرات البيضاء ويوشك أن يشتعل شديا ، وقد وصفه ابنه وأصدقاه

بأنه رجل متواضع ، رزين ، وديع ، فطن ، معتدل فى طعامه وشرابه ، تقى للغاية . وزعم آخرون أنه كان معجبا بنفسه ، يعرض الألقاب التى منحت له ويبالغ فيها وأنه رفع أجداده إلى طبقة النبلاء فى خياله وكتاباتهِ وأنه ساوم بشدة للحصول على نصيب من ذهب العالم الجديد . ومهما يكن من أمر فإنه كان يستحق أكثر مما طلب : وكان بين الفينة والفينة ينحرف عن العمل بالأوصايا العشر فقد حدث فى قرطبة أن أنجبت منه بياتريس انريكيث ولدا غير شرعى عام ١٤٨٨ وذلك بعد وفاة زوجته . ولم يتزوج منها كولبس وإن كان قد وفر لها كل شئ فى حياته ولم ينسها فى وصيته ولما كان معظم عليه القوم فى تلك الأيام النشيطة قد أنجبوا أبناء من علاقات عارضة فإنه يبدو أن أحدا لم يعرف هذا الحادث اهتماما .

وفى غضون ذلك كان قد قدم التماسه إلى إيزابيلا صاحبة قشطالة (أول مايو سنة ١٤٨٦) فأحالتها إلى جماعة من المستشارين يرأسهم صاحب القداسة رئيس أساقفة طلبيرة . وبعد أن تشاوروا طويلا قدموا تقريراً ذكروا فيه أن الخطة غير عملية واحتجوا بأن آسيا تقع على مسافة أبعد من ناحية الغرب مما ظن كولومبس ومع ذلك فإن فرديناند وإيزابيلا منحاه راتباً سنوياً قدره ١٢٠٠٠ مارافيدس (٨٤٠ دولاراً ؟) وزوداه عام ١٤٨٩ بخطاب يأمران فيه كل البلديات الأسبانية بأن توفر له الطعام والمأوى ولعلهما كانا يريدان أن يحتفظا بحق الاختيار بالنسبة لمشروعه لئلا يمنع قارة الملك منافس بطريق المصادفة ولما رفضت لجنة طلبيرة المشروع مرة أخرى بعد أن تداولت بشأن الخطة قرر كولومبس أن يقدم المشروع إلى شارل الثامن ملك فرنسا غير أن فرانسوا جوان بيريز رئيس رهبان دير لارايدا أثنائه عن عزمه ورتب له مقابلة مع إيزابيلا فأرسلت إليه ٢٠٠٠٠ مارافيدس لمواجهة نفقات رحلته إلى مقر قيادتها فى مدينة سانتافى المحاصرة

وذهب هناك واستمعت في رقة إلى حجته ولكن مستشاريها عارضوا الفكرة مرة أخرى فاستأنف استعداداته للذهاب إلى فرنسا (يناير سنة ١٤٩٢) .

وعند هذه المرحلة الحرجة حرك يهودى متنصر سير التاريخ فقد لام لويس دى سانتاندر ، وزير مالية فرديناند ، إيزابيلا لافتقارها إلى الخيال والعزيمة ، وأغراها وذلك بأن لوح لها بالأمل فى أن تحول آسيا إلى المسيحية واقترح أن يمول الحملة بنفسه بمعاونة أصدقائه وأيده فى نكرته يهود آخرون - دون إيزاك أبرابانل Abrabanel وخوان كابريرو وأبراهام سنيور ، وتأثرت إيزابيلا بالفكرة وعرضت أن ترهن جواهرها لرفع قيمة المبلغ المطلوب ولكن سانتاندر رأى أن هذا الإجراء غير ضرورى واقترح مبلغ ١٤٠٠.٠٠٠ مارافيدس من جماعة الرهبان التى كان أمينا لصندوقها وأضاف إليه مبلغ ٣٥٠.٠٠٠ من جيبه الخاص كما حصل كولومبس بطريقة ما على مبلغ ٢٥٠.٠٠٠ علاوة على ما سبق .

وفى السابع عشر من أبريل عام ١٤٩٢ وقع الملك الأوراق الضرورية ثم أعطى عندئذ أو بعد ذلك لكولومبس خطابا إلى خان كاثاي ، وكان هذا فى الصين وليس فى الهند التى كان يأمل كولمبس أن يصل إليها والذى ظن حتى آخر لحظة فى حياته أنه قد اكتشفها .

وفى الثالث من أغسطس أبحرت سانتاماريا (سفينة أمير البحر) وبنتا ونيينا Nina من بالوس وعلى ظهرها ثمانية وثمانون رجلا وموئن تكفيهم لمدة عام .

٢ - أمريكا

واتجهوا جنوباً نحو جزر كانارى ينشدون الرياح من "شرق قبل أن يواجهوا الغرب . وبعد إقامة طويلة في الجزر أقدموا على السير في خط مواز لخط عرض ثمان وعشرين (٦ سبتمبر) في مكان لا يبعد جنوباً بدرجة تكفى لينعموا بالرياح التجارية ونحن نعلم أنهم لو اتجهوا جنوباً أكثر من ذلك لقصروا المسافة إلى أمريكا وجنّبوا أنفسهم ما لاقوه من عناء في طريقهم إليها وكان الطقس لطيفاً وكتب كولمبس في سجل سير السفينة « مثل جو أبريل في الأندلس والشئ الوحيد الذى ينقصنا هو سماع صوت البلابل » . واعتراهم القلق ثلاثة وثلاثين يوماً وكان كولمبس يقلل من المخصصات الغذائية التى تصرف لرجاله بنسبة الأميال التى يقطعونها كل يوم ولكن نظراً لأنه بالغ في تقدير سرعته فإن بياناته كانت صحيحة رغم أنه .

وعندما استمر سكون الرياح غير طريقه وإذ ذاك شعر البحارة ، أكثر من أى وقت مضى - بالضيق فى خضم البحر وهم يسرون فيه على غير هدى : وفى التاسع من أكتوبر صعد ربانا السفينتين بنتا ونيثيا على ظهر سفينة القيادة وطالبا بإلحاح بالعودة فوراً إلى إسبانيا فوعدهما كولمبس بأنه سيحقق رغبتهما إذا لم يروا الأرض خلال ثلاثة أيام وفى العاشر من أكتوبر تمرد بحارة سفينته ولكنه هدأ من ثورتهم بأن تعهد لهم بنفس الشئ . وفى الحادى عشر من أكتوبر التقطوا من المحيط غصنا أخضر يحمل أزهاراً فعادوتهم الثقة فى قائدهم . وفى الساعة الثانية من صباح اليوم التالى والقمر بدر تقريباً صاح رودريجو دى تريانا القائم بالحراسة (الأرض ! الأرض !) أخيراً ها هى الأرض ..

وعند ما أقبل الفجر رأوا جماعة من الوطنيين العراة على الشاطئ وكلهم معتدلو القامة . واستقل القباطنة الثلاثة قارباً بصحبة رجال مسلحين جدفوا بهم نحو الشاطئ وركبوا وقبلوا الأرض وحمدوا والله وأطلق كولبس على الجزيرة اسم سان سلفادور المخلص المقدس -- واستولى عليها باسم فرديناند وايزابيلا والمسيح . واستقبل المتوحشون مستعبيهم في المستقبل بدمئة المتحضرين . وكتب أمير البحر : « ما دمت قد عرفت أنهم قوم يمكن تحريرهم وهدايتهم إلى أبينا المقدس عن طريق الحب لا القهر فلكى نكسب صداقتهم أعطيت لبعضهم قلانس حمراء وللبعض الآخر خرزاً وأشياء أخرى كثيرة تافهة القيمة سرتهم كثيراً . ولقد ظلوا أصدقاء أوفياء لنا وهذه أعجوبة . واقبلوا فيما بعد ساجين إلى قوارب السفينة وأحضروا معهم ببغاوات وخيوطاً من القطن . . وأشياء أخرى كثيرة فأعطيناهم في مقابلها خرزات صغيرة . . . وأخيراً تبادلوا معنا كل ما يملكون وهم راضون كل الرضى » .

ولعل خبر « المتوحش المسالم السلس » الذى فتن روسو وشاتوبريان وهويتان قد بدأ عندئذ وفى ذلك المكان ولكن كان من بين الأمور التى عرفها كولبس عن الجزيرة أن هؤلاء الوطنيين كانوا عرضة لغارات تقوم بها جماعات أخرى من الوطنيين لاسترقاقهم وأنهم أنفسهم أو أسلافهم تغلبوا على أهالى البلد الأصليين . وبعد رسوهم بيومين كتب فى يومياته ملاحظة مشؤمة : « إن هؤلاء الناس غير حاذقين فى استخدام الأسلحة ويمكن إخضاعهم بخمسين رجلاً وحملهم على القيام بكل ما يريده المرء » . ولكن لم يكن فى سان سلفادور للأسف أى ذهب . وفى الرابع عشر من أكتوبر أقلع الأسطول الصغير بحثاً عن سيبانجو - اليابان - والذهب . وفى الثامن والعشرين من أكتوبر رسوا على كوبا وهناك أحسن الأهالى بدورهم التصرف وحاولوا أن ينضموا لضيوفهم فى إنشاد (ايف ماريا) وبدلوا جهدهم فى رسم علامة

الصليب . وعندما عرض عليهم كولومبس الذهب أبدوا له ما يدل على أنه سيجد بعضه في نقطة بالداخل أطلقوا عليها اسم كوبانا كان — أى وسط كوبا — واعتقد أنهم يقصدون بهذا الخان العظيم أو خان الصين العظيم فأرسل أسبانيين معهما أوراق اعتماد دبلوماسية ليجدا هذا الحاكم الماروغ وعادا دون أن يلتقيا بالخان وإن كانا قد جاءا بقصة ممتعة عن الحفاوة التى استقبلا بها فى كل مكان كما أنهما قدما أول تقرير للأوروبيين عن التبغ الأمريكى فقد شاهدوا رجلا وامرأة من الأهالى يدخان أعشاب التبغ وهى ملفوفة فى سيجار أدخلاه فى الأنف وغادر كولبس كوبا وهو يشعر بخيبة الأمل (٤ ديسمبر) وأخذ معه عنوة خمسة من شباب الوطنين ليقوما بمهمة الترجمة وسيع نساء للترفيه عنهم وقد مات الجميع وهم الطريق إلى أسبانيا .

وفى غضون ذلك كان مارتين ألونزو وبيزون الربان الأول فى أسطول كولبس قد هجره وانطلق بسفينته لينقب عن الذهب لحسابه الخاص . وفى الخامس من ديسمبر وصل كولبس إلى هايتى وهناك ظل أربعة أسابيع وهو يلاقى من الأهالى كل ترحيب وحفاوة . وعثر على بعض الذهب وشعر أنه غدا قاب قوسين أو أدنى من الخان ولكن سفينته المعقود لها لواء القيادة اصطدمت بسلسلة من الصخور وحطمتها الأمواج والصخور عشية يوم عيد الميلاد الذى كان قد فكر بالاحتفال به كأسعد يوم فى حياته . ومن حسن الحظ أن السفينة نينيا كانت على مقربة منه فأنقذت البخار واقتحم الأهالى الطيبون أمواج البحر فى قواربهم للمعاونة فى إنقاذ معظم الشحنة قبل أن تغرق السفينة وواسى زعيمهم كولبس فعرض عليه ضيافته وقدم له الذهب وأكد له أن هناك كمية وفيرة من هذا المعدن القاتل فى هايتى . فحمد أمير البحر الله على الذهب وسامحه على تحطيمه لسفينته وكتب فى يومياته أن فرديناند وايزابيلا سيكون عندهما الآن من الأموال ما يكفى لغزو الأرض المقدسة . وتأثر بسلوك الأهالى الحسن فترك قسما من بحارته يتوطنون لارتياذ الجزيرة

بينما عاد إلى إسبانيا ليقدم تقريراً عن اكتشافاته . وفي السادس من يناير سنة ١٤٩٣ عاد بنزون وانضم إليه بسفينته بنتا وقبل كولمبس اعتذاره فقد كان يمقت العودة وليس معه إلا سفينة واحدة . وفي السادس عشر من يناير بدأ رحلة العودة للوطن .

كانت رحلة طويلة تعسة فطوال شهر يناير كانت الرياح معاكسة وفي الثاني والعشرين من فبراير هبت ريح عاصفة صهغت السفينتين الصغيرتين ولم يكن طول كل منهما يتجاوز سبعين قدماً وبينما كان كولومبس ورفيقه يقتربان من شاطئ الأزور تخلى عنه بنزون مرة أخرى مؤملاً أن يكون أول من يصل إلى أسبانيا بالأنباء العظيمة عن اكتشاف آسيا وألقت السفينة نينيا مراسيها بعيداً عن سانتا ماريا في شاطئ لأزور (١٧ فبراير) وانطلق نصف البحارة إلى الشاطئ للقيام بالحج إلى مزار للعدراء فاعتقلتهم السلطات البرتغالية وألقت بهم في السجن لمدة أربعة أيام بينما كان كولمبس يتميز غيظاً على الشاطئ ثم أطلق سراحهم وأقلعت السفينة نينيا مرة أخرى ولكن عاصفة أخرى دفعها بعيداً عن طريقها المرسوم ومزقت قلوغها فاغتم البحارة ونذروا أن يقضوا أول يوم يطلأون فيه الأرض صائمين على الخبز والماء وأن يعملوا بالوصايا العشر . وفي الثالث من مارس رأوا شاطئ البرتغال وعلى الرغم من أن كولمبس علم أنه كان يخاطر بالوقوع في ورطة دبلوماسية فإنه قرر أن يرسو في لشبونة وفضل هذا على محاولة قطع الأميال المائتين وخمسة عشرين الباقية للوصول إلى باولوس مستعينا بقلع واحد . واستقبله جون الثاني بحفاوة ورممت السفينة نينيا وفي الخامس عشر من مارس وصلت إلى باولوس بعد « عناء وهول لا حد لهما » (كما قال كولمبس) بعد مرور ١٩٣ يوماً من مغادرة ذلك الميناء . وكان مارتن بنزون قد رسا شمالاً إسبانيا قبل ذلك بيضعة أيام وبعث برسالة إلى فرديناند وإيزابيلا ولكنهما

رفضاً أن يقابله هو أو رسوله ودخلت السفينة بنتا باولوس بعد يوم من وصول السفينة نينيا وفر بنزون يغمره الفزع ويجلله العار الذى جلبه على بطنه ولازم فراشه حتى مات .

٣ — مياه المرارة

ورحب الملك والملكة بـكولومبس فى برشلونه وعاش فى البلاط ستة شهور وأنعم عليه بلقب «أمير البحر الاوقيانوس» ويقصده الأطلنطى غرب شواطئ الأزور » . ونصب حاكماً على العالم الجديد أو كما وصف نفسه « نائب الملك وحاكم عام الجزر وأراضى آسيا والهند » . وعند ما شاع أن جون الثانى يجهز أسطولاً لعبور الأطلنطى استغاث فرديناند بالبابا الكسندر السادس . وطلب منه أن يحدد حقوق أسبانيا فى « البحر الأوقيانوس » فعين البابا الأسباني ، فى سلسلة من المنشورات (١٤٩٣) لأسبانيا ملكية كل الأراضى التى لا تدين بالمسيحية فى الغرب ، ولبرتغال كل الأراضى فى الشرق ويفصل بينهما خط وهمى مرسوم بحيث يمر من الشمال إلى الجنوب على بعد ٢٧٠ ميلاً غرب الأزور وجزر الرأس الخضراء ولكن البرتغاليين رفضوا قبول هذا الخط الفاصل وأوشكت الحرب أن تنشب بين الحكومتين المتنافستين لولا أنهما وافقتا فى معاهدة تورد سيسلاس (٧ يونيه سنة ١٤٩٤) على أن يمر ذلك الخط موازياً لخط الزوال الطولى على بعد ٢٥٠ فرسخاً غرب جزر الرأس الخضراء بالنسبة للاكتشافات التى تمت قبل ذلك التاريخ ، ولكن على بعد ٣٧٠ فرسخاً غرباً بالنسبة للاكتشافات التى تم بعد ذلك . (يقع الطرف الشرقى للبرازيل شرق هذا الخط الثانى) وقد أطلقت منشورات البابا على الأرض الجديدة « جزر الهند » وقبل العلماء أمثال بييترو مارتيرى وانجييرا رأى كولومبس بأنه قد وصل إلى آسيا واستمر هذا الوهم حتى طاف ماجلان حول الكرة الأرضية .

وقام فرديناند وإيزابيلا يحدوهما الأمل في الحصول على الذهب بتزويد كولومبس بأسطول جديد يتكون من سبع عشرة سفينة مجهزة بألف ومائتى بحار وحيوانات للشروع في تربية قطعان من الماشية والأغنام في جزر الهند وخمس من رجال الدين لتلقى اعترافات الإسبانين ولهداية «الهنود» . وقد بدأت الرحلة الثانية من اشبيلية يوم ٢٥ سبتمبر سنة ١٤٩٣ وبعد تسعة وثلاثين يوما (مقابل سبعين يوماً في الرحلة الأولى) شاهد الحارس جزيرة أطلق عليها كولمبس اسم «دوميزكا» لأنهم كانوا في يوم الأحد . ولم ينزلوا إلى الأرض هناك لأن أمير البحر اشتم رائحة فريسة أكبر . ومر خلال مجموعة جزر الأنثيل الصغرى في أقصى الغرب وتأثر كثيرا بعددها فأطلق عليها اسم «إحدى عشر ألفاً من العذارى» . وهى لاتزال جزراً عذراء وتابع رحلته واكتشف بويرتوريكو ، وتمهل هناك قليلا ثم أسرع ليرى ما حدث للمستوطنين الإسبان الذين تركهم في هايتى منذ عشرة شهور فلم يجد منهم رجلا على قيد الحياة ، إذ أن الأوروبيين طافوا بالجزيرة وسطوا على ذهب الأهالى وسبوا نساءهم وأقاموا فردوسا استوائيا عاش فيه كل رجل مع خمس نساء وتنازعوا فيما بينهم وقتل بعضهم بعضا أما الباقون فقد قضى عليهم الهنود الذين انتهكت حرماهم .

وسارت سفن الأسطول شرقاً بجذاء شاطئ هايتى ، وفى الثانى من يناير عام ١٤٩٤ أنزل أمير البحر رجلا وشحنة لتأسيس مستعمرة جديدة أطلق عليها اسم «إيزابيلا» . وبعد أن أشرف على بناء مدينة وبعد ترميم سفنه سافر ليرتاد كوبا . وعندما عجز عن الطواف حولها استنتج أنها قارة آسيا ولعلها شبه جزيرة الملايو . وفكر فى الالتفاف حولها والدوران بالكرة الأرضية ولكن سفنه لم تكن مجهزة لهذه الرحلة ؛ فعاد إلى هايتى (٢٩ أكتوبر سنة ١٤٩٤) وهو يتساءل ماذا حدث لمستعمرة الجديدة . وصدم عندما وجد أنها تصرفت كالمستعمرة السابقة وأن الإسبانين اغتصبوا

النساء الوطنيات ونهبوا مخازن طعام الأهالى وخطفوا أولاد الوطنيين ليخدهم وهم كالعبيد وأن الوطنيين قتلوا كثيراً من الإسبان على سبيل الانتقام . وقامت البعثات التبشيرية بمحاولة صغيرة لتنصير الهنود وانضم راهب إلى جماعة الساخطين الذين عادوا إلى إسبانيا ليقدموا للملك والمملكة تقريراً لا يشجع عن موارد هايتى الذائعة الصيت . وقد أصبح كولومبس نفسه الآن تاجراً للعبيد إذ أرسل حملات لأسر ١٥٠٠ وطنى وأعطى للمستوطنين أربعمئة سن هؤلاء وبعث إلى إسبانيا بخمسمئة مات منهم مائتان أثناء الرحلة وبيع الباقون فى إشبيلية ولكنهم ماتوا بعد بضع سنوات بعد أن عجزوا عن تكييف أنفسهم مع المناخ البارد ، ولعلمهم لم يهتموا همجية المدنية وترك كولومبس لأخيه تعليمات بنقل المستعمرة من إيزابلا إلى موقع أحسن فى سانتو دومينجو (ثيوداد تريخيلو الآن) وسافر إلى إسبانيا (١٠ مارس سنة ١٤٩٦) ووصل إلى قادس بعد رحلة تعسة استمرت ثلاثة وتسعين يوماً . وأهدى للملك والمملكة الهنود وسبائك الذهب ولم تكن بالكثير ، إلا أنها خففت من الشكوك التى ثارت لدى البلاط حول الحكمة من صب مزيد من الأموال فى الأطلنطى ولم يشعر أسير البحر بالارتياح وهو فوق الأرض ، فقد كان ملح البحر يجرى فى عروقه فالتمس تزويده بثانى سفن على الأقل للقيام بمحاولة أخرى بحثاً عن الثروة ، ووافق الملك والمملكة فى مايو عام ١٤٩٨ سافر كولومبس مرة أخرى . وقد اتجهت الرحلة الثالثة نحو الجنوب الغربى إلى خط عرض عشرة ثم سارت غرباً فى هذا الخط المستقيم . وفى الحادى والثلاثين من يوليو شاهد البحارة جزيرة كبيرة أطلق عليها القائد التقى اسم « ترينيداد » . وفى الحادى والثلاثين من أغسطس رأى قارة أمريكا الجنوبية وربما كان ذلك قبل أو بعد فسبوتشى . وبعد استكشاف خليج باريا أبحر — نحو الشمال الغربى ووصل إلى سانتو دومينجو يوم ٣١ أغسطس فوجد أن المستعمرة الثالثة قد بقيت ولكن كان ربيع الخمسمئة من الإسبان الذين تركهم عام ١٤٩٦

يشكون من مرض الزهري ، وانقسم المستوطنون إلى فريقين متعادين وكانا عندئذ على حافة الحرب . ولتهدة التدمر أقطع كولبس كل رجل مساحة كبيرة من الأرض وسمح له باسترقاق الوطنيين والإقامة فيها ، وأصبحت هذه قاعدة تتبع في المستعمرات الأسبانية ، وأنهمكت الصواب وخيبات الأمل وداء النقرس ومرض في العينين قوى كولومبس في ذلك الوقت فانهار تحت وطأة هذه المشكلات وكان ذهنه يتكدر بين الفينة والفينة وأصبح يستثار بسهولة ؛ متدمرا مستبدا ، شحيحا ، جائرا في عقابه أو هذا على الأقل ما زعمه كثير من الأسبان فقد تميزوا من الغيظ تحت حكم رجل إيطالي . وأدرك أن مشكلات إدارة المستعمرة كانت دخيلة عليه بالنسبة لتدريبه ومزاجه . وأرسل في أكتوبر عام ١٤٩٩ بعثتين إلى أسبانيا مع التماس لفرديناند وإيزابيلا لتعيين نائب للملك يساعده في حكم الجزيرة .

وأخذ الملك بكلمته وعينا فرانشيسكو دي بوباديليا ولكنهما ذهبا إلى أبعد مما طلب أمير البحر فدخلوا ناهبهما سلطة كاملة بل سلطة تفوق سلطة كولبس . ووصل بوباديليا إلى سانتو دومينجو بينما كان كولبس غائبا وسمع كثيرا من الشكايات من الأسلوب الذي كان يحكم به كريستوفورو وأخواه بارتولومي ودييجو ما تسمى الآن باسم هسبانيولا وعندما عاد كولومبس ألقى به بوباديليا في غياهب السجن والأغلال في ذراعيه والسلاسل في قدميه وبعد إجراء تحقيق أرسل النائب الإخوة الثلاثة إلى أسبانيا (أول أكتوبر عام ١٥٠٠) وعندما وصل كولومبس إلى قادس كتب خطابا مؤثرا إلى أصدقائه في البلاط « لقد انقضت سبعة عشر عاما منذ حضرت لأخدم هذين الأميرين بمشروع جزر الهند ، ولقد أضاعا من عمرى ثمانية أعوام في النقاش وفي النهاية رفضاه كأن الأمر دعاة . ومع ذلك لم أياس . . . وها أنذا قد وضعت هناك تحت إمرتهم أرضا تزيد عما

لديهم في أفريقيا وأوروبا وأكثر من ١٧٠٠ جزيرة . . . وفي سبع سنوات قمت أنا بمشيئة الله ، بهذا الغزو ، وفي الوقت الذى كنت أنتظر فيه المكافأة وأنطلق إلى التقاعد قبض على بلا جريرة وأرسلت للوطن مصفدا بالأغلال . . . ووجهت إلى تهمة الحقد على أساس الاتهامات التى وجهها لى مدنيون ثاروا وأرادوا الاستيلاء على الأرض . . . لئى أرجو من مراحكم أن تقرأوا جميع أوراقى بحماسة المسيحيين الخاصين الذين وضع فيهم سموهما ثقتهم وأن تفكروا مليا كيف ألوث شرفى وخلقى فى أواخر أيامى دون سبب ، أنا الذى جاء من أقصى البلاد لخدمة هذين الأميرين دون أن ألقى منهما عدالة ولا رحمة » .

وكان فرديناند مشغولا بتقسيم مملكة نابلى مع اويس الثانى عشر ، ومرت ستة أسابيع قبل أن يأمر بإطلاق سراح كولومبس وأخويه ودعوتهم إلى البلاط واستقبلهم الملك والمملكة فى قصر الحمراء وواسياهم وأعدا لهم الاعتبار وإن كانوا لم يصلوا إلى سلطاتهم فى العالم الجديد . وكان الملكان ملزمين بشروط التسليم أو الانفاقية التى وقعها عام ١٤٩٢ بتحويل كولومبس ساطانا كاملا على الأراضى التى اكتشفها ، ولكنهما شعرا بأنه لم يعد جديرا بممارسة هذه السلطة فعينا دون نيكولاس دى أوفاندو حاكما جديدا على جزر الهند . ومهما يكن من أمر فإنهما سمحا لأسير البحر أن يحصل على كل حقوقه سن أملاكه فى سانتو دومينجو وكل ما يستحق له حتى ذلك الوقت من التنقيب عن الذهب ومن التجارة . وعاش كولومبس ما بقى سن عمره فى رغد من العيش . ولكنه لم يكن راضيا . وألح على الملك والمملكة أن يمدها بأسطول آخر ومع أنهما لم يتبينا بعد ما إذا كان « مشروع جزر الهند » سيعود عليهما بربح صاف فإنهما شعرا بأنهما يدندان له بمحاولة أخرى . وبدأ كولومبس رحلته الرابعة من قادس بأربع سفن على شاطئها مائة وأربعون رجلا منهم أنخوه

بارتولومى وابنه فرناندر ، وذلك فى اليوم التاسع عام ١٥٠٢ . وفى التاسع والعشرين من يونيه أحس بزوبعة فى الجو وفى مفاصله ، فرسا فى بقعة آمنة من شاطئ هايتى قرب سانت دومينجو ، وكان فى الميناء الرئيسى ثلاثون سفينة على وشك الإبحار إلى إسبانيا . وبعث كولومبس برسالة إلى الحاكم يبلغه فيها بأن إعصاراً سوف يهب وأشار عليه بأن يؤخر سفر السفن قليلاً . ولكن أوفاندو أعرض عن هذا التحذير وأرسل الأسطول وهبت الزوبعة الهوجاء ونجت منها سفن أمير البحر ولم يصبها إلا أقل الضرر ، أما سفن أسطول الحاكم فقد تحطمت جميعاً إلا واحدة وغرق خمسمائة رجل ومنهم بوبادىلا وغاصت فى أعماق البحر شحنة من الذهب .

رئيس من شك فى أن كولبس بدأ عندئذ أصعب الشهور الحافلة بالأسى فى حياته المضطربة — فقد استأنف سيره غرباً ووصل إلى هندوراس وارتاد شاطئ نيكاراغوا وكوستاريكا مؤملاً أن يجد مضيقاً يتيح له أن يطوف بالأرض : وفى الخامس من ديسمبر عام ١٥٠٢ هبت ريح عاصفة مصحوبة بالمطر وصف كولومبس فى يومياته قوتها العاتية : « ظلت تأتها لمدة تسعة أيام وضاعت كل بارقة أمل لى فى الحياة . لم تر عينائى قط بحراً كهذا هائجاً على الأمواج ، يغطيه الزبد . إن الرياح لم تمنع تقدمنا فحسب بل لأنها لم تمنح لنا أية فرصة للسير وراء لسان من الأرض يعتصم به من العاصفة ومن ثم اضطررنا إلى مواصلة السير فى هذا المحيط الملعون ونحن نتقلب فيه كالقدر حين يغلى على النار ، ولم تبد السماء قط مخوفة كما بدت فى هذا اليوم فقد ظلت يوماً وليلة ترسل شواظاً من نار يلسعنا كألسنة اللهب . وتفجر البرق بشدة حتى أننى كنت فى كل مرة أتساءل عما إذا كانت الرياح قد حطمت صوارى وانتزعت قلعوى . وكانت ومضات البرق تتوالى بعنف وبصورة مروعة حتى اعتقدنا جميعاً أن السفن توشك أن تنفجر .

ولم تتوقف الأمطار عن الماطل طوال ذلك الوقت . وأنا لا أقول إنها كانت تمطر فقد كانت المياه تتدفق حتى خيل إلى أنه طوفان آخر . وكان الرجال منهوكى القوى وتمنوا الموت ليضع حداً لآلامهم المروعة » .

وإلى جانب ما كانت تحدثه الرياح والمطر والبرق وسلسلة الصخور القريبة من فزع فقد هب إعصار عاقص ينشر الرذاذ البحر وكان قريباً جداً إلى درجة الخطورة من السفن وبدأ يقذف المساء إلى أعلى بحيث يطاول السحب فتناول كولمبس كتابه المقدس وقرأ فيه كيف هذا المسيح العاصفة في كابيرناوم ثم تعوذ من الإعصار ورسم صليبا في السماء بسيفه وإذا ذلك يقال لنا إن قمة الماء انهارت وانتهى هياج البحر بعد مرور اثني عشر يوماً مروعة ، ورسا الأسطول في ميناء قرب الطرف الشرقى الحالى لقناة بناما، وهناك احتفل كولومبس ورجاله بعيد الميلاد عام ١٥٠٢ وبرأس السنة الجديدة عام ١٥٠٣ وقلوبهم مثقلة بالحزن دون أن يدور بخلداهم أن المحيط الهادى لا يبعد عنهم إلا أربعين ميلا .

وتوالت المصائب . فبينما كان ثلاثة عشر بحاراً يجذفون فى قارب من قوارب سفينة القيادة نحو النهر للحصول على ماء عذب هاجهم الهنود ولقى جميع الأسبان مصرعهم ما عدا رجلاً واحداً وضاع القارب . واضطروا إلى التخلي عن سفينتين أتى السوس عليهما ولم تعودا صالحتين للملاحة أما السفينتان الباقيتان فقد كان بهما كثير من الخروق وكان لا بد من تشغيل المضخات ليل نهار وأخيراً أثبت السوس أنه أقوى من الرجال ولم يكن هناك بد من إرساء السفينتين الباقيتين على شاطئ جامايكا (٢٥ يونيو سنة ١٥٠٣) ه وهناك أقام البحارة البائسون سنة وخمسة شهور وكانون يعتمدون فى طعامهم على صداقة الأهالى المتقلبة والذين لم يكن لديهم أنفسهم ما يستغنون عنه إلا النذر القليل . وتطوع ديجو منديز ، الذى كان لرباطة جأشه فى مواجهة كل هذا الضيق الفضل فى عدم تردى كولمبس فى هوة اليأس ، أن يرأس

جماعة من ستة من المسيحيين وعشرة من الهنود ويستقلوا قارباً منحوتاً من من جذع شجرة لقطع ٤٥٥ ميلاً — منها ثمانون ميلاً لا ترى بالبصر من فوق الأرض — إلى سانتو دومينجو لطلب النجدة . ونفذ زادهم من الماء في تلك المغامرة ومات بضعة هنود . ووصل منديز إلى هدفه ولكن أوفاندو لم يقدم أو يستغنى عن سفينته حتى مايو عام ١٥٠٤ لنجدة أمير البحر . وما أن حل شهر فبراير حتى خفض هنود جامايكا هداياهم من الطعام للملاحين الذين جنحت سفنهم إلى الحد الذي بدأ فيه الأسبان يتضورون جوعاً ، وكان مع كولمبس تقويم رجيومونتانوس الفلكي الذي جاء بحساباته خسوف للقمر يوم ٢٩ فبراير ، فاستدعى زعماء الوطنين وأنذرهم بأن الله غاضب بسبب سماحهم بتجوير رجاله وأنه سيحجب عنهم ضوء القمر فسخروا منه ولكن عندما بدأ الخسوف سارعوا بإحضار الطعام إلى السفن . وعندئذ طمأنهم كولمبس وقال إنه دعا الله أن يعيد للقمر ضيائه وأنه وعده سبحانه وتعالى أن الهنود سيطمعون المسيحيين جيداً بعد هذا . وعاد القمر للظهور .

ومرت أربعة شهور أخرى قبل أن يصلهم العون وحتى ذلك الوقت كانت السفينة التي أرسلها أوفاندو قد اتسعت خروقتها فلم يكن أمامها إلا أن تعود إلى سانتو دومينجو وسافر كولومبس مع أخيه وابنه في سفينة أشد متانة إلى إسبانيا فوصلوا في اليوم السابع من نوفمبر بعد رحلة طويلة واجهوا فيها العواصف ، واغتم الملك لأنه لم يعثر على مزيد من الذهب ولم يكتشف مضيعة يوصل إلى المحيط الهندي ، ولم يجد فرديناند وايزابلا التي كانت تحتضر ، وقتا لمقابلة البحار الذي اشتعل رأسه شديداً بعد عودته أخيراً من البحر . وكانت عشوره « من هايتي لا تزال تدفع له . . . وكان يشكو من داء النقرس لا من الفاقة . وعندما وافق فرديناند أخيراً على مقابلة كولمبس لم يستطع أمير البحر وقد بدا أكبر عمراً من سنواته الثمانية والخمسين . أن يتحمل مشاق الرحلة إلى بلاط الملك في سيجوفيا إلا بصعوبة بالغة وطالب بالألقاب والحقوق

والدخول التي وعد بها عام ١٤٩٢ ، فاعترض الملك وعرض عليه ضيعة كبيرة في قشتالة فرفض كولمبس . ولاحق البلاط إلى سلمنقة وبلد الوليد ، وهناك مات يوم ٢٠ مايو سنة ١٥٠٦ محطم الجسد كسير الفؤاد ولم يتيسر قط لأحد أن يعيد رسم خريطة الأرض على هذا النحو .

٤ — المنظور الجديد

والآن بعد أن أضاع كولمبس الطريق اندفع مائة ملاح آخر إلى العالم الجديد ، ويبدو أن هذا الاسم قد استخدمه لأول مرة تاجر فلورنسي يطلق اسمه الآن على الأمريكيتين فقد أرسل آل مديتشى إلى اسبانيا أميريجو فسبوتشى ليقوم على شئون مصرف فلورنسي وفاز عام ١٤٩٥ بعقد ينص على إعداد اثنتى عشرة سفينة لفرديناند وأصيب بحمى الكشف وزعم في خطابات أرسلها فيما بعد (١٥٠٣ — ١٥٠٤) لأصدقاء في فلورنسا أنه قام بأربع رحلات إلى ما أسماه بالعالم الجديد وأنه في إحدى هذه الرحلات في اليوم السادس عشر من يونيه عام ١٤٩٧ ، وصل إلى قارة أمريكا الجنوبية . ولما كان جون كابوت قد وصل إلى جزيرة كيبيك بریتون في خليج سانت لورانس في اليوم الرابع والعشرين من يونيه عام ١٤٩٧ وشاهد كولمبس فنزويلا عام ١٤٩٨ فإن قصة فسبوتشى تنسب له أنه كان أول أوروبي وصل إلى قارة في نصف الكرة الغربى منذ عهد لايف اريكسون (سنة ١٠٠٠) ولكن ما اتسمت به روايات فسبوتشى من عدم الدقة وما خالطها من اضطراب ألقى ظلالة من الشك على مزاعمه ومما يجدر ذكره أن كولمبس ، والذي كان في وسعه عندئذ أن يحكم على مدى وثوق أخبار فسبوتشى عهد إليه عام ١٥٠٥ بخطاب لتسليمه إلى ديجو ابن أمير البحر . وفي سنة ١٥٠٨ نصب فسبوتشى كبيراً لجميع الرابانة في أسبانيا واحتفظ بهذا المنصب حتى وفاته .

وقد نشرت نسخة لانيذية من إحدى رسائله في سيان ديهيه (اللورين)

في أبريل عام ١٥٠٧ . واستشهد مارتن فالديسيمولر ، أستاذ (الكوزموجرافيا) علم الكون بجامعة سان دييغو ، بهذا الخطاب في « مقدمة لعلم الكون » الذي نشره هناك في تلك السنة وقبل رواية فسبوتشي واعتبرها جذيرة بالثقة واقترح أن يطلق اسم أمريكي على ما نسميها الآن أمريكا الجنوبية .

وفي سنة ١٥٣٨ استخدم جير هاردوس ميركانور اسم « أمريكا » في إحدى خرائطه الشهيرة وأطلقه على كل نصف الكرة الغربي . ومن المتفق عليه أن فسبوتشي قام عام ١٤٩٩ إن لم يكن عام ١٤٩٧ ، مع ألونزو دي أوكيد بارتياش شاطئ فنزويلا وفي سنة ١٥٠٠ عقب اكتشاف كابرال مصادفة للبرازيل ارتاد فيسنت Vicente بنزون ، وكان ربانا للسفينة نينيا في رحلة كولمبس الأولى ، الشاطئ البرازيلي واكتشف الأمازون . وفي سنة ١٥١٣ شاهد فاسكونونيزدي بالبوا المحيط الهادئ واكتشف بونس دي ليون ، فولريدا ، وهو يحلم بالعثور على ينبوع الشباب . وكان للاكتشافات التي بدأها هنري الملاح وتبعه فيها فاسكودا جاما وبلغت أوجها في عهد كولمبس وانتهت بماجلان ، أثر في قيام أعظم ثورة تجارية في التاريخ قبل اختراع الطائرة . فتحت البحار الغربية والجنوبية للملاحة والتجارة وانتهت عهد البحر الأبيض المتوسط في الحضارة وبدأت عهد الأطلنطي . وكلما ازداد تدفق الذهب من أمريكا إلى أسبانيا ازداد التدهور الاقتصادي في ولايات البحر الأبيض المتوسط بل وفي تلك المدن الواقعة في جنوب المسانيا مثل أوجسبرج ولومبرج ، التي كانت ترتبط تجارياً بإيطاليا . ووجدت دول الأطلنطي في العالم الحديد مخرجاً لفائضها من السكان ولطاقاتها الاحتياطية ولحزمها ووجدت هناك أسواقاً رائجة لبضائعها الأوروبية . وازدهرت الصناعة في أوروبا الغربية وطالبت بالاختراعات الآلية وبأشكال أحسن من الطاقة مما أدى إلى الثورة الصناعية . واستوردت نباتات جديدة من أمريكا لإثراء الزراعة الأوروبية — البطاطس والطماطم والخرشوف والقرع العسلي

والدرة . وأدى تدفق الذهب والفضة إلى رفع الأسعار وتشجيع أصحاب المصانع وإنهاك قوى العمال وزيادة الدائنين والإقطاعيين وأثارت في أسبانيا حلم السيطرة على العالم وقضت عليه .

ولم تكن الآثار الأدبية والذهنية لهذه الاكتشافات بأقل من النتائج الاقتصادية والسياسية فقد انتشرت المسيحية فوق رقعة واسعة من نصف الكرة الأرضية وكسبت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية من الإنصار في العالم الجديد أكثر مما سلبهم منها الإصلاح الديني في العالم القديم . وتلقت أمريكا اللاتينية اللغتين الإسبانية والبرتغالية اللتين أثمرتا أدبا قويا مستقلا . ولم تتمسك أخلاق الأوروبيين بهذه الاكتشافات إذ تدفقت وحشية الأوربيين ، التي لا تخضع لقانون ، إلى أوروبا مع البحارة والمستوطنين العائدين وجاءت بالإفراط في العنف والشذوذ الجنسي . وتأثر الفكر الأوروبي كثيراً بالكشف عن هذه الشعوب والعادات والمعتقدات الدينية الكثيرة وعانت المذاهب الدينية من الاحتكاك المتبادل بل إنه في الوقت الذي كان البروتستانت والكاثوليك يشتبكون في حروب مدمرة من أجل مذاهبهم المتخاصمة فإن هذه المذاهب كانت تذوب في الشكوك التي يثيرها التثقيف وما يستتبع ذلك من تسامح .

يضاف إلى كل هذا أن الاعتزاز بالعمل الفذ ألهم العقل البشري في اللحظة التي كان فيها كوبرنيكوس على وشك أن يقلل من الأهمية الكونية للأرض وسكانها إذ شعر الناس أن شجاعة العقل البشري قد تغلبت على دنيا المادة . وأنكر الاختصار والشعار السائد في القرون الوسطى لجليل طارق - لا شيء خلفه - وأصبح هذا الشعار الآن - خلفه الكثير - وزالت كل الحدود وأصبح العالم مفتوحا وبدا كل شيء ممكنا . والآن بدأ التاريخ الحديث بموجة طاغية تنسم بالإقدام والتفاؤل .

الفصل الخامس عشر

أرازموس الراءد

١٤٦٩ - ١٥١٧

— تربية عالم بالإنسانيات

ولد أعظم عالم بالإنسانيات عام ١٤٦٦ أو عام ١٤٦٩ في روتردام أو بالقرب منها وهو الابن الثاني غير الشرعى لجيرارد وهو كاتب في أدنى الدرجات . وأمه مرجريت ابنة طيب وأرملة . ويبدو أن الأب رسم قسيسا عقب هذه الكارثة ولا ندرى كيف سمى الصبي بالاسم السخيف ديزيديريوس أرازموس ومعناه الحبيب المرغوب فيه . ولقد علمه مدرسه الأوائل القراءة والكتابة باللغة الهولندية ولكنه عند ما ذهب ليدرس مع إخوة الحياة المشتركة في ديفنترغرم لأنه كان يتحدث بلغته الوطنية فقد كانت اللغة اللاتينية هناك « الزاد الرئيسى للتعليم » وكانت التقوى تراعى بحزم كوسيلة من وسائل التربية والتهذيب — ومع ذلك فإن الإخوة كانوا يشجعون على دراسة كلاسيات وثنية مختارة وبدأ أرازموس في ديفنتر يمسك بزمام اللغة اللاتينية والأدب بصورة مذهلة .

ومات والده حوالى عام ١٤٨٤ وخلف الوالد ضيعة متواضعة لولديه ولكن الأوصياء عليهما بددوا معظمها ووجهوا الشابين اليافعين للانخراط في سلك الرهبنة لأنها لا تحتاج إلى امتلاك شىء على الإطلاق فاحتجا إذ كانا يرغبان في الالتحاق بالجامعة ، وأخيراً أمكن اغراؤهما — بوعد أرازموس بالحصول على كثير من الكتب كما قيل لنا . أما الابن الأكبر فقد رضى بمصيره وارتفع شأنه فأصبح « سكيراً مدمناً وأن لم يكن فاجراً سافلاً » . وأخذ ديزيديريوس على نفسه العهود كآى راهب أوغسطينى في ديراموس في

ستين . وحاول أن يحب حياة الدير جهد استطاعته بل إنه كتب مقالا بعنوان : *De contemptu mundi* « تأملات في الوجود » ، ليقنع نفسه بأن الدير هو المكان المناسب لصبي له روح متعطشة ومعدة منهوكة ولكن معدته أرهقها الصيام وأصابها الغثيان حينما كانت تُشَمِّ رائحة السمك . ومع ذلك فإن العهد الذى قطعه على نفسه بالخضوع أثبت أنه أشد قساوة من نذره العفة ، ومن يدرى ؟ لعل مكتبة الدير كانت تعوزها الكلاسيات . وأشفق عليه رئيس الدير وأعاره ليعمل كاتب سر لهنرى البرجيني أسقف كبراي . وقبل أرازموس عندئذ (١٤٩٢) أن يرسم قسا ولكنه أينما اتجه نازعته نفسه إلى أن يضع قدمه على مكان آخر . كان يحسد الشبان الذين التحقوا بالجامعة بعد إنهاء تعليمهم الحلى . وكانت باريس تفوح بشذى العلم والهوى الذى قد يسم الحواس المرفهة عبر مسافات بعيدة . وأغرى ديزيديريوس الأسقف على إرساله إلى جامعة باريس بعد أن خدمه بكفاءة بضع سنوات وانطلق وليس معه إلا ما يقوم بأوده . وكان ينصت فى صبر نافذ إلى المحاضرات ولكنه كان يلهث الكتب . وكان يشهد للمسرحيات والحفلات وينقب بين الفينة والفينة عن المفاتن الأثوية ، ويقول فى إحدى محاوراته أن ألطف طريقة لتعلم الفرنسية هى أن تتلقاها عن بنات الليل ومع ذلك فقد أغرم بالأدب . . أغرم بتلك الكلمات الموسيقية السحرية التى تفتح بابا يلج منه المرء إلى عالم الخيال والبهجة . وعلم نفسه اليونانية وأصبحت أثينا أفلاطون ويوروبيدس وزينون وأبيقوروس مألوفة لديه مثل روما سيثرون وهوراس وسينيكا فكلا المدينتين كانتا حقيقتين بالنسبة له مثلهما فى ذلك مثل شاطئ السين الأيسر . وكان سينيكا فى نظره مسيحيا صالحا مثل سانت بول ونمطيا أحسن منه (وهى وجهة نظر لعله لم يكن فيها سليم الذوق تماما) ورحل باختياره فى غمرات الماضى واكتشف لورنزو فاللا ، فولتير نابولى واستطاب طعم اللاتينية الأنيقة والجرأة المتهوسة اللتين تسم تكفله بهما بكشف زيف قصة « هبة قسطنطين » وقد لاحظ

أخطاء جد خطيرة في النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس وتساءل أليست الأبيقورية أحكم وسيلة للعيش . وقد أفرغ أرازموس علماء اللاهوت فيما بعد وخفف عن بعض الكرادلة بسعيه في التوفيق بين أبيقور والمسيح . وكانت أصداة أصوات دونس سكوتس وأوكهام لا تزال تتردد في باريس والمذهب الأسى يغلو نجمه ويهدد العقائد الأساسية مثل التجسيد والثالث . وقوضت هذه السقطات الفكرية أرثوذكسية القس الشاب ولم يترك له إلا الإعجاب العميق بأخلاقيات المسيح .

وأكب على قراءة الكتب وغالى في ذلك إلى درجة غير محموده . وقام بإعطاء دروس خصوصية لبعض الفتيان من الطلبة لزيادة موارده وذهب ليعيش مع أحدهم ومع ذلك لم يكن لديه ما يوفر له حياة هائثة . وألح على أسقف كامبراى قائلا : « إن كلا من جلدى وكيسى فى حاجة إلى أن يتألا : الأول بالاحم والثانى بالعمالات . اعمل وفق ما يمليه عليك كرمك » . واستجاب له الأسقف بلطفه المعهود ودعاه طالب يدعى لورد أف فير Vere إلى قصره فى تورنيم فى الفلاندرز وسرارازموس عند ما وجد فى ليدى آن أف فير نصيرة للعبقرية وتعرفت فيه على هذه المزية وعاونته بمنحة سرعان ما استنفدها : وأخذ طالب غنى آخر هو ماونتجوى إلى إنجلترا (١٤٩٩) وهناك فى البيوت الارستقراطية الواسعة فى الريف وجد العالم المكدود دنيا رجة تحفل باللذة الرفيعة وانقلب ماضيه فى الدير إلى ذكرى يقشعرها بدنه . وأبلغ صديقا له فى باريس عن تقدمه فى خطاب من خطاباتة التى لا تحصى ولا تقلد وهى الأثر الباقي له الآن : « إننا نتقدم . ولو كنت عاقلا لسارعت بالحبىء إلى هنا . . . آه لو عرفت ما ننعم به فى بريطانيا . . . ولاذكر لك لإحدى المباحج الكثيرة : هنا حوريات هن تقاطيع ملائكية فى غاية الرقة والرأفة . . . وعلاوة على ذلك فثمة أسلوب للحياة لا يمكن الثناء عليه تماما فحيثما تذهب يستقبلونك بالقبلات على يديك وعند ما ترحل

يشيعونك بالقبلات وإذا عدت فإن تحياتك ترد إليك . . . وأينا يتم اجتماع
فهناك تحيات وافرة وحيثما تلتفت تجد لها تلاحقك . أو اه يا فافوستوس !
لو ذقت مرة عذوبة هذه الشغاه وشذاها لتمنيت أن تكون سائحاً لا لمدة عشر
سنوات مثل سولون بل طوال حياتك في إنجلترا » .

والتقى أرازموس في بيت ماونتجورى في جرينوتش بتوماس مور ، وكان
حينئذ لا يتجاوز سنه الثانية بعد العشرين ولكنه مع ذلك كان له من
المكانة ما استطاع به أن يقدم العالم إلى من قدر له بعد ذلك أن يكون
هنرى الثامن . وسره في أكسفورد على الأغلب عدم الكلفة في صحبة الطلبة
وفي الكلية كما سرته أحضان ربات البيوت الريفية . وهناك تعلم كيف
يجب جون كوليت الذى أذهل عصره باعتناقه المسيحية على الرغم من أنه
كان محققاً وعلامة في علم الأديان القديمة وتأثر أرازموس بتقدم علم
الإنسانيات في إنجلترا : « عندما أسمع عزيزى كوليت يخجل إلى أنى أستمع
لأفلاطون نفسه : من لا يعجب في جروسيين عندما يرى عالماً كاملاً للمعرفة
مثل هذا ؟ ماذا يمكن أن يكون أذكى وأعمق وأدق من حكم ليناكى ؟
وماذا أبدعت الطبيعة أكثر رقة وحلاوة وسعادة من عبقرية توماس مور ؟ » .

لقد أثر هؤلاء الرجال تأثيراً عميقاً في إصلاح حال أرازموس فتحول
من شاب مغرور طائش ، أسكرته خمر الكلاسيات وفتنة النساء ، إلى عالم
جاد مدقق تواق لا إلى المال والشهرة فحسب ولكن إلى تحقيق عمل مفيد
دائم . وعندما غادر إنجلترا (يناير عام ١٥٠٠) كان قد استقر عزمه على
أن يدرس وينشر النص اليونانى للعهد الجديد لأن الجوهر الخالص لتلك
المسيحية الحقة في نظر المصلحين وعلماء الإنسانيات على السواء ، قد أخفت
وموت عليه العقائد وتكاثرها على مر القرون .

وأظلمت ذكرياته الجميلة عن هذه الزيارة الأولى لإنجلترا بما حدث
في الساعة الأخيرة : فبينما كان يجتاز الجمارك في دوفر صادرت السلطات

المبلغ الذى منحه له أصدقائه وكان يقدر بنحو عشرين جنيهاً (٢٠٠٠ ر.د)
 (دولار) لأن القانون الإنجليزى يحرم تصدير الذهب أو الفضة . وزاد الطين
 بلة أن أحدهم ، وإن لم يكن محامياً كبيراً ، أشار عليه خطأ بأن التحريم
 لا يسرى إلا بالنسبة للعملة الإنجليزية ، فغيرها أرازموس ولم تجد الإنجليزية
 المتعثرة ولا لائيتيه المختلفة فى الانحراف بصرامة القانون التى لا ترحم
 واستقل أرازموس سفينة إلى فرنسا وهو خالى الوفاض بالفعل . قال :
 « لقد عانيت من الغرق قبل أن أذهب إلى البحر » .

٢ — المشائى

وبعد إقامة بضع شهور فى باريس نشر أول عمل هام له وهو مجموعة
 أقوال مأثورة وتضم ٨١٨ مثلاً أو شاهداً ، معظمها لمؤلفين من القدامى .
 وكان إحياء المعرفة . أى الأدب القديم — قد وضع تقليداً دارجاً بأن يزين
 المرء آراءه باقتباس من مؤلف يونانى أو لائتى ، ونرى هذا التقليد بصورة
 متطرفة فى مقالات مونتينى وفى كتاب « تشرريح السوداء » لبرتون . وتريث
 هذا التقليد فى القرن الثامن عشر فى عهد الخطابة الجدلية بالجلترا . وأرق
 أرازموس كل قول مأثور بتعليق ، يشير عادة إلى الاهتمام السائد ويمليه
 ذكاء يمتزج بالسخرية والهجاء . وقد علق قائلاً : « ورد فى الكتاب المقدس
 أن القسس يلتمهون خطايا الناس فيجدون أن الخطايا عسيرة الهضم ولا بد من
 أن يرتشفوا أحسن الأنبياء للخلاص منها » . وكان الكتاب نعمة للكتاب
 والمتحدثين وبيع منه الكثير لمدة عام استطاع فيه أرازموس أن يعول نفسه
 دون الاعتماد على أحد . وعلاوة على هذا فإن كبير الأساقفة وارهام استحسن
 الكتاب على الرغم من لدعاته وأرسل للمؤلف مبلغاً من المال على سبيل
 المنحة وعرض عليه الإقامة فى إنجلترا . ومهما يكن من أمر فإن أرازموس
 لم يكن على استعداد لترك القارة والإقامة فى جزيرة وفى الأعوام الثمانية التالية

نشر بضع نسخ من الأقوال المأثورة وزاده إلى ٣٢٦٠ نصا مدونا وظهرت له في حياته ستون طبعة وصدرت له ترجمات عن اللاتينية الأصلية إلى الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والهولندية وكلها من أكثر الكتب رواجاً في عصرها .

وعلى الرغم من هذا كله كانت الظروف غير مواتية والطعام لا يكفي واشتد بأرازموس الضيق فكتب (١٢ ديسمبر عام ١٥١٠) إلى صديقه جيمس بات وكان مرياً لابن ليدى آن أف فير يسأله : « أرجو أن تشير لها إلى ما سوف أحققه لها بتعليمي من جاء يزيد عما يحققه لها القسس الآخرون الذين تحتفظ بهم . إنهم يتلون عظات عادية أما أنا فأكتب ما يعيش إلى الأبد . وهم بلغوهم السخيف لا يسمعون إلا في كنيسة أو اثنتين أما أعمالي فسوف يقرأها كل من يعرف اللاتينية واليونانية في كل بلد من بلاد العالم . وما أكثر رجال الدين غير المتعلمين في كل مكان أما أمثالي فقلما يوجد بهم الزمان . أرجو أن تكرر كل هذا لها ما لم تكن كثير الوسواس فلا تستطيع أن تقول بعض الكذبات من أجل صديق » .

وعندما فشلت هذه المفاوضة كتب مرة أخرى يقترح أن يقول بات للسيدة أن أرازموس يوشك أن يكف بصره ثم أردف قائلاً : « أرسل لي أربع قطع ذهبية أو خسا من مالك الخاص على أن تستردها من مال الليدى » . ولما لم يقع بات في هذا الشرك كتب أرازموس مباشرة إلى السيدة وشبهها بأنبى البطلات في التاريخ وأجمل محظيات سليمان وتنبأ لها بشهرة خالدة . واستسلمت لهذا الزهو الأخير وتلقى أرازموس هدية مادية واستعاد بصره . وكان يغتفر للكاتب طبقاً لتقاليد هذا العهد أن يطلب معونة من يرعونه لأن الناشرين لم يكونوا على استعداد وقتذاك لمؤازرة المؤلفين ولو كان لهم قراء عديدون . وكان في استطاعة أرازموس أن يحصل على مرتبات وأسقفيات بل ومنصب كاردينال ولكنه رفض هذه العروض المرة

تلو المرة لكنى يظل « رمحا ظليقا » متحرر الفكر وفضل أن يستجدى ويكون
حرأولا يفسد وهو يرسف في الأغلال ، وانتقل إلى لوفان عام ١٥٠٢ فراراً
من الطاعون فعرض عليه أوربان الاوترختي مدير الجامعة منصب أستاذ
ورفض أرازموس وعند ما عاد إلى باريس استقر فيها ليكسب عيشه
بقلمه - وهى واحدة من أحدث المحاولات الأولى في هذا المشروع المتهوس .
وترجم خطب نيشرون وهيكوبا ليورويديس ومحاورات لوشيان ، وليس
من شك في أن هذا الفيلسوف الشاك الظريف أسهم في تشكيل عقلية
أرازموس وأسلوبه . وقد كتب أرازموس عام ١٥٠٤ إلى صديق له :
« عجباً ! بأى ظرف وبأى سرعة يعالج لوشيان ضرباته فيحول كل شيء
إلى سخرية ولا يترك شيئاً يمر دون أن يسخر منه . وأقصى ضرباته موجهة
إلى الفلاسفة . . . نظر إلى دعاوهم غير الطبيعية وإلى الرواقين . بسبب
عجرفتهم التي لا تحتجل . . . وهو لا يجد حرجاً في السخرية من الآلهة ومن
هنا خلع عليه لقب مبلخد - وهو شرف رفيع أضفاه عليه الزنادقة
أصحاب الوسوس .. »

وفي زيارة ثانية لإنجلترا (١٥٠٥ - ١٥٠٦) انضم إلى كوليت وقاما بالحج
إلى ضريح سانت توماس في بيكيت بكانتربرى وسجل وصفا لهذه الرحلة
بأسماء مستعارة وذلك في إحدى محاوراته ، ولقد روى لنا كيف أساء جراتيان
(كوليت) إلى دليلهم الراهب عندما أبدى رأيه وقال : « إن قدراً ضئيلاً
من الثروة التي تستخدم في تزيين الكاتدرائية يمكن توجيهها لتخفيف وطأة
الفقر في كانتربرى » ، وروى أيضاً كيف عرض عليهم الراهب لبناً قال إنه
من ثدى العذراء و« قدرا مذهلاً من العظام » لا بد من تقبله باحترام وكيف
عصى جراتيان فرفض أن يقبل حذاء قيل إن بيكيت لبسه وكيف عرض
الدليل على جراتيان قطعة قماش يزعمون أن القديس استعملها في تجفيف

جبينه. وفي مخط أنفه كما لو كانت منة عظمى وتذكارا مقدساً ، وظل يسوق الحُجج والبراهين على هذا فقطب جراتيان جبينه وتمرد . وعاد العالمان بالإنسانيات إلى لندن وهما يأسفان على الإنسانية .

وهناك أسعد الحظ أرازموس إذ كان طبيب هنرى السابع يعزم إرساله ولدين له إلى إيطاليا فعهد إلى أرازموس بمرافقتهم « كدليل عام ومشرف » وأقام مع الرالدين عاما في بولونيا وأخذ يلثم المكتبات ويضيف كل يوم .جديدا إلى اشتهاره بحبه للعلم والمعرفة واللسان اللاتينى . وكان إلى ذلك الوقت : يرتدى مسح زاهب أوغسطينى — وهو عبارة عن ثوب أسود ومعطف وقلنسوة وقبعة بيضاء يحملها عادة على ذراعه ولكنه في عام (١٥٠٦) نبذ هذا الزي واستبدل به ثوب كاهن علمانى أقل وضوحا واهشى أنه حصل على إذن بهذا الاستبدال من البابا يوليوس الثانى ثم أقام في بولونيا كأنه فاتح عسكري غير أنه عاد إلى إنجلترا عام ١٥٠٦ لأسباب لانعرفها وألقى محاضرات في اليونانية بجامعة كمبردج بيد أننا نجده يعود إلى إيطاليا عام ١٥٠٨ ويعد طبعة موسعة لمجموعته في الأمثال السائرة للطبعة الدوس مانوتيوس في البندقية . وعندما مر بروما (١٥٠٩) فنتته عيشة الكرادلة الرغدة وأخلاقهم السامية وثقافتهم الرفيعة وسرمن — كما أن لوثر كان قد فجعته بروما في السنة الماضية — الغزوات التى قامت بها الموضوعات والوسائل الوثنية في عاصمة العالم المسيحى . وما استاء له أرازموس كثيرا سياسة يوليوس الثانى العسكرية وحدته ومطارداته وهو يتفق في هذا مع لوثر ولكنه يتفق أيضاً مع الكرادلة الذين كانوا يرحبون بحجارة بكثرة تغيب البابا العنيد وزحبوا بحضور أرازموس لاجتماعاتهم وعرضوا عليه منصبا دينيا إذا أقام في روما ،

وما كادت تطيب له الإقامة في المدينة الخالدة حتى أرسل له ماوننجوى

رسالة يبلغه فيها أن هنرى السابع مات وأن صديق علماء الإنسانيات أصبح هنرى الثامن وأن الأبواب والمناصب الرفيعة جميعا ترحب الآن باراز موسى إذا ما عاد إلى إنجلترا . ووصلت مع خطاب ماونتجوى رساله من هنرى الثامن نفسه : « بدأ تعارفنا عند ما كنت صبيا . وقد ازداد الاحترام الذى تعلمت أن أكنه لك بفضل تنويرك المشرف بى فى كتاباتك وبالطريقة التى استخدمت بها مواهبك فى ابراز الحقيقة المسيحية وبما أنك قد حلت هذا العبء وحده فأسعدنى بمعاونتك وحمايتك إلى أقصى حد يمتد له سلطانى . . . إن سلامتك ثمينة بالنسبة لنا جميعاً . . . ومن ثم فىنى أرى أن تتخلى عن كل فكرة بالإقامة فى مكان آخر وتعال إلى إنجلترا وثق أنك ستلقى ترحيباً حاراً . وعليك أن تذكر شروطك وثق أنها ستكون سخية ومشرفة كما تشاء . واذكر انك قلت يوماً أنك ستأخذ من هذا البلد موطناً لك فى شيخوختك بعد أن تكون قد تعبت من التجوال . وإنى لأتوسل إليك بكل ما هو مقدس وصالح أن تنى بوعدك هذا وللسنا الآن فى مركز يتيح لنا أن نعرف قيمة علمك أو نصيحتك وسوف نعتبر وجودك بيننا أثمن ما نمتلك . . . وإذا كنت فى حاجة إلى الاستمتاع بوقت فراغك فلن نسألك شيئاً سوى أن تجعل من مملكتنا موطناً لك . . . تعال إلى إذن يا عزيزى أراز موسى وليكن حضورك بمثابة إجابة لدعوتى » فكيف يمكن أن ترفض دعوة رقيقة كريمة كهذه ؟ إن لسان أراز موسى ينعقد حتى لو نصبته روما كردينالا ، فى إنجلترا حيث يحيط به أصدقاء من ذوى النفوذ ويحميه ملك قوى يستطيع أن يكتب بحرية ويعيش فى أمان . وودع علماء الإنسانيات فى روما فى شىء من التبرم ، إلى القصور الرحبة والمكتبات . . . إلى الكرادلة الذين ناصروه . . . واتخذ طريقه مرة أخرى فوق جبال الألب إلى باريس فأنجلترا .

٣ - الهجاء

ومكث هناك خمس سنوات ولم يتلق طوال هذا الوقت من الملك سوى التحية بين الفينة والفينة . ترى هل كان هنرى مشغولاً جداً بالعلاقات الخارجية أم بالأهل والأقارب ؟ وظل أرازموس ينتظر وهو يثميز غيظاً . وخف مونتيجوى لنجدته بمنحة . ونفحه وارهام بدخل أبرشية فى كنت ، وعينه جون فيشر أسقف روشستر ومدير جامعة كامبردج أستاذاً لليونانية بمرتب سنوى قدره ١٣ جنيه (١٣٠٠ دولار) ولرفع هذا الدخل بالقدر الذى يسمح بالاحتفاظ بخادم وجواد أهلى أرازموس مطبوعاته إلى أصدقائه الذين استجابوا له فى تردد .

وفى السنة الأولى من هذه فى إنجلترا كتب أرازموس فى بيت توماس مور وفى خلال سبعة أيام أشهر كتاب له « الثناء على الطيش » وكان عنوانه اليونانى Encomium moriae تورية لاسم مور وإن كانت كلمة Moras باليونانية تعنى طائش وكلمة Moria تعنى الطيش واحتفظ أرازموس بعمله مخطوطاً لمدة عامين ثم انطلق بعدها بفترة وجيزة إلى باريس لنشره (١٥١١) وطبعت منه فى حياته أربعون طبعة وترجم إلى اثنتى عشرة لغة والتهمة رابليه وفى عهد متأخر عام ١٦٣٢ وجده ملتبس فى يد « كل إنسان » فى كامبردج .

ولم يستخدم أرازموس كلمة Moria بمعنى طيش وسخف وبهل وغباء فحسب بل بمعنى سرورة فكرية وغريزة وعاطفة وبساطة أمية مقابل حكمة وعقل وحساب وفكر . ويقول لنا إن الجنس البشرى بأسره يدين بوجوده للطيش إذ أى شىء أسخف من مطاردة الذكر المتعددة الأشكال للأثنى وإكباره المحرم للحمها وعاطفته المشبوبة للساند ؟ وأى إنسان يدفع مقابل هذا التناقض

فى الانتفاخ ارتباطا مدى الحياة بالزواج من واحدة ؟ وأى امرأة فى كامل قواها العقلية تدفع فى مقابل هذا آلام الأمومة وشدائدها ؟ أليس من السخرية أن تكون الإنسانية ثمرة عارضة لهذا الندم المتبادل ؟ لو أن الرجال والنساء توقفوا وتأملوا ملياً لضاع كل شىء .

وهذا يوضح ضرورة الطيش وحماسة الحكمة إذ هل يمكن أن توجد الشجاعة إذا حكم العقل ؟ وهل يمكن أن تتحقق السعادة ؟ إن سفر الجامعة كان على حق فى الاعتقاد بأن « من زادت معرفته زادت أحزانه وفى الحكمة الكثيرة أسى كثير ؟ » من يكون سعيداً إذا تكشفت له حجب المستقبل ؟ إنه لمن حسن الحظ أن العلم والفلسفة عاجزان وأن الناس يجهلونهما وأنهما لا يحدثان ضرراً عظيماً لجهل الجنس الذى لا غنى عنه . وإن الفلكيين « يقدمون لك أبعاد الشمس والقمر والنجوم مقدرة بسمك الشعرة وذلك بسهولة كما يفعلون بأبعاد إبرىق أو جرة ولكن الطبيعة تهزأ بظنونهم الواهية . والفلاسفة يزدنون المرتبك ارتباطاً والمظلم ظلاماً وهم يبددون الوقت والعقل على أمور تافهة منطقية أو ميتافيزيقية تذهب أدراج الرياح ، وخير لنا أن نرسلهم بدلاً من جنودنا لمحاربة الأتراك الذين سوف يتراجعون فى دعر أمام هذا اللغو المربك ! والأطباء ليسوا أفضل منهم فكل فئهم كما يمارس الآن هو فن مركب يعرج الخداع بالتضليل » . أما علماء اللاهوت فلإنهم : « يقولون لك إلى الهنة عن كل الإجراءات المتوالية للقدرة على كل شىء فى خلق العالم ويفسرون لك الطريقة الدقيقة للخطيئة الأولى مستمدة من أول آياتنا ويرضونك ويقولون لك كيف أن . . المسيح حملت به العذراء ويوضحون لك فى الرقاقة المقدسة كيف يمكن أن توجد الحوادث دون محمول عليه . . . وكيف يمكن أن يوجد جسم واحد فى أماكن متعددة فى وقت واحد وكيف أن جسد المسيح فى السماء يختلف عن جسده فوق الصليب أو فى القربان المقدس .

وفكر أيضاً في اللغو الذى يتمثل فى معجزات وأعاجيب - رؤى ومزارات شافية واستدعاء للشيطان و « أمثال الشبح الخفيف الوهمى » .
إن هذه السخافات . . . تجارة رابحة وتأتى بدخل يضمن عيشاً رغداً لهؤلاء القسس والرهبان كما أنهم يكسبون من وراء هذا الخداع . . . ماذا عسائ أن أقول عن هذا سوى أن أهلل لخداع الغفران والسباحة وأن أحافظ عليهما ؟ وأنى بهذه أحسب الزمن الذى تقتضيه كل روح فى المطهر ، وأخصص لها بقاء أطول أو أقصر حسبما يشتركون عدداً أكبر أو أقل من صكوك الغفران التافهة والإعفاءات المعروضة للبيع ؟ أو ماذا يقال من سوء عن آخرين يزعمون أنهم سيحصلون على الثراء والمناصب الرفيعة واللذة والحياة العريضة ويبلغون أرذل العمر بل وينالون بعد وفاتهم مقعداً على يمين المسيح وذلك بقوة هذه التعاويذ السحرية أو بالعبث بحبات سبحاتهم وهم يتمتمون ببعض الدعوات والابتهالات (التى اخترعها بعض مدعى الدين إما للهو أو للاستفادة منها على الأرجح) ؟ :

ويستمر المهجو على حساب النساك والرهبان وأعضاء محكمة التفتيش والكرادلة والبابوات . فالنساك يضجرون الناس بالسؤال ويعتقدون أنه يمكن الاستيلاء على السماء بالمثابرة على ترتيل المزامير المنومة ورجال الاكليروس العلماء يتحرقون شوقاً إلى المال . « إنهم ماهرون فى فن الاقتناء . . . ضريبة العشور والقرايين وأجور العائد . . . الخ » . وكل رجال الاكليروس على اختلاف طوائفهم ورتبهم يتفقون فى رأى على إعدام الساحرات أما البابوات فليس بينهم وبين الرسل أى تشابه فى « ثرواتهم ومناصبهم وسلطاتهم القضائية ووظائفهم وإعفاءاتهم وترخيصهم وامتيازاتهم . . . والحفلات وضرائب العشور وصكوك الحرمان من الكنيسية وأوامر التحريم » ورغبتهم العارمة فى الموارد ودبلوماسيتهم العالمية وحروبهم الدموية فكيف يمكن أن يكتب البقاء لكنيسة إذا خلت من الطيش وبساطة الإنسانية الساذجة ؟

وقد أثار كتاب « الثناء على الطيش » غضب علماء اللاهوت وكتب مارتن دريسوس إلى أرازموس « لا بد أن تعرف أن كتابك » « طيش Maria » قد أثار إزعاجا كبيرا حتى بين من كانوا قبلا من أشد المعجبين بك المخلصين لك . ولكن الهجو في هذا الدمار المرح كان خفيفا إذا قيس بما اتسمت به سورته التالية . وكان ثالث وآخر عام قضاه في التدريس بجامعة كامبردج (١٥١٣) هو العام الذى توفى فيه البابا يوليوس الثانى وظهر في باريس عام ١٥١٤ تعريض ساخر أحوار يسمى Julius exclusus وقد بذل أرازموس جهداً صادقا ، لا يصل إلى حد الإنكار الصريح ، ليخفى أنه المؤلف له ، ولكن المخطوط تداولته أيدي أصدقائه وأدرجه مور دون تحفظ بين أعمال أرازموس . ولعله يمثل لنا نموذجا متطرفا لأرازموس الهجاء ، أن البابا المحارب بعد وفاته يجد أبواب السماء مغلقة في وجهه ويمنعه من دخولها القديس بطرس العنيد :

يوليوس : كفى . أنا يوليوس الليجورى . و . أ

بطرس : و . أ ماذا تعنى ؟ وباء أعظم ؟

يوليوس : بل ولى أعظم أيها الخبيث .

بطرس : حتى لو كنت أعظم من ذلك ثلاثة أضعاف . . . فان تدخل

هنا إلا إذا كنت أيضا أفضل من ذلك أضعافا مضاعفة .

يوليوس : يا للوقاحة ! إنك لم تزد عن قديس طوال هذه العصور أما أنا

فقديس وميدوقداسة ، بل إلى القداسة ذاتها ، ومعى مستندات

تثبت هذا .

بطرس : أليس هناك فرق بين أن تكون مقدسا وبين أن تدعى مقدسا ؟

دعنى أنظر إليك عن قرب . آه ! أرى سمات زندقة

شديدة . . . مسوح قسيس ولكن تحتها سلاح يقطر دما

وعينان وحشيتان وفم متعجرف وجهين وقبح وجسد وصمته
كله الآثام : وأنفاس تفوح منها رائحة الخمر وبدن أسقمه
التبذل والفسوق . نعم . هدد كما تشاء . . سأقول لك من
أنت . . . أنت يوليوس الإمبراطور الذى عاد من الجحيم . . .

يوليوس : اسكت وإلا أصدرت قرارا بحرمانك

بطرس : تحرمنى أنا ؟ بأى حق ؟ أود أن أعرف :

يوليوس : خير الحقوق فأنت لست إلا قسا ولعلك لست كذلك ؟ : فأنت
لا تستطيع أن ترسم كاهنا . افتح . أمرك أن تفتح .

بطرس : يجب أن تثبت أولا جدارتك . . .

يوليوس : ماذا تعنى بالجدارة ؟ .

بطرس : هل علمت العقيدة الحققة ؟

يوليوس : لالم أعلمها أنا . فقد كنت مشغولا بالقتال . وثمة رهبان
يعنون بالعقيدة إذا كان لهذا الأمر أية أهمية .

بطرس : هل تكسبت أرواحا للمسيح بالقدوة الحسنة ؟

يوليوس : لقد أرسلت كثيرا منها إلى الجحيم .

بطرس : هل قمت بأى معجزات ؟

يوليوس : أف ! إن المعجزات أكل عليها الدهر وشرب . .

بطرس : هل كنت مواظبا على صلواتك ؟

يوليوس : إن يوليوس الذى لا يقهر ليس ملزما بالإجابة على صياد

مسكين . ومهما يكن من أمر فإنك ستعرف من أنا وماذا

أعمل . أنا ليجورى أولا ولست يهوديا مثلك ، وكانت أسمى

شقيقة البابا العظيم سيكستوس الرابع وقد جعل منى البابا رجلا

ثرىا بفضل ممتلكات الكنيسة - وأصبحت كاردينالا . وقد

ألمت بي بعض المحن إذ أصيبت بالجذري الفرنسي وأقصيت عن بلدى وطردت منها ومع ذلك كنت أعرف طوال ذلك الوقت أنى سأكون البابا يوما . . . وتحقق هذا بمساعدة الفرنسيين من ناحية ، وبالأموال التى اقترضتها بقائدة من ناحية أخرى ، وبالاعود التى بذلتها من ناحية ثالثة . وما كان فى استطاعة كرويزوس أن يسك كل النقود التى احتاج إليها هذا الأمر . وسوف يقول لك عن هذا المصرفيون . ولكنى نجحت وفعلت من أجل الكنيسة والمسيح أكثر مما فعل أى بابا قبلى .

بطرس : ماذا فعلت ؟

يوليوس : رفعت الدخل . . ابتدعت وظائف جديدة وبعثتها . . . وقمت بإعادة سك النقود وربحت مبلغا كبيرا من هذا الطريق . لا شئ يمكن أن يتم بغير المال . ثم ألحقت بولونيا بالسلطة البابوية . . . وشددت آذان كل أمراء أوروبا . وخرقت المعاهدات واحتفظت بجيوش عظيمة فى الميدان . وغمرت روما بالقصور وتركت خمسة ملايين فى الخزانة بعد وفاتى . . .

بطرس : ولماذا أخذت بولونيا ؟

يوليوس : لأستولى على دخلها . . .

بطرس : وماذا جرى لفرارا ؟

يوليوس : كان الدوق تعسا منكرا للجميل ، فقد اتهمنى بالانحياز بالمقدسات والرتب والوظائف الدينية ووصفنى بأنى أتجر بالرتب الكهنوتية . . . لقد أردت دوقية فرارا الأحد أبنائى الذين تستطيع الكنيسة أن تعتمد على إخلاصهم وكان قد طعن بالخنجر كاردينال بافيا .

- بطرس : ماذا ؟ بأنبوات لهم زوجات وأولاد ؟
- يوليوس : زوجات ؟ لا ليس من الزوجات ، ولكن لماذا لا يكون لهم أولاد ؟
- بطرس : وهل كانوا على حق فيما نسبوه إليك من جرائم ؟
- يوليوس : هذا أمر لا علاقة له بالدعوى . . .
- بطرس : أليست ثمة وسيلة لإزاحة بابا شريز ؟
- يوليوس : سخف ! من يستطيع أن يزيج أعلى سلطة بين الناس ؟ إن البابا يمكن تقويمه بمجلس عام ولكن أى مجلس عام لا يمكن أن ينعقد إلا بموافقة البابا ومن ثم فإنه لا يمكن عزله مهما كانت الجريمة التى يرتكبها .
- بطرس : حتى لو ارتكب جريمة قتل ؟
- يوليوس : نعم . . . بل حتى لو قتل أحد والديه .
- بطرس : ألا يعزل لو زنى ؟
- يوليوس : نعم حتى لو زنى بالمحارم .
- بطرس : ألا يعزل لو مارس الاتجار بالرتب الكهنوتية ؟
- يوليوس : نعم ولو اقترف ستائة حادثة من حوادث الاتجار بالرتب الكهنوتية .
- بطرس : ألا يعزل لو قتل أحدا بالسهم ؟
- يوليوس : نعم حتى لو انتهك المقدسات .
- بطرس : ألا يعزل لو ارتكب كل هذه الجرائم مجتمعة ؟
- يوليوس : حتى لو زدت عليها ٦٠٠ جريمة ، فليست ثمة قوة تستطيع أن تعزل البابا .

بطرس : يا له من امتياز عجيب يتمتع به خلفائي - أن يكونوا من أحبث الناس ومع ذلك ينجون من العقاب . ويا لها من كنيسة تعسة تلك التي لا تستطيع زحزحة مثل هذا الوحش عن كاهلها .. إن على الناس أن يثوروا ويرجموا بحجارة الرصف رأس مثل هذا الشقي ... لو أن الشيطان فكر في أن يصطفي قسا لما وجد خيرا منك . أى دليل قدمته على أنك رسول ؟

يوليوس : أليست زيادة موارد كنيسة المسيح عملا من أعمال الرسل ؟
طرس : ولكن كيف زدت موارد الكنيسة ؟

يوليوس : ملأت روما بالقصور ... وبفرق من الخدم والجنود وآلاف الوظائف ...

بطرس : إن الكنيسة لم تعرف شيئا من هذا عندما أنشأها المسيح ...
يوليوس : إنك تفكر في القصة القديمة عندما أشرفت على الموت جوعا وأنت بابا وحوالك حفنة من الأساقفة الفقراء المطاردين : لقد عفى الزمن على كل هذا ... انظر الآن إلى كنائسنا الفخمة ... أساقفة مثل الملوك ... وكرادلة تحيط بهم مظاهر العظمة ... خيول وبغال أعنتها من الذهب والجواهر وحدواتها من الذهب والفضة . أنا الحبر الأعظم فوق الجميع يحملني الجنود على كرسي ذهبي فوق أعناقهم وألوح بيدي في جلال للجماهير التي تعبدني ، وأنصت إلى دوى المدافع وأنغام البوق ودقات الطبول وأرقب العربات الحربية والجماهير الصاخبة والمشاعل التي تضيء الطريق والميدان وأشهد ملوك الأرض وهم يحاولون تقبيل قدمي قداسي ... أنظر إلى كل هذا وقل لي أليس

هذا رائعا ؟ لعلك تدرك أى أسقف تعس فقير كنت
بالقياس إلى . . .

بطرس : يالك من شقى وقع ! لقد توسلت بالغش راربا والمسكر
لاوصول إلى منصب البابوية . . . لقد حملت روما الكافرة
على أن تؤمن بالمسيح أما أنت فقد عدت بها إلى الكفر . إن
بولص لم يتحدث عن المدن التى اجتاحتها ولا الفرق التى قتلها . . .
بل تحدث عن حطام السفن والقيود والاهانات والسياط . . .
كانت هذه انتصاراته الرسولية وهذه كانت أعجاد قائد
مسيحى . وعندما كان يفخر بعمل فإنما يفخر بالأرواح التى
استنقذها من براثن الشيطان وليس بما اكتنز من أكوام
الدوكات . . .

يوليوس : هذه كلها أخبار أسمعها لأول مرة .
بطرس : ربما فقد كنت مشغولا بمعاهداتك وبروتوكولاتك ، وجيوشك
وانتصاراتك ، فلم يتسع لك الوقت لقراءة الأنجيل . . . أنت
تدعى أنك مسيحى مع أنك لست أفضل من أى تركى فانت
تفكر كالتركى ولا تقل عنه فجورا^(١) . وإذا كان ثمة فرق
بينكما فهو انك أسوأ .

يوليوس : إذن فلن تفتح الأبواب ؟
بطرس : سأفتحها لأى شخص آخر سواك أما أنت فلا . . .
يوليوس : إذا لم تخضع فسوف أستولى عنوة على مكانك . . . إنهم
يقومون الآن بتدمير شامل تحتنا وقريبا سيكون لدى ٦٠ و ١٠٠
شبح يقفون ورائى .

(١) لعل المؤلف يقصد الترك العثمانيين . (المترجم)

بطرس : أيتها الرجل الشقي ! أيتها الكنيسة النعسة . . . لا عجب أن يقل عدد المتقدمين للدخول هنا ما دامت الكنيسة يحكمها أمثالك . ومع ذلك فلا بد أن في العالم خيراً أيضاً ما دام هذا الحضيض من الظلم يمكن أن يقبل من رجل لا شيء إلا لأنه يحمل اسم البابا .

وهذا بالطبع رأى خاطئ من جانب واحد فما كان في وسع محتال داعر مثل هذا أن يحرر إيطاليا من غزاتها وأن يستبدل بالقدّيس بطرس ، مايكل انجلو ورافائيل الجديدين ، المكتشفين ، الموجهين والمطورين ، وأن يوجّد الحضارتين المسيحية والكلاسيكية في مكان الفاتيكان وأن يقدم لمهارة رافائيل ذلك المظهر للفكر العميق والعناية الفائقة اللتين صورا في صورة يوليوس الشخصية التي لا مثيل لها والموجودة في قاعة أوفيزي . وفي الوقت الذي يدعو فيه أرزاموس المسكين كل القس إلى تنشف الرسل نراه هو نفسه يلح في طلب المال من أصدقائه ، ويكشف عن طبع العهد الثائر ، أن قسيساً يجد لزاماً عليه أن يكتب اتهاماً قاسياً لبابا . وفي سنة ١٥١٨ — السنة الثانية من عهد لوثر — كتب بيتر جليس إلى أرزاموس من أنتورب : « ان كتاب Julius exclusus » « يوليوس المنفي » يباع هنا في كل مكان . وكل إنسان يشتريه وكل واحد يتحدث عنه ، فلا عجب إذا ما لام المصلحون فيما بعد أرزاموس لأنه قرع جرس الإنذار للتمرد ثم هرب بنفسه .

وفي سنة ١٥١٤ ظهر مؤلف آخر بقلم أرزاموس أزعج العالم المستنير في أوروبا الغربية وكان قد ألف ابتداء من عام ١٤٩٧ محاورات شكلية احترافاً لتعليم الأسلوب اللاتيني والحديث ، وإن كان قد ناقش عرضاً ضرورياً شتى من الموضوعات الشائقة الكفيلة بإيقاظ الطلبة من نعاسهم

اليومى . ونشر صديقه بياتوس رينانوس ، بإذن منه ، سلسلة من هذه المحاورات باسم « العبارات الخاصة بالحديث العادى » *Familiarium colloquiorum* *formulae* وهى أشكال من الأحاديث المألوفة بقلم أرازموس الوتردامى ، لاسميتها فى صقل كلام صنى فحسب ، بل تكون أيضاً شخصيته . وأضيفت إلى الطبعة التالية محاورات أخرى فأصبحت أغنى مؤلف لأرازموس من حيث المادة « هى مزيج غريب — مناقشات حادة حول الزواج والأخلاق وخض على التقوى وعرض للأمور المنافية العقل والمساوى فى سلوك الإنسان ومعتقداته وتدخلها فكاهات لاذعة أو خطيرة وكلها بلغة لاتينية اصطلاحية شائعة ولا يد أنها أصعب فى الكتاب من لغة الحديث الرسمية بين المتعلمين » . وكتب مترجم انجليزى عام ١٧٢٤ يقول : « ليس ثمة أصلح للقراءة من كتاب « يكاد يهدم تماماً كل الآراء والأوهام البابوية بأسلوب شائق تعليمى » ، وفى هذا مبالغة ولكن ليس من شك فى أن أرازموس استخدم بطريقته المرحية « كتابه فى الأسلوب اللاتينى » فى مهاجمة نقائص رجال الأكليروس . وأدان الاتجار بمخلفات القديسين ، وإساءة استخدام أوامر الحرمان من الكنيسة ، واقتناء البطارقة والقسس للأموال ، والمعجزات الزائفة التى ينجذع بها البسطاء ، وعبادة القديسين لأغراض دنيوية ، والمبالغة فى الصيام والتناقضات المروعة بين مسيحية الكنيسة ومسيحية المسيح وحمل بغيها على أن تثنى على الرهبان باعتبارهم من عملائها المخلصين . وحذر سيدة شابة تريد الاحتفاظ ببيكارتها فطلب منها أن تتحاشى « هؤلاء الرهبان المفتولى العضلات ذوى الكروش البارزة . . . فالفعة عرضة للخطر فى الدير أكثر من تعرضها له خارجه » ورثى لتعظيم شأن البكارة وهلل للنكاح باعتباره أشهى من العزوبة ، وأسف لأن الناس تحرص على معاشرة الجياد الصافئات للأقواس الأصيلية بينما يزفون فى الزيجات القائمة على المصلحة المالية عذارى سلطات إلى رجال هدم المرض ، واقتراح منع الزواج من المرضى بالزهري أو من

الأشخاص المصابين بعجز شديد أو مرض خطير . . . وتمتزج بهذه التأملات الرصينة فقرات من الفكاهة الفظة . وكان الأولاد يطالبون بتشميت الناس عندما يعطسون ولا يطالبون بهذا عندما يضرطون . وكانت أية امرأة حامل يدعو لها الناس بدعاء وحيد: « ألا فلتهب السماء هذا الحمل الذى فى بطنك... سهولة الخروج كما وهبته سهولة الدخول » . وكان الختان أمرا ممتدحا « لأنه يخفف من حكة الجماع » . وثار حوار طويل بين « الشاب والبغى » انتهى بالتأكيد بإصلاح السيدة .

وشكا النقاد من أن هذه المحاورات كانت طريقة تنطوى على التهور لتعليم الأسلوب اللاتينى ، وزعم أحدهم أن كل الشباب فى فرايبورج أفسدتهم هذه المحاورات واعتبر شارل الخامس استخدامها فى المدرسة جريمة يعاقب عليها بالإعدام . واتفق هنا لوتر فى رأى مع الامبراطور : « سوف أحرم على أولادى قراءة محاورات أرازموس حتى لو كنت على فراش الموت » . وأكد نجاح الكتاب ما أثاره من مهنق وبيع منه ٢٤٠٠٠ نسخة بعد نشره وحتى عام ١٥٥٠ لم يفتقه فى التوزيع إلا الكتاب المقدس . وفى الوقت نفسه ساد أرازموس أن يجعل الكتاب المقدس ملكا خاصا له .

٤ - الغسلامة

وغادر إنجلترا فى يوليو سنة ١٥١٤ وشق طريقه خلال الضباب والعادات إلى كاليه وهناك تلقى من رئيس دير الذى نسيه فى ستين ، خطابا يشير فيه إلى أن أجازته انتهت منذ مدة طويلة وأنه يحسن به أن يعود ليقضى ما بقى من عمره قائبا مستغفرا فانزعج لأن رئيس الدير يستطيع ، طبقاً للقانون الكنسى ، أن يدعو السلطة الزمنية إلى الزج به مرة أخرى فى السجن . والتمس أرازموس لنفسه عذراً ولم يتعجل رئيس الدير الأمر ولكن ، لكى

يتحاشى العلامة تكرار الحيرة ، طلب من أصدقائه الإنجليز ذوى النفوذ أن يكفلوا له من ليو العاشر إصفاء من التزاماته كراهب .

وبينما كانت تجرى هذه المفاوضات اتخذ ارازموس طريقه أعلا الراين إلى بازيل وعرض على الناشر فروبن مخطوط أهم مؤلف له ، وهو مراجعة نقدية للنص اليوناني للعهد الجديد مرفقا بترجمة لاتينية وتفسير .

كان عملاً أملاه الحب والاعتزاز بالنفس يتعرض مؤلفه وناشريه للمخاطر على السواء : فقد استغرق الإعداد سنوات وسوف يكون الطبع والنشر من الأعمال الشاقة الكثيرة النفقات . والزعم بتفوق الترجمة ، على نسخة جيروم اللاتينية ، التى ظلت مقدسة مدة طويلة باعتبارها نسخة لاتينية للكتاب المقدس ، قد تبدينه الكنيسة ، ومن المحتمل ألا تغطى المبيعات النفقات . ونخفف ارازموس المخاطرة بإهداء العمل إلى ليو العاشر . وأخيراً نشر فروبن فى فبراير سنة ١٥١٦ « الأداة الجديدة الكاملة التى حققها ونقحها بمنتهى الدقة ارازموس الروتردامى Instrumentum omne,

diligenenter ab Erasmo Rat, recognitum et emendatum. وصدرت بعدها طبعة تفسّرت فيها كلمة الأداة بالوصيصة Instrumentum to Testamentum وقدم ارازموس فى أعمدة متقابلة النص اليوناني كما راجعه بنفسه مع ترجمته اللاتينية ويبدو أن معرفته باللغة اليونانية كانت غير كاملة ومن ثم فهو يشترك مع جماعى الحروف فى المسئولية عن أخطاء كثيرة . ومن وجهة النظر العلمية كانت الطبعة الأولى من العهد الجديد باليونانية المعدة للنشر بعد الطبع أقل من مثيلتها التى أتمها وطبعها جماعة من العلماء لحساب الكاردينال اكسيمينيس عام ١٥١٤ وإن كانت لم تقدم للجمهور إلا عام ١٥٢٢ . وقد دل هذان العمالان على تطبيق التعليم الإنسانى لأدب - المسيحية الأولى وعلى بداية هذا النقد الإنجيلي الذى استعاد الكتاب المقدس فى القرن التاسع عشر إلى مجال التأليف الإنسانى وما يتعرض له من زلل .

ونشرت مذكرات ارازموس في مجلد منفصل وقد كتبت بلغة لاتينية اصطلاحية واضحة مفهومة لكل خريجي الكليات في هذا العهد وكانت لها قاعدة عريضة من القراء وعلى الرغم من أنها كانت متفقة مع الإجماع فإنها سبقت كثيرا من التفسيرات التي ابتدعت في البحث التالي . وقد حذف في طبعته الأولى Comma Johanneum « الوصل اليوحني » (إصحاح يوحنا ٥ : ٧) الذي أكد الثالث ولكن الذي تلفظه اليوم النسخة المنقحة الصحيحة باعتباره مما دس في القرن الرابع .

ونشرت قصة المرأة التي اتهمت بالزنى وإن كان قد أشار إلى أن من المحتمل أن تكون كاذبة (إصحاح يوحنا ٧ : ٥٣ و ٨ : ١١) كما نشر الاثنى عشرة آية الأخيرة من إنجيل مرقس . وأشار في أكثر من موضع إلى الفرق بين المسيحية الأولى والحالية . وعلق على إصحاح متى ٢٣ : ٢٢٧ : « ترى ماذا يقول جيروم لورأى لبن العذراء يعرض للبيع بالمال ، ويضفي عليه من التكريم ما يضفي على جسد المسيح المقدس ، والزيت الإعجازية وأجزاء الصليب الحقيقي التي تكفي إذا جمعت لشحن سفينة كبيرة ؟ هنا قلنوسة سانت فرانسيس وهناك تنورة سيدتنا العذراء أو مشط سانت آن . . . لا تقدم كأشياء بريئة معاونة للدين ولكن كجوهر للدين نفسه وكلها تعبت ببساطة الناس من خلال شع القسس وهرطقة الرهبان »

ولوحظ أن إصحاح م ١٩ : ١٢ ينص على « لقد خصى بعضهم نفسه من أجل مملكة السماء » وقيل هذا للنصح بالعزوبة في الدير وكتب ارازموس « اننا ندرج بين هذه الطائفة هؤلاء الذين دفعوا إلى حياة العزوبة بالغش أو بالإرهاب حيث يسمح لهم بالزنى ويحظر عليهم الزواج وهكذا يعملون قسما مسيحيين إذا احتفظوا علنا بخليعة ويحرقون إذا اتخذوا زوجة . وفي رأي أن الآباء الذين يعتمرون نذر أولادهم للكهنة الذي يقتضى العزوبة

يكونون أرق قلباً لو خصوهم في طفولتهم بدلا من تعرضهم كلية لهذا الإغراء والخضوع للشهوة .

وفي رسالة تيموثاوس ٣ : ٢ : هناك الآن أعداد ضخمة وحشود هائلة من القسس علمانيين ونظاميين . ومن الشائع أن قلة منهم تتمسك بالعفة وأن الجانب الأكبر منهم يسقطون في حمأة الشهوة والزنى بالمحارم والفجور . وليس من شك في أنه من الأفضل أن يسمح لهؤلاء الذين لا يستطيعون التمسك بالعفة بزواج شرعيات ونهايتنا ينجون من هذا الدنس البائس التمسك .

وأخيراً عزف ارازموس اللحن الأساسي للمصلحين في تعليق عام على إصحاح متى ١١ : ٣٠ - ألا وهو العودة من الكنيسة إلى المسيح : « حقا إن قيد المسيح يكون لطيفاً وحمله خفيفاً إذا لم تضيف الشرائع الإنسانية النافهة شيئاً لما عرضه هو نفسه . إنه لم يأمرنا إلا بأن يحب بعضنا بعضاً وليس ثمة ما يصعب على المودة أن تلطف من حديثه وتخفف من مرارته . فكل شيء من السهل تحماته طبقاً للطبيعة ، ولا شيء يتفق مع طبيعة الإنسان أحسن من فلسفة المسيح التي لا هدف لها إلا إعادة البراءة والتكامل للطبيعة الهاوية . . . وقد أضافت الكنيسة لها أشياء كثيرة يمكن الاستغناء عن بعضها دون الإضرار بالإيمان . . . مثل كل تلك العقائد الفلسفية عن طبيعة الإنسان وتمييز الأشخاص . وما أكثر القواعد والأوهام التي تعرفها عن الشيا . . . وما أكثر أيام الصيام التي استنت . . . وماذا نقول عن اليهود . . . وعن سلطة البابا وإساءة استخدام صكوك الغفران والتحلل ؟ .. هل يرصى الناس أن يدعوا المسيح يحكم بمقتضى شرائع الإنجيل وألا يبحثوا بعد ذلك عن دعم طغيانهم الجامح بقوانين من صنع البشر ؟ » .

ولعل التفسيرات هي التي أتاحت للكتاب نجاحاً لا بد أنه أذهل المؤلف والناشر على السواء . وقد وزعت الطبعة الأولى في ثلاث سنوات ثم صدرت

للكتاب طبعات جديدة ومتقحة بلغت تسعة وستين قبل وفاة ارازموس .
ووجه للعمل نقد عفيف وأشير إلى ما تضمنه من أخطاء كثيرة . ولقد دمع
الدكتور جوهان ايك ، الأستاذ بجامعة انجرلشتادت وأول خصيم للوتر ،
بالعاريان ارازموس المتضمن أن اللغة اليونانية التي كتب بها العهد الجديد
أقل شأنًا من اللغة اليونانية التي كان يتكلم بها ديموستين . ومهما يكن من
أمر فإن ليو العاشر وافق على العمل . وطلب البابا أدريان السادس من ارازموس
أن يعمل للعهد القديم ما قام به نحو العهد الجديد ولكن تجلس ترنت أدان
ترجمة ارازموس وأعان أن النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس لجيرونم هي
النسخة اللاتينية الأصلية من الكتاب المقدس . وسرعان ما عد العهد الجديد
لارازموس عملاً متخلفاً من الناحية الدراسية العلمية وإن كان أثره عظيماً
باعتباره حدثاً في تاريخ الفكر ، فقد يسر ورحب بالترجمات الوطنية التي ظهرت
في أعقابه . وتقول فقرة متحمسة في المقدمة : « بودى لو قرأت أضعف
امرأة الأنجيل ورسائل القديس بولص . . بودى لو ترجمت هذه الكلمات
إلى جميع اللغات لا ليقراها الاسكتلنديون والإيرلنديون فحسب بل ليقراها
أيضاً الأتراك والمشاركة .

وإني لأود أن يفسدها الحارث لنفسه وهو يسير وراء الحراث ويترنم
بها النساج على أنغام الماكوك ويهون بها المسافر من مشقة رحلته قد
نأسف على دراسات أخرى أخذناها على عاتقنا ولكن ما أسعد المرء الذي
يفاجئه الموت وهو مشغول بها .

إن هذه الكلمات المقدسة تعطيك نفس صورة المسيح وهويتكلم ويريئ
المرضى ، وهو يموت ثم يرفع مرة أخرى ، وتجعله حاضراً بحيث لو مثل أمام
عينيك لما رأيته حقاً أوضح من هذا » .

واغتبط ارازموس الكفاية مطبعة فروبن والعاملين بها فأصدر (في
نوفمبر سنة ١٥١٦) طبعة نقد فيها ترجمة جيرونم وأعقبها بنصوص مماثلة

منقحة وكلاسية لآباء الكنيسة وصحح ١٠٠٠ رء خطأ فى النص الذى تلقاه من سينىكا وكانت، هذه خدمات جوهرية للدارسين .

وروى ثانية قصة العهد الجديد بتفسيرات (١٥١٧) وتطلبت هذه المهام الإقامة أكثر من مرة فى بازيل وان حدد ارتباط جديد لإقامته قرب البلاط الملكى فى بروكسل . وكان شارل آنذاك ملكا على قشتالة وحكماً للأراضى المنخفضة ولم يكن عندئذ قد أصبح الإمبراطور شارل الخامس ، وكان لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، ومع ذلك فإن عقله المرهف كان يهيم حول اهتمامات مختلفة، واقتنع فعلا بأن بلاطه يمكن أن يزداد تألقاً إذا كان بين مستشاريه العالمين ببواطن الأمور الكتابب السارز فى عصره . وأصدر أمراً بهذا وقبل أرازموس - لدى عودته من بازيل (١٥١٦) - ... المنصب الفخرى بمرتبة متواضع . وعرض عليه منصب دينى لى كورتران مع وعد بأسقفية فرفضه وكتب لأحد أصدقائه يقول : « هاك حلم يسليك » . وتلقى وأعرض عن دعوات بالتدريس فى جامعات ليزج وأنجولشتادت .

وحاول فرائسس الأول أن يفرق بينه وبين شارل بطالب يتناول على التلق وهو أن ينضم إلى بلاط فرنسا فرفض أرازموس العرض بلطف ورقة . وفى الوقت نفسه كان ليو العاشر قد أرسل إلى لندن التحليلات المطلوبة . وفى مارس من عام ١٥١٧ سافر أرازموس إلى لندن وتسلم رسائل البابا التى تحله من التزاماته نحو الدير ومن وصمة اللقطة . وأضاف ليو إلى الوثائق الرسمية مذكرة شخصية : « ابنى الحبيب : تمنياتنا لك بالصحة مع بركاتنا الرسولية . ان ما من الله به عليك من حياة طيبة وخلق قويم ، ولوذعيتك النادرة وأفضالك الرفيعة لا تشهد عليها آثار دراساتك التى اشتهرت فى كل مكان فحسب بل يشهد عليها أيضا اجماع آراء معظم المتعلمين . وقد أنت عايك رسائل أميرين دائمي الصيت هما ملك انجلترا ، وملك فرنسا الكاثوليكي وهذه هيأت لنا بهباً لكى نخلصك بمنة فريدة وفضل خاص .

ومن ثم أجبتنا التماسك ونحن راضون ومستعدون لكي نعلن بحيتنا الشديدة لك عندما تهين الفرصة إما بنفسك أو عندما تسنح بطريق الصدفة . ونظن بحق أن جهدك المقدس الذي يبذل باستمرار للصالح العام سوف يلتقي تشجيعاً وقدرراً عظيماً من الاهتمام بمكافآت مناسبة » .

ولعلها كانت رشوة حكيمة لسلوك حسن ، ولعلها كانت لفتة صادقة من بلاط متسامح إنسانى ، وفى أية حالة فإن ارازموس لم ينس قط هذه المجاملة البابوية وسوف يجد دائماً من الصعب أن يتحلل من كنيسة تحملت فى صبر لدع نقده .

٥ - الفيلسوف

وعند عودته إلى بروكسل وجد نفسه فريسة الإغراء بالتمسك بالحرص نظراً لما استقبل به من ترحاب ودى فى البلاط الملكى . وأخذ منصبه كمستشار خاص بجيد ، ونسى أن المؤلفين اللامعين قلما تتوفر فيهم صفة الحنكة السياسية . وألف فى عجلة عام ١٥١٦ الحافل بالأعمال كتابه : « تربية أمير مسيحي » الذى يفيض بالتفاهات التى كانت سائدة قبل ظهور كتاب ماكيافلى عن السلوك الذى يجب أن يتبعه ملك . وكتب فى إهدائه لشارل بصراحة تنسم بالجرأة : « إنك تدين للعناية الإلهية فى الفوز بمملكته دون الإضرار بأحد ولسوف تظهر حكمتك على الوجه الأكمل إذا استطعت أن تحافظ فيها على السلام والهدوء » . وكان ارازموس ، مثل معظم الفلاسفة : يعد الملكية أهون الأشكال الحكومية شراً ، وكان يخشى الشعب ويعنده « وحشاً متقلباً متعدد الرؤوس » . وكان يستنكر مناقشة الشعب للقوانين والسياسة ويرى أن فوضى الثورة أسوأ من أى استبداد للملوك ، بيد أنه أشار على أميره المسيحي أن يتق شراً تركيز الثروة ، فالضرائب لا تفرض إلا على الكماليات ، ويجب تقليل الأديرة وزيادة المدارس ، وعلاوة على كل هذا يجب ألا ينشب قتال

بين الحكومات المسيحية — ولا حتى ضد الأتراك . « خير لنا أن نتغلب على الأتراك بالتقوى في حياتنا لا بالأسلحة . وهكذا يتم الدفاع عن الإمبراطورية المسيحية . بنفس الوسائل التي أسست بها أصلاً » . « ماذا تولد الحرب إلا الحرب ؟ — ولكن الدمامة تدعو إلى الدمامة والعدالة تدعو إلى العدالة » .

ولما كان شارل وفرانسس قد ثارت بينهما العداوة فإن إرازموس وبجه الدعوة تلوا الدعوة للسلام وامتدح الملك الفرنسي في حالة « العداوة من المصالحة وتساءل كيف يمكن أن يفكر أحد في شهر الحرب على فرنسا « أظهر جزء في العالم المسيحي وأعظمه ازدهاراً » . ووصل إلى ذروة الفصاحة المتحمسة في كتابه (الشكوى من السلام ١٥١٧) :

« أمر في صمت على مآسى الحروب القديمة ولن أركز الحديث إلا على الحروب التي نشبت في خلال هذه السنوات الأخيرة . أين الأرض أو البحر الذي لم يحارب فيه الناس بطريقة من أقسى ما يمكن ؟ وأين النهر الذي لم تصطبغ مياهه بدم الإنسان . . . بالدم المسيحي ؟ يا للعار العظيم المنهم يتصرفون بقسوة في المعركة تزيد على قسوة غير المسيحيين ، وبوحشية تفوق وحشية حيوانات الغاب . . وكل (هذه الحروب) نشبت بسبب نزوات الأمراء على حساب الإضرار بالناس الذين لا ناقة لهم ولا جمل في هذه المعارك . . . وليس بين الأساقفة والكرادلة والبابوات ، وهم كهنة المسيح ، من ينجل من بدء الحرب التي لعنها المسيح . ما هو الشيء المشترك بين الخوذة وتاج الأسقف ؟ ويا أيها الأساقفة ، يامن يحملون لواء الرسل ، كيف تجرؤون على أن تعلموا الناس أموراً كثيرة عن الحرب في أنفس الوقت الذي تعلمونهم فيه تعاليم الرسل ؟ إن السلام ولو كان جائراً أفضل من الحروب ولو كانت تملئها العدالة » .

قد بدء الأمراء والقواد من الحرب ولكن الجماهير تتمثل المآسى والنفقات . وقد يكون من الضروري أحياناً شن حرب دفاعاً عن النفس

ولكن حتى في هذه الحالات قد تكون رشوة العدو أشد حكمة من شروط الحرب . فليرفع الملوك منازعاتهم إلى البابا . وقد يكون هذا إجراء غير علمي في عهد يوليوس الثاني إذ كان هو نفسه رجلاً محارباً ، أما ليو العاشر وهو « حبر متعلم تقي أمين » فإنه سيحكم بالعدل ويرأس فعلاً محكمة دولية : ووصم ارازموس القومية بأنها لعنة للبشرية وتحدى السياسة أن يتندعوا حكومة عالمية . وقال : « إنى أتمنى أن أكون مواطناً عالمياً » واغترى لبودى حبه لفرنسا ولكنه قال : « في رأي أنه أقرب للحكمة أن تكون علاقاتنا مع الأشياء والناس أساساً مثل اعتبار العالم البلد المشترك بالنسبة لنا جميعاً » .

كان ارازموس أضعف الناس حماساً للقومية في عهد الإصلاح الذي رفع من شأن القومية . وكتب يقول : « إن أسمى شيء هو أن يستحق المرء أن ينسب إلى الجنس البشرى » .

ويجب ألا نتوقع من ارازموس أن يقدم لنا أى مفهوم واقعى للطبيعة البشرية أو عن أسباب الحروب أو عن سلوك الحكومات فهو لم يواجه قط المشكلة التى كان يعالجها في مكيا فيلى في تلك السنوات نفسها . وهل كان في وسع حكومة أن تبقى إذا مارست الأخلاق التى تحت المواطنين على اتباعها . كانت وظيفة ارازموس أن يبتز الأغصان من شجرة الحياة لأن يبنى فلسفة إيجابية متينة . بل إنه لم يكن واثقاً من أنه مسيحى ، فكثيراً ما أكد أنه يقبل عقيدة الرسل ، ومع ذلك فلا بد أنه شك في الجحيم لأنه كتب : « إن الذين ينكرون وجود الله ليسوا ملحدين كهؤلاء الذين يصورونه تعالى متمزناً » . وكان لا يكاد يؤمن بأن العهد القديم من كلام الله لأنه أقر برغبته في « أن يرى العهد القديم كله يبطل » إذا كان يهدئ من الحق على رويخلين . وسخر من الروايات المأثورة عن مينوس وتوما بأنهما كانا يغريان شعبيهما بالخضوع لتشريع غير لطيف بنفسه إلى الآلهة . ولعله راوده الشك في أن موسى كان يتبع نفس السياسة . وعبر عن دهشة لأن

« مور » رضى بالحجج التى تساق لإثبات خلود النفس ورأى أن العشاء الربانى رمز وليس معجزة ، ومن الواضح أنه راوده الشك فى الثالث وفى تجسد الأنوم الثانى وفى ولادة العذراء ، وكان على مور أن يحميه من مراسل أعلن أن ارازموس قد اعترف فى خلوة بعدم إيمانه . وطرح للنقاش واحداً بعد الآخر العادات التى درج عليها المسيحيون فى عهده — صكوك الغفران والصيام والحج والاعتراف السرى والرهبانية والعزوبة الاكليريكية وعبادة مخلقات القديسين والصلوات للقديسين وحرق الهراطقة . وقدم تفسيرات مجازية أو منطقية لكثير من فقرات الكتاب ، المقدس ، وقارن قصة آدم وحواء بقصة بروميثيوس ، وأشار بتفسير الكتب المقدسة تفسيراً يلتزم أقل ما يمكن المعنى الحرفى ، وحول عذاب الجحيم إلى الألم الدائم للعقل الذى يصحب الإثم المعتاد . ولم يدع شكوكه بين الناس لأنه لم يكن لديه أساطير مواسية أو رادعة يقدمها بدلا من الأساطير القديمة . وكتب يقول : « إن التقوى تستلزم منا أن نخفى الحقيقة أحيانا وأن نحصر على ألا نظهرها دائماً كما لو كان لا يهم متى وأين أو لمن نظهرها ، ولعلنا نجد لازماً علينا أن نتفق مع أفلاطون فى أن الأكاذيب مفيدة للناس » .

وعلى الرغم من هذا الميل الشديد للمذهب العقلى فقد ظل ارازموس ظاهرياً متفقاً مع المحافظين ولم يعدم قط محبته للمسيح وللأنجيل وللطقوس الدينية الرمزية التى رفعت بها الكنيسة من شأن التقوى . وابتدع شخصية فى محاوراته تقول « إذا كان ثمة شئ شائع الاستعمال عند المسيحيين لا يتنافر مع الكتب المقدسة فإنى أراعيه لهذا السبب بحيث لا أسئ إلى الناس الآخرين » .

وكان يحلم بأن يستبدل باللاهوت : فلسفة المسيح ، وسعى إلى التنسيق بين هذه الفكرة وبين رأى كبار الوثنيين . ووصف أفلاطون وسبشرون وسينكا بعبارة « ملهم من الله » ولم يقبل أن يحرم هؤلاء الرجال من الخلاص

وكان لا يكاد يستطيع أن يمتنع عن الصلاة على روح القديس سقراط .
وطلب من الكنيسة أن تختصر المذاهب الجوهرية للمسيحية « إلى أقل عدد
ممكن وأن تترك للباقي حرية الرأي » . ولم يدافع عن التسامح الكامل مع
كل الآراء (ومن يفعل ؟) ولكنه اتخذ موقفاً رفيعاً منحازاً نحو الهرطقة
الدينية . وكان مثله الأعلى في الدين هو محاكاة المسيح ومهما يكن من أمر فلنا
يجب أن نسلم بأن ممارسته للشعائر كانت أقل من أن توصف بأنها مطابقة
لتعاليم الكنيسة الإنجيلية .

٦ - الإنسان

كيف عاش فعلاً ؟ لقد أقام إبان هذا العهد (١٥١٧) معظم وقته في
الفلاندرز في بروكسل وأنتورب ولوفان - وسكن في خلوة أعزب مع
خادم وإن كان كثيراً ما قبل ضيافة ذوى الثراء الذين كانوا يتسابقون على
صحبته باعتبارها امتيازاً اجتماعياً واحتفالاً فكرياً .

وكان أنيقاً في أذواقه وكانت أعصابه ومشاعره رقيقة إلى الحد الذى
كان كثيراً ما يتألم فيه من خشونات الحياة الشديدة . وكان يشرب النبيذ
بكثرة ويتفاخر بقدرته على حمل الكأس بثبات ، ولعل هذا كان بسبب داء
النقرس والحصوات التى كانت تضايقه ، ولكنه كان يعتقد أن النبيذ يخفف
من ألمه بتوسيع شرايينه .

وفى عام ١٥١٤ وهو فى الخامسة والأربعين أو الثامنة والأربعين من
عمره وصف نفسه قائلاً إنه : « عليل أشيب الرأس . . . يجب ألا يشرب
سوى النبيذ » ويجب أن « يكون متأنقاً فى طعامه » . وكان الصيام لا يناسبه ،
وكان يتميز غيظاً من السمك ، ولعل الصفراء عنده لونت لاهوته . وكان
قليل النوم مثل معظم الناس الذين لا تعرف عقولهم المشغولة متى يأوون إلى
الفراش ، وكان يواسى نفسه بأصدقائه وكتبه « ينحى إلى أنى أنتزع من نفسى

عند ما أحجز عن عاداتي اليومية في الدراسة . إن يتي هو المكان الذي توجد فيه مكتبتي .

وكان يلح في طلب النقود بكل ما عرف من مثابة عن قسيس أبرشية ، وذلك لشراء الكتب إلى حد ما . وكان يتلقى معاشات منتظمة من مونتجوى ووارهام وهدايا عينية مثل مبلغ الثلاثمائة فلورين (٧٥٠٠ دولار ؟) من جان ليه سوفاج رئيس وزراء بورجنديا ، وحقوق تأليف تزيد عن تلك التي كسبها أى مؤلف آخر في عصره .

وكان يتنصل من أى حب للمال ويقول إنه يبحث عنه لأنه ، كأي رجل بلا موارد ، يخشى ألا يجد ما يؤمنه في وحدته عند ما يبلغ أرذل العمر . وفي الوقت نفسه استمر يرفض الوظائف المربحة التي كان يمكن أن توسع دخله على حساب حريته .

كان مظهره أولا لا يؤثر في الناس ، فقد كان قصير القامة نحيل البدن أصفر الوجه ضعيف البنية ، خافت الصوت ، وكان يؤثر في الناس بيديه الحساستين وأنفه الأفتى وعينه الزرقاوين الرماديتين اللتين تلمعان بهريق الذكاء ، وكلامه حديث يدل على عقلية خصبة لماحة من أحسن العقليات في هذا العصر الاعم ، وكان أعظم الفنانين من معاصريه أبناء الشمال يتوقون إلى رسم صورة له ، فوافق على أن يجلس أمامهم لأن هذه الصور كانت تلقى ترحيبا من أصدقائه باعتبارها هدايا ، وصوره كينتان ماسيس عام ١٥١٧ وهو مستغرق في الكتابة وملثف بمعطف ثقل يقيه برد الحجرات في تلك القرون ، وأهديت هذه الصورة إلى مور . ورسم ديرر صورة بالفحم لارازموس عام ١٥٢٠ ، ونقش له حفرا ملفتا للنظر عام ١٥٢٦ ، وهنا أضفت لمسة الريشة الألمانية تماما على « الأوروبي الطيب » سحنة هولندية . وقال الجالس « إذا كنت أبدوك هذه الصورة فأنا محتال كبير » . وتفوق هولبين على

كل هذه الجهود في صور كثيرة رسمها لارازموس إحداها في تورين وثانية في إنجلترا وثالثة في بازيل وأحسنها في اللوفر - وكلها روائع رسمها أعظم مصور للوجوه في الشمال ، وهنا كان العلامة قد أصبح فيلسوفا هادئا متأملا وإن كان سوداويا إلى حد ما ، وسلم في نفور لحياذ الطبيعة المتواكل وفناء العبقرية . وكتب عام ١٥١٧ يقول : « يجب أن نتحمل ما يأتي به حظنا وقد هيأت عقلي لتقبل كل حدث » . وهي فلسفة رواقية لم يحققها قط . . . وقال عن شاب طموح : « إنه يحب المجد ولكنه لا يعرف ما يكلفه المجد من عناء » . ومع ذلك فإن لارازموس مثل كثير من ذوى النفوس النبيلة ، كان يواصل العمل ليلا ونهارا ليتغلب على هذا العبء .

وبدت أخطاؤه واضحة للعيان ، أما فضائله فكان لا يعلمها إلا الخالصاء من أصدقائه ، وكان في وسعه أن يتسول بلا خجل ، ولكن كان في وسعه أيضا أن يعطى ، وكثيراً ما كانت تشيع في حرارة مدحه روح متمردة . وعند ما وجه بفيفركورن Pfefferkorn هجومه إلى رويجلين كتب لارازموس إلى أصدقائه من الكرادلة في روما ، وساعد على الحصول على الحماية للعالم بآداب اللغة العبرية المتعب ، وكان يفتقر إلى التواضع والاعتراف بالجميل ، فقد كان هذا من الصعب على رجل يخطب وده البابوات والملوك .

وكان يضيق ذرعا بالنقد ويستاء منه ، وكان أحيانا يجيب عليه بطريقة نعسنية في هذا العصر الشهير بالجلد ، وشاطر في مناهضة السامية حتى مع علماء عصر النهضة ، وكانت اهتماماته في أضيق الحدود كما كانت قوية ، فقد أولع بالأدب عند ما كان يلبس ثوب الفلسفة ، وبالفلسفة عند ما كانت تترك المنطق للحياة ؛ ولكنه تجاهل تقريبا العلم والمسرح والموسيقى والفن . وسخر من معظم نظم الفلك التي كانت تحتال على المسرح وسخرت معه النجوم . وليس في كل مراسلاته العديدة تقدير للأب أولمارة أكسفورد

وكامبريدج أو لتصوير رافائيل أو لنحت مايكلانجلو الذين كانوا يعملون ليوليوس الثانى عندما كان ارازموس بروما (١٥٠٩) ، ثم إن الترتيل القوى فى الأبرشيات المقومة آذى فيما بعد أسماعه المهذبة . وكانت حاسة الفكاهة عنده عادة تتسم بالدقة والرقه ، وكانت راييلية ولكنها فى الغالب ساخرة ، وانقلبت مرة إلى سخرية لا تتسم بالإنسانية كما حدث عندما كتب إلى صديق عندما سمع بإجرام بعض المراطقة : « سأرثى لهم أقل . إذا رفعوا ثمن الوقود لا سيما وأن الشتاء على الأبواب » .

ولم تكن من صفاته الأثرة الطبيعية أو الأنانية التى يتسم بها كل الرجال ، بل كان يتصف بذلك الغرور الخفى الحجب أو الإعجاب بالذات الذى لولاه لانسحق الكاتب أو الفنان فى الاندفاع القاسى لعالم يتسم بعدم التكرار .

وكان يحب الإطراء ويوافق عليه على الرغم من كانوا ينكرون عليه ذلك من آن لآخر . وقال لأحد أصدقائه : « إن خير النقاد يقولون إنى أكتب أحسن من أى إنسان آخر على ظهر الأرض » . وكان هذا حقا وإن كان باللاتينية فحسب ، فقد كان يكتب بفرنسية رديئة ويتحدث قليلا بالهولندية والإنجليزية ، وكان « يتذوق العبرية بطرف اللسان فقط » وكان يعرف اليونانية معرفة ناقصة ولكنه كان يجيد تماما اللغة اللاتينية ، وكان يستخدمها باعتبارها لغة حية يمكن تطبيقها على معظم التفاهات والأشياء الحقيرة غير اللاتينية فى عهده . وقد اغتفرت أجيال قرن مشغوفة بالكلاسيات معظم أخطائه نظرا لما يمتاز به أسلوبه من إشراقة زاهية . وما تتسم به تقديراته للأشياء ، بأقل من قيمتها ، من سحر عجيب ، وما تتصف به سخريته من تهكم لاذع . وتضارع رسائله خطابات سيثرون فى البلاغة والدماثة وتفوقها حيوية وفطنة . وفضلا عن هذا فقد تفرد بلغة لاتينية خاصة به ، ولم تكن تقليدا للغة شيشرون بل كانت كلاما حيا قويا طيعا ،

ولم تكن صدى لألفاظ مضى عليها ١٥٠٠ عام . وكانت رسائله مثل رسائل بترارك مطمح أنظار الأدباء والأمراء بعد حديثه المثير وهو يقول لنا ، ولعل هذا بشيء من الرخصة الأدبية ، أنه كان يتسلم كل يوم عشرين رسالة ويكتب أربعين خطابا . ونشرت منها بضع مجلدات في حياته بعد أن فتحها مؤلفها بعناية حتى يقرأها من يأتون بعده . وكان بين من يراسلونه ليو العاشر وأدريان السادس والملكة مارجريت ملكة نافار والمملك سيجموند الأول ملك بولنده وهنرى الثامن وموروكوليه وبيركايمار . وكتب مور المتواضع : « لا أستطيع أن أتخلص من شعور نزوى بالغرور . . . عندما يخطر ببالي أنى سأكون موضع ثناء من خلف بعيد لصداقتى لارازموس » .

ولم يضارعه في شهرته كاتب آخر من معاصريه ، اللهم إلا إذا اعتقدنا أن لوثر كاتب . وأبلغ بائع كتب في اكسفورد عام ١٥٢٠ أن ثلث مبيعاته كانت من أعمال ارازموس . وكان له أعداء كثيرون وبخاصة بين علماء اللاهوت في لوفان ، غير أنه كان له مريدون في اثنتى عشرة جامعة ، وكان هناك علماء للإنسانيات في أوروبا ينادون به قدوة وزعيما . وفي ميدان الأدب كان يمثل عصر النهضة ومذهب الإيمان بالإنسان مجتمعين — عبادتهما للكلاسيات ولأسلوب لاتيني مصقول واتفاق الجنتلمان (السادة المهذبين) على ألا يختلفا مع الكنيسة وألا يزعجا أساطير الجاهير التي لا غنى عنها ، على شريطة أن للكنيسة أن تغض النظر عن الحرية الفكرية لطوائف المتعلمين وتسمح بتقويم مفاصد وسخافات رجال الدين تقويما داخليا قانونيا ، وقد هزل ارازموس مثل كل علماء الإنسانيات لتبوء ليو العاشر منصب البابوية ، فقد تحقق حلمهم — وها هو عالم بالإنسانيات وعلامة وسيد مذهب ، يمثل اتحاد النهضة والمسيحية معا ، قد ارتقى أعظم العروش . وليس من شك في أنه سوف يتم تطهير سلمى للكنيسة ، وينتشر التعليم ، وسيحافظ الناس

على شعيرتهم المحببة وإيمانهم الذى يجدون فيه العزاء وإن كان العقل البشرى سوف يكون حرا .

وظل هذا الأمل يراود ارازموس حتى بداية عهد لوثر تقريبا ، ولكنه فى اليوم التاسع من سبتمبر عام ١٥١٧ كتب من انتورب إلى توماس ، كردينال يورك ، عبارة تنذر بالويل : « فى هذا الجزء من العالم أخشى أن هناك ثورة عظيمة توشك على الوقوع » . وفى أقل من شهرين وقعت الثورة .

الفصل السادس عشر

المانيا قبيل عهد لوثر

١٤٥٣ - ١٥١٧

١ - عصر آل فوجر

كان التوفيق حلفا لكل الطوائف في ألمانيا ما عدا الفرسان في السنوات الخمسين الأخيرة قبل عهد الإصلاح الديني ، ولعل ارتفاع منزلة الفلاحين هي التي زادت من استيائهم على ما بقي من إحساسهم بالعجز . إذ كانت قلة منهم لا تزال من طائفة عبيد الأرض وأقلية منهم ملاكا ، وكانت غالبيتهم مزارعين مستأجرين يدفعون الإيجار إلى السادة الإقطاعيين لإنتاجا عينا أو يقدمون لهم خدمات أو نقوداً . وكان المستأجرون يشكون من ظلم السادة ، من أيام العمل الإثني عشر والتي تصل إلى ستين يوما في بعض الأحوال والتي حتمت التقاليد أن يبذلوها لهم في كل عام ، ومن استرداد الأرض من عامة الناس ، تلك الأرض التي جرى العرف على السماح لهم فيها بصيد الأسماك وقطع الأخشاب ورعى الماشية ، ومن الأضرار التي لحقت بالمحاصيل من صيادي السيد وكلابهم ومن سياسة القضاء المتحيزة في المحاكم المحلية ، وكان الملاك يسيطرون عليها ، ومن الضريبة على الموتى التي كانت تفرض على أسرة المستأجر عند ما يخل موت عمدها بالعناية بالأرض . وثار الملاك الفلاحون غضبا بسبب الضرائب المضاعفة التي كان لزاما عليهم أن يدفعوها على القروض المطلوبة لنقل محصولاتهم وعلى حبس الرهن السريع للمزارع بوساطة المرابين ، وكانوا يقدمون القروض للملاك الذين يتضح لهم عجزهم عن السداد ؛ ولقد

أضمرت كل عواطف الفلاحين العداء لضريبة العشور السنوية التي تفرضها الكنيسة على محاصيلهم وماشيتهم .

وأضرم هذا التذمر نيران ثورات الفلاحين فانتشرت خلال القرن الخامس عشر ، وقام الفلاحون حول ورمز بثورة لا طائل تحتها عام ١٤٣٢ ، واختاروا حذاء أحد الفلاحين علماً لهم ، وكان حذاء طويلاً يكسو الساق من الرسغ إلى الركبة ، وعلقوه على الشواخص ، كما رسموا صورته على الأعلام . وأصبح رباط الحذاء العنوان المحبب لعصابات المتسردين من الفلاحين في عهد لوثر .

ولقد أعلن عام ١٤٧٦ راعي أبقار يدعى هانز بوهم أن أم الإله قد كشفت له أن مملكة السماء على الأرض غدت قريبة دانية ولن يكون هناك أباطرة ولا بابوات ولا أمراء أو سادة لإقطاعيون . وأن جميع الرجال سيكونون إخوة وجميع النساء أخوات ، الكل يشاطر على قدم المساواة ثمار الأرض ، وأن الأراضي والغابات والمراعي ستكون مشاعاً وماكاً للجميع . وأقبل آلاف الفلاحين ليستمعوا إلى هانز وانضم له أحد القسيس وابتسم أسقف فيرستبورج في تسامح ولكن عندما طلب هانز من أتباعه أن يحضروا معهم في الاجتماع القادم كل الأسلحة التي يستطيعون جمعها أمر الأسقف بالقبض عليه وأطلق جنوده النار على الجمهور الذي حاول إنقاذه وفشلت الحركة .

وفي عام ١٤٩١ هاجم الفلاحون في ضيعة رئيس دير الرهبان في كيسيبتين في الأنازاس ديره ، وزعموا أنهم أكرهوا على أن يكونوا رقيقاً للأرض بوثائق مزيفة . وعقد الإمبراطور فريدريك الثالث معهم مصالحة . وبعد مرور سنتين أعلن أتباع أسقف ستراسبورج ثورة رباط الحذاء ، وطالبوا بإلغاء الضرائب الإقطاعية وضرائب العشور الكنسية وإلغاء كل الديون وقتل كل اليهود . وفكروا في الاستيلاء على مدينة شلستادت ، فقد كانوا يأملون أن

يمدوا سلطانهم على الأزراس . وعلمت السلطات بالمؤامرة وقبضت على الزعماء وعذبته ثم شنقتهم وأفرغت الباقي فاعلنوا الخضوع إلى حين . وفي عام ١٥٠٢ كون فلاحو أسقف سبيير عصابة « رباط الحذاء » من ٧٠٠٠ رجل وتعاهدوا على إنهاء الإقطاع ومطاردة كل القسس والرهبان وقتلهم . واسترداد ما كانوا يعتقدون أنه كان مشاعا لأجدادهم . وأفشى أحد الفلاحين سر الخطة على كرسي الاعتراف فاتحد رجال الدين والنبلاء على إحباطها وعذب زعماء المتآمرين وشنقوا .

وفي عام ١٥١٢ نظم جوس فريتز حركة مماثلة قرب فرايبورج — ام — برايزجاو ، وكان من شأنها أن تبقى على الله والبابا والإمبراطور وأن تقضى على كل ملكية إقطاعية وضرائب يفرضها الإقطاعيون . غير أن واحداً من الفلاحين أكره على الانضمام لهذه الرابطة وأفشى سرها للقس الذي اعترف أمامه فاعتقلت السلطات الزعماء وعذبته وفشلت الثورة ، إلا أن جوس فريتز عاش إلى أن انضم إلى ثورة الفلاحين عام ١٥٢٥ ، وفي عام ١٥١٧ تكونت جماعة من ٩٠.٠٠٠ فلاح في ستيريا وكارينثيا وتعاهدوا على القضاء على الإقطاع هناك وظلت عصابتهم لمدة ثلاثة شهور تهاجم القلاع وتقتل بالسادة ، وأخيراً أرسل الإمبراطور ماكسمليان ، وكان يعطف على قضيتهم وإن لم يرض عن توسلهم بالعنف ، قوة صغيرة من الجنود وأرغمته على السلم على مضض . ولكن المسرح كان معداً لحرب الفلاحين وللشيوعية اللامعمدانية في الإصلاح الديني بألمانيا .

وفي غضون ذلك كانت تقوم في عالمي الصناعة والتجارة بألمانيا ثورة أملاها الأمر الواقع . كانت معظم الصناعات لا تزال يدوية وإن تزايدت عليها سيطرة رجال الأعمال الذين يقدمون المواد الخام ويماونها ويشترون الإنتاج النهائي ويبيعونه ، وكانت صناعة التعدين تتقدم بسرعة وجنيت أرباح عظيمة من استخراج الفضة والنحاس والذهب ، وأصبحت سبيكة الذهب

أو الفضة عندئذ وسيلة محببة لاختزان الثروة ، ومكنت حقوق التعدين لأمرء الإقليم — وبخاصة أمير ساكسونيا وكان يحمى لوثر — مكنت بعضهم من مقاومة البابا والإمبراطور معا . وسكت نقود فضية يعتمد عليها وتضاعف عدد النقد وتم أو كاد التوصل إلى اقتصاد يركز على النقد ، وأصبحت حيازة سبيكة فضية أمراً شائعاً في الطبقتين الوسطى والعليا ، وعرضت بعض الأسر مناضد أو مقاعد من الفضة الخالصة وتراكت في الكنائس الألمانية ، أوعية وكتوس قداس وجفان بل وتمثيل من الفضة أو الذهب ، وجعلت الأمراء يميلون إلى إصلاح ديني يسمح لهم بتصفية الثروة الكنسية . وقد تعجب ألياس سيلفيوس عام ١٤٥٨ عندما رأى أصحاب حانات في ألمانيا يقدمون بانتظام الشراب في كتوس فضية وتسأل : « أية امرأة ، لا بين طبقة النبلاء فحسب بل بين طبقات الدهماء ، لا تتألق بالتحلى بالذهب ؟ -- وهل أذكر شكائهم الخيول المزينة بنقوش بارزة من خالص الذهب و . . » . أسلحة وخوذات تلمع بالذهب ؟ » وأصبح الممولون الآن قوة سياسية عظيمة ، واستبدل بمقرضى النقود من اليهود مؤسسات تديرها عائلات مسيحية من الولزين والهوخستيتير والفوجر ، وكلهم من أوجسبورج وكانت عاصمة المال في العالم المسيحي في نهاية القرن الخامس عشر . ولقد أصبح جوهان فوجر ، وهو ابن نساج ، تاجراً للمنسوجات وترك عند وفاته (عام ١٤٠٩) ثروة صغيرة من ٣٠٠٠ فلورين (٧٥٠٠٠ دولار ؟) وتوسع ابنه جاكوب في العمل وعندما مات (١٤٦٩) ترك ثروة تعد السابعة بين الثروات في أوجسبورج ، واستطاع أولريخ وجورج وجاكوب الثانى أبناء جاكوب أن يرقوا بالمؤسسة إلى مكان الصدارة بتقديم المال إلى الأمراء في ألمانيا والنمسا وهنغاريا ، وذلك في مقابل الحصول على دخول المناجم أو الأراضي أو المدن . ومن هذه الاستثمارات التي تعتمد على المضاربة جمع آل فوجر أرباحاً فاحشة وما أن حل عام ١٥٠٠ حتى كانوا أغنى أسرة في أوروبا .

وكان جاكوب الثانى عمقرى الأسرة الذى لا يبارى ، فقد كان مقداما قاسيا مجدا . ودرب نفسه ، على طريقة الرواقين ، بدراسة كل مرحلة من مراحل العمل وكل تقدم فى مسك الدفاتر والصناعة والمتاجرة والتمويل . وطالب بالتضحية بكل شىء فى سبيل العمل ما عدا الأسرة نفسها وبإخضاعه كل فرد من آل فوجر فى سبيل مصلحة الأسرة وأسس المبدأ القائل بالألا سلطة لأحد فى المؤسسة سوى فرد من آل فوجر ولم يسمح قط لعلاقاته السياسية بالتأثير فى قروضه . وكون اتحادات مع المؤسسات الأخرى للتحكم فى سعر المنتجات المختلفة ومبيعاتها ، ولذلك عقد عام ١٤٩٨ هو وإخوته اتفاقاً مع تجار أوجسبورج يقضى « بتضييق الخناق » على سوق البندقية فى النحاس ورفع السعر . وفى عام ١٤٨٨ أقرضت الأسرة ١٥٠٠٠ فلورين للأرشيذوق سچيسموند النمساوى . وتسلمت ضمانا للقرض كامل لإنتاج مناجم الفضة فى شفارتز إلى أن يتم سداد القرض . وفى عام ١٤٩٢ اتفق آل فوجر مع آل تورزوس من كراكا وعلى قيام اتحاد (كارتل) لاستغلال مناجم الفضة والنحاس فى هنغاريا وللحفاظ على « أعلى سعر ممكن » للمنتجات ، وما أن حل عام ١٥٠١ حتى كان آل فوجر يقومون بمشروعات واسعة التعدين فى ألمانيا والنمسا وهنغاريا وبوهيميا وإسبانيا . وعلاوة على هذا فإنهم استوردوا المنسوجات وصنعوها وتاجروا فى الأقمشة الحريرية والقطنية والفراء والتوابل وثمار الليمون والدخائر والمجوهرات ونظموا نقلا سريعا وخدمة بريدية خاصة ، وما أن حل عام ١٥١١ وأصبح جاكوب الثانى المدير الوحيد للمؤسسة حتى كانت أمهولها قد وصلت إلى ١٩٦٧٩١ جيلدر . وفى عام ١٥٢٧ (بعد عامين من وفاته) قدر رأس مالها بمبلغ ٢٠٢١٢٠٢ جيلدر (٥٠٠٠٠٠٠ دولار) — بواقع ربح سنوى قدره خمسون فى المائة خلال ستة عشر عاما .

ولقد حصل جانب من هذا الربح من علاقات آل فوجر بالأباطرة

والبابوات إذ قدم أولريخ فوجر قروضا لفرديريك الثالث وأصبح جاكوب الثاني الوسيط الأول لماكسميليان الأول وشارل الخامس وقد تحقق امتداد سلطان آل هابسبورج في القرن السادس عشر بفضل قروض آل فوجر وعلى الرغم من أن جاكوب لم يعبأ بتحديد الكنيسة للفوائد ومحاولات رجال الكنيسة أن يحددوا « ثمننا عادلا » لسلع المستهلكين فإنه ظل كاثوليكيًا . وقدم القروض لرجال الدين للوفاء بنفقات ترقيةهم ، وحصل مع أولريخ (عام ١٤٩٤) على حق إدارة أموال البابا في ألمانيا واسكنديناوة وبوهيميا وهنغاريا ، وكان جاكوب فوجر في السنوات الأخيرة من عمره مواطنا مبعجلا ومكروها في ألمانيا ، وهاجمه بعض الكاثوليكين باعتباره مرايبا كما هاجمه بعض النبلاء بسبب رشوته لهم للظفر بمنصب أوفنودز ، وبعض التجار لاحتكاراته التي أثارت حسدهم ، وسخط عليه كثير من العمال لإلغائه لوائح التجارة والمال في العصور الوسطى ، ومعظم البروتستانت لتصديره الأموال الألمانية إلى البابوات . ولكن الأباطرة والملوك والأمراء والبطاركة بعثوا له بالرسائل وخاطبوه كأنه أحد الحكام ورسم ديرر وبورجكمير وهوللين الكبير صورة شخصية له بدا فيها رجلا واقفيا بسيطا صارما ، وأنعم عليه ماكسميليان بلقب كونت الإمبراطورية ، وحاول جاكوب أن يكفر عما ارتكبه من خطايا بجمع ثروته ببناء ١٠٦ منزلا للفقراء من الكاثوليك بأوجسبرج^(١) ، وأنشأ معبدا صغيرا في كنيسة سانت أنا لتدفن فيه رفاقته ومات بوسط جو مضمخ بالقداسة وخلف ملايين الجيلدرات ، ولم يعقب ذرية فقد حرمته الحياة أعظم عطاياها .

ويمكننا أن نقول إنه هو الوحيد الذي أفتتح عصر الرأسمالية ونمو الاحتكارات الخاصة وسيطرة رجال الأعمال بأموالهم على السادة الإقطاعيين

(١) لا تزال هذه المستعمرة « فوجيراي » موجودة وهي تتقاضى اثنين وأربعين ألف فرنك

(ستة وثمانين سلطا) من الأسرة كل عام .

الذين يملكون الأرض ، وكان التعدين وصناعة المنسوجات يرتكزان على أنظمة رأسمالية أى ، يشرف عليهما من يقدمون رأس المال — فى نهاية القرن الخامس عشر ، على نسق زعامة الفلاندرز وإيطاليا فى صناعة المنسوجات قبل ذلك بمائة عام .

وكان الرأى السائد فى العصور الوسطى هو أن الملكية الفردية وديعة عامة إلى حد ما : فحقوق المالك تحددها احتياجات الجماعة التى أتاح نظامها له الفرص والتسهيلات والحماية . وربما فى ظل القانون الرومانى — وكان قد حجب وقتذاك الفقه الألمانى — بدأ المالك يرى أن ملكيته مطلقة وشعر بأن له الحق فى أن يفعل بملكه ما يشاء . ولذلك لم يبد من الخطأ لآل فوجر وآل هونخستير وغيرهم من « أمراء التجار » أن (يضيقوا الخناق) على إنتاج ثم يرفعوا سعره أو يكونوا اتحادات (كارتلات) لتحديد الناتج والتحكم فى التجارة أو أن يمارسوا الاستثمارات بحيث يغشون صغار حاملى الأسهم . وفى عديد من الأمثلة نجد تاجرا يضع وكلاءه على أبواب المدينة ومعهم أوامر بأن يشتروا كل البضائع الواردة من صنف معين حتى يبيعها بالسعر الذى يفرضه فى المدينة . وقد اشترى امبروز هونخستير كل ما أمكن الحصول عليه من الزئبق ثم رفع سعر بيع التجزئة بمقدار ٧٥ فى المائة . واشترت شركة ألمانية فلولا من ملك البرتغال بمبلغ ٦٠٠.٠٠٠ جيلدر بسعر يزيد على السعر العادى على شريطة أن يتقاضى الملك سعراً أعلى من كل مستوردى الفلفل من البرتغال إلى ألمانيا . وعن طريق هذه الاتفاقات والإحتكارات من ناحية ، وعن طريق ترايد الثروة وزيادة الطلب على البضائع من ناحية أخرى ، وعن طريق ارتفاع الوارد من المعادن النفيسة من أوروبا الوسطى وأمريكا ارتفعت الأسعار بين حامى ١٤٨٠ و ١٥٢٠ بسرعة لانظير لها إلا فى قرننا هذا : وقال لوثرشاكيا : « فى خلال زمن قصير وبسبب الربا والشح أصبح من كان فى وسعه سابقا

أن يعيش بمبلغ مائة جيلدر لا يستطيع الآن أن يعيش بمبلغ مائتين . وهى
حكاية رويت أكثر من مرتين .

وقد شهدت العصور الوسطى تفاوتاً شاسعاً فى السلطة السياسية ، وأضاف
عصر آل فوجر الحديد تبايناً اقتصادياً لم تعرفه أوروبا منذ عهد أصحاب
الملايين والعبيد فى إمبراطورية روما ، فبعض التجار الرأسماليين فى أوجسبرج
أو نورمبرج كان عند كل منهم ثروة تعادل ١٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ فرنك
(١٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ر ٢٥٠ دولار ٢) واشترى الكثيرون مكانة بين الأرستقراطية
صاحبة الأرض وارتدوا دروعاً عليها شعارهم وعوضوا احتقار الأشراف
« بإسراف مبالغ فيه » ، فقد كان جواكيم هونستيتير وفرانز باو مجارتنر
ينفقان ٥٠٠ ٠٠٠ فلورين (١٢٥٠٠٠ دولار ٢) على مأدبة واحدة أو يقامران
فى لعبة واحدة بمبلغ ١٠٠ ٠٠٠ فلورين ، وقد أثارت بيوت رجال الأعمال
الأغنياء الفاخرة الأثاث والزخارف الفنية استياء طبقة النبلاء ورجال الدين
والدهماء على حد سواء ، وانضم الوعاظ والكتاب والثوريون فى ثورة عارمة
ضد المعتكرين ، وطالب جايلر فون كايزرسبرج بأن « يطاردوا كالدثاب
ما داموا لا يخشون الله ولا الناس وينشرون المجاعة والعطش والفقر » . وميز
أولريخ فون هوتن أربعة طوائف من اللصوص : التجار وفقهاء القانون
والقسس والفرسان ، ورأى أن التجار إنما هم أخطر هؤلاء اللصوص جميعاً .
« وطالب مجلس الريخستاغ فى كولون كل السلطات المدنية بأن تتخذ
الإجراءات » بحزم وشدة (ضد كل الشركات الرأسمالية التى تتوسل
بالاحتكار والربا) . وتكرر صدور مثل هذه القوانين من مجالس نيابية
أخرى ولكن بلا جدوى ، فقد كان بعض المشرعين أنفسهم يستثمرون
أموالهم فى المحلات التجارية الكبرى ، وهدأت سورة غضب حماة القانون
بمنحهم أسهما ، كما أن كثيراً من المدن ازدهرت بنمو التجارة الحرة .

كانت ستراسبورج وكولمار وميتز وأوجسبورج ونورمبرج وأولم وفيينا

وراتيسبون (رجنزبورج) وماينز وسبييار وفورمز وكولون وتريير وبريمن ودورتموند وهامبورج وماجلدبيرج ولوبيك وبرسلاو مراكز نشاط اقتصادى مزدهرة بالصناعة والتجارة والآداب والفنون . وكانت هى وسبعة وسبعون مدينة أخرى « مدنا حرة » أى مدنا تسن قوانينها الخاصة وترسل ممثلين لها للمجالس النيابية الإقليمية والإمبراطورية ولا تخضع سياسياً إلا للإمبراطور ، وكان بدوره مدينا لها بالعون المالى أو العسكرى إلى حد لا يستطيع معه أن يقيد حرياتها ، وعلى الرغم من أن هذه المدن كانت تحكمها طوائف حرفية يسيطر عليها رجال الأعمال فإن كل واحدة منها تقريباً كانت بمثابة حكومة تستهدف الصالح العام . وطبقا للطريقة التى تراعى مصلحة الجماعة وذلك إلى الحد الذى كانت فيه تنظم الإنتاج والتوزيع والأجور والأسعار وصفة السلعة بقصد حماية الضعيف من القوى وتوفير احتياجات المعيشة للجميع . ونحن نطلق عليها الآن بلاداً^(١) لا مدنا طالما أن عدد السكان لم يتجاوز فى أى منها ٥٢٠٠٠ نسمة ومع ذلك فقد كانت أهلة بالسكان كما كان الحال عليه قبل منتصف القرن التاسع عشر وأكثر ازدهاراً من أى عهد قبل جرتة ، وإينياس سيلفيوس وهو إيطالى مزهو بنفسه كتب عنها عام ١٤٥٨ يقول :

لم تكن ألمانيا أغنى ولا أشد تألقاً منها قبل اليوم ... ويمكن أن يقال دون مبالغة أنه ليس فى أوروبا بلد تبرزها أو تفوقها فى جمال مدنها فهى تبدو طالية جديدة كأنها شيدت بالأمس ولن تجد حرية زائدة مثل هذه فى أية مدن أخرى . .

ولا يمكن أن نجد مدينة فى أوروبا أكثر فخامة من كولون بكنائسها العجيبة ومبنى البلدية فيها وأبراجها وقصورها ومواطنيها المبهجلين من أوساط

(١) جمع كلمة لتمييزها عن المدينة .

الناس وجدوا لها العظيمة . . . كما أنه ليس ثمة مدينة في العالم تبرز أوجسبورج في الثروة . وفي فينا قصور وكنائس تحسدها عليها حتى إيطاليا .

ولم تكن أوجسبورج مركزا للمال في ألمانيا فحسب بل كانت أيضاً الحلقة التجارية الرئيسية التي تربط بينها وبين إيطاليا المزدهرة آنذاك . ونجار أوجسبورج هم الذين كان لهم الفضل في بناء وإدارة القونداكوتيديسكو في البندقية التي زين جدرانها جيورجيوني وتيتيان بصورهما الحصية ، وكانت أوجسبورج وثيقة الاتصال بإيطاليا حتى أنها رددت صدى النهضة الإيطالية ، وآزر تجارها الأدباء والفنانين وأصبح بعض الرأسماليين بها مثالا يحتذى في السلوك والثقافة إن لم يكن في الأخلاق . ومن ثم نجد أن كونراد بوليتنجر ، وهو مأمور أو عمدة في سنة ١٤٩٣ ، كان دبلوماسياً وتاجراً وأديباً وفقهياً وعالمًا باللغتين اللاتينية واليونانية وأثريا ورجل أعمال .

وكانت نورمبرج مركزا للفنون والحرف اليدوية أكثر منها للصناعة أو المال على نطاق واسع ، وكانت طرقاتها لا تزال ملتوية حسب ما كان متبعاً في القرون الوسطى تظلالها طبقات بارزة أو شرفات ، وأسقفها المغطاة بالقرميد الأحمر وجلوناتها العالية القمة ومشربياتها تكون صورة غير متناسقة في مهادها الريفى وجدول بجنيئز الضخم . ولم يكن الناس بها في بحبوحة من العيش كما هم في أوجسبورج ولكنهم مبهجون دمشو الخلق ويحبون اللهو . والتبذل في مهرجانات مثل الكرنفال الذي يشتركون فيه كل عام ويرتدون فيه الأقنعة وأزياء التنكر ويرقصون . وهناك أخذ هانز ساكس وكبار المغنيين ينشدون ألحانهم المرحية ، وارتقى البرخت ديور بالتصوير والحفر الألمانيين إلى ذروتها ، وهناك قام صناعة الذهب والفضة شمال الألب بصنع زهريات غالية الثمن وأوعية للكنيسة وتماثيل صغيرة ، وهناك قام العاملون بالأشغال المدنية بتشكيل الف تكوين للنبات والحيوان

والإنسان من البرنز أو شكلوا الحديد في سياجات أو ستائر جميلة ، وهناك كان قاطعو الخشب من الكثرة إلى حد يجعلنا نعجب كيف تيسرت لهم سبل العيش . وأصبحت كنائس المدن مخازن ومتاحف للفن لأن كل طائفة حرفية أو نقابة أو أسرة ثرية كانت ترسل عملا فنيا جميلا إلى مزار قديس يحمي الزمار . واختار رجيومونتانوس مدينة نورمبرج موطنها له وقال : « لأنى أجد هناك دون صعوبة كل الأدوات الخاصة بعلم الفلك وإنه لأيسر لى هناك أن أظل على صلة بالمتعلمين فى كل البلاد لأن نورمبرج ، بفضل رحلات تجارها المستمرة يمكن أن تعد مركزا لأوروبا . ومن مميزات نورمبرج أن أشهر تجارها فيليبالد بيركهايمر كان أيضا عالما بالإنسانيات متحمسا وراعيا للفنون وصديقا حميما لدير ، وقد أطلق ارازموس على بيركهايمر : « فخر ألمانيا العظيم » .

وعكزت صفوة التجارة بين ألمانيا وإيطاليا رحلات داجاما وكولمبس وسيطرة الترك على بحر ايجه وحروب ماكسميليان مع البندقية ، فانتقلت الصادرات والواردات الألمانية شيئا فشيئا على طول الأنهار الكبيرة إلى بحر الشمال وبحر البلطيق والمحيط الأطلسى وانتقلت الثروة والسلطان من أوجسبورج ونورمبرج إلى كولون وهامبورج وبريمن وإلى أنتورب بصنمة خاصة . وشجع آل فوجر وآل ويلز هسدا الاتجاه بأن جعلوا من أنتورب مركزا رئيسيا لعملياتهم . وأدت حركة المال والتجارة الألمانية نحو الشمال إلى فصل شمال ألمانيا عن الاقتصاد الإيطالى ودعمت مركزها بحيث استطاعت حماية لوثر من الإمبراطور والبابا . ولعل جنوب ألمانيا ظل مخلصا للكاثوليكية لأسباب مغايرة .

٢ - الدولة

كيف كانت ألمانيا تحكم في هذا العصر التشكيلي الحرج ؟

لقد كان الفرسان ، أو أبناء الطبقة النبيلة الدنيا ، الذين حكموا الريف بصفتهم أتباعا للسادة الإقطاعيين ، يفقدون مركزهم العسكرى والاقتصادى والسياسى . وكانت فرق الجنود المرتزقة الذين يستأجرهم الأمراء أو المدن ، والمجهزين بالأسلحة النارية والمدافع ، تبيد فرق الفرسان الذين كانوا يلوحون بالسيوف في عجز وقصور ، وكانت الثروة التجارية ترفع الأسعار والنفقات وتتفوق على ملكية الأرض باعتبارها مصدرا للسلطان ، وكانت المدن توطد استقلالها والأمراء يركزون في أيديهم السلطة والقانون . وثأر الفرسان قليلا بالترصد للتجارة التي كانت تمر في طريقهم ، وعند ما احتج التجار والبلديات أكد الفرسان حقهم في شن حروب خاصة . وقد وصف كومين ، ألمانيا في هذا العهد بأنها تزخر بالقلاع التي يمكن في أى وقت أن يتدفق منها « لصوص من البارونات » وأتباعهم المسلحون ، ويسلبون التاجر المسافر والفلاح على السواء . وجرت عادة بعض الفرسان أن يقطعوا الأيدي اليمنى لمن يسلبون من التجار . وعلى الرغم من أن جيتز فون برليخينجن فقد هو نفسه يده في خدمة أميره ، فقد استبدل بها يدا حديدية ، وتزعم عصابات من الفرسان ، للمهاجمة التجار فحسب ، بل لمهاجمة المدن أيضاً ، « نومبرج ... دارمستادت ومينز وماينز (١٥١٢) . ووجه صديقه فرانزفون سيكنجن تهما ضد مدينة ورمس ونهب ضواحيها وقبض على أعضاء مجلس الشورى فيها وعذب عمدتها وقاوم كل المحاولات التي قامت بها الفرق الإمبراطورية للقبض عليه ولم يكن من المستطاع إخضاعه إلى حين إلا عند ما تلقى منحة سنوية ليخدم الإمبراطور . وانضمت الثنتان وعشرون مدينة في سوابيا - وبصفة خاصة أوجسبرج وأولم وفرايبورج وكونستانس إلى

الطبقة الرفيعة من النبلاء لإعادة تكوين عصابة سوابيا (١٤٨٨) وهذه المدن وغيرها من الاتحادات كبحجت جماع الفرسان اللصوص ونجحت في أن تعلن عدم شرعية الحرب الأهلية ، ومع ذلك فإن ألمانيا كانت قبيل عهد لوثر مسرحا للفوضى الاجتماعية والسياسية ، فقد كان يسودها حكم شامل للقوة » .

وأسهم الأمراء الزمانيون ورجال الدين الذين تصدروا القلاقل فيها بجشعهم وعملاتهم ورسوم جماركهم المختلفة وتنافسهم المضطرب على الثروة والنصب وتشويههم للقانون الروماني ، وذلك لكي يمنحو أنفسهم سلطة مطلقة أو تكاد على حساب الشعب والفرسان والإمبراطور . وتصرفت بعض الأسر تصرف الماوك غير المسئولين من أمثال بيوت هوهنزولرن في براندنبرج وفيتين في ساكسونيا وفيتلسباخر في البلاتينات ودوقات فيرتيمبرج ، فما بالك بآل هابسبرج في النمسا . ولو كان سلطان الإمبراطور الكاثوليكي على الأمراء الألمان أعظم من هذا لفشلت حركة الإصلاح الديني أو تأجلت ، ثم إن إغراض كثير من الأمراء عن روما كان اتجاهها آخر نحو الاستقلال المالي والسياسي .

وأكدت شخصية الأباطرة في هذا العهد ضعف الحكومة المركزية . وكان فردريك الثالث (حكم من ١٤٤٠ إلى ١٤٩٣) فلكنيا وكيماثيا يغرم بهدوء حدائقه في جراتز الذي يتطلع إليه البعثة لدرجة أنه سمح لشلسوج هولشتين وبوهيميا والنمسا وهنغاريا بأن تنفصل عن الإمبراطورية ، ولكنه قام في حوالى نهاية العام الثالث والخمسين من حكمه بخطوة لإنقاذها وذلك بخطبة ماري ، وريثة شارل الجسور دوق بورغنديا ، لابنه ماكسميليان . وعندما حفر شارل لنفسه قبرا ثلجيا عام ١٤٧٧ ورث آل هابسبورج الأراضي الواطئة :

وبدأ ماكسميليان الأول (حكم من ١٤٩٣ إلى ١٥١٩) الإمبراطور المنتخب

والذى لم يتوج قط ، حكمه بكل ما يبشر بالنجاح . وابتهجت الإمبراطورية كلها للملامحه الحميلة وأخلاقه الطيبة ورقة مشاعره الوديعه وبشاشته الجياشة ، وكرمه وشهامته وشجاعته ومهارته فى المبارزة والصيد ، وكأنه إيطالى من عصر النهضة ارتقى عرشاً ألمانيا . بل إن ماكيا فيلى تأثر به ووصفه بأنه « أمير عاقل زكى يخشى الله ، وحاكم عادل ، وقائد عظيم ، يقتحم الأخطار ويتحمل المشقة كأصلب الجنود عودا . » . نموذج يحتذى لكثير من الفضائل الخلقية بأمير .. ولكن « ماكس » لم يكن قائدا عظيما ، وكان يفتقر إلى الذكاء الخبيث المطلوب من أمير فى نظر ماكيا فيلى كان يحلم باستعادة عظمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة باسترداد ممتلكاتها . السابقة ونفوذها فى إيطاليا فغزا شبه الجزيرة مرارا وتكرارا فى حروب لا طائل تحتها ، رفض مجلس الدايت ، وكان فى هذا عمليا ، أن يموتها . وسمح لنفسه بالتفكير فى خلع يوليوس الثانى القوى وتنصيب نفسه بابا وإمبراطورا فى الوقت نفسه . وقد برر (مثل زميله المعاصر شارل الثامن ملك فرنسا) مطامعه الإقليمية بأنها تمهيد ضرورى لهجوم ساحق على الأتراك ، ولكنه عجز عن وضع خطة مدعمة من الناحيتين الدستورية والمالية . وكان لا يستطيع أن يحقق بالوسائل كما يتمنى الغايات ، وكان فى بعض الأوقات فقيرا إلى الحد الذى كان يعوزه المال لسداد ثمن عشائه . وسعى لإصلاح الإدارة فى الإمبراطورية ولكنه انتهك إصلاحاته ذاتها فأتت معه . وكان يفكر كثيرا فى مدى سلطة آل هابسبورج وبعد أن لاقى أكثر من فشل فى الحرب عاد إلى سياسة والده القائمة على الزيجات الدبلوماسية . وعلى هذا فإنه قبل عرض فرديناند بخطبة جوانا إلى ابنه فيليب وكانت ضعيفة العقل إلى حد ما ولكنها قدمت لإسبانيا دولة صداقها . وفى عام ١٥١٥ خطب لحفيده مارى وحفيده فرديناند ، للويس وأن ابن وابنة لاديسلاس ملك بوهيميا وهنغاريا ، وقتل لويس فى موهاكس (١٥٢٦) وأصبح فرديناند ملكا على بوهيميا وهنغاريا (بقدر ما سمح الأتراك) وبلغ سلطان آل هابسبورج أوسع مداه .

وكانت أحب سمات ماكسمليان عشقه وتشجيعه للموسيقى والتعليم والأدب والفن . وأكبر في حماس على دراسة التاريخ والرياضيات واللغات . ولقد ثبت لنا أنه كان في وسعه أن يتحدث بالألمانية واللاتينية والإيطالية والفرنسية والإسبانية والوالونية والفلمندية والإنجليزية ، ويقال إنه تحدث في حملة حربية واحدة مع سبع قواد أجانب بلغاتهم السبعة المختلفة . ومزج لهجات جنوب وشمال ألمانيا في لغة ألمانية يفهمها الجميع وهي التي أصبحت لغة الحكومة الألمانية وكتاب لوثر المقدس والأدب الألماني ، وذلك بفضل جهوده والاقتداء به إلى حد ما . وحاول ، وهو بنجوة من الحروب ، أن يكون مؤلفاً ، وترك مصنفات عن فن الدروع والمدفعية والعمارة والصيد وسيرته الخاصة ، وفكر في اقتناء مجموعة تستوعب مخلفات ونقوشاً من ماضى ألمانيا ولكن أعوزته الأموال من جديد . واقترح على البابوات إصلاح التقويم ، وقد حققوا فكرته بعد ثمانين عاماً . وأعاد تنظيم جامعة فينا وأسس كراسى أستاذية جديدة للقانون والرياضيات والشعر والبلاغة ، وجعل من فيينا أزهر مركز للتعليم في أوروبا لفترة ما . ودعا علماء الإنسانيات الإيطاليين إلى فينا ، وعهد إلى كونرادوس سلتس أن يفتح هناك أكاديمية للشعر والرياضيات . وناصر علماء الإنسانيات مثل بويتنجر وبيركهايمر وجعل من روتخلين Reuchlin المضطهد كونت بالاتاين الإمبراطورى . ومنح مكافآت لبيتر فيشر وفايت ستوس وبورجكير وديرر والفنانين الآخرين الذين تألقوا في عهده . وأمر بإقامة قبر مزخرف في انزبروك ليضم رفاتة ، وقد ترك دون أن يتم بناؤه عند وفاته ولكنه أتاح فرصة لثماثيل بيتر فيشر الجميلة لتيودوريك وأرثر . ولو كان ماكسمليان عظيماً بقدر عظمة أفكاره لكان ندا للإسكندر وشارلمان .

وفي آخر سنة من حكم الإمبراطور رسم ديرر صورة أمينة له — تمثله منهوك القوى وقد انزاحت عنه الأوهام ، وكسر شوكتة بؤس الزمن المثير للجنون . وقال هذا الرجل الذى كان يوماً روحاً مرحاً « ليس في الأرض

مسرة لى . واأسفاه على أرض ألمانيا السكينة » ولكنه بالغ فى الحديث عن فشله ، فقد ترك ألمانيا والإمبراطورية (ولولم يكن هذا إلا عن طريق التنمية الاقتصادية) أقوى مما وجدها عليه إذ ارتفع عدد السكان وانتشر التعليم وبدأت فيينا تصبح فلورنسا أخرى . وسرعان ما صار حفيده ، الذى ورث نصف أوروبا الغربية ، أقوى حاكم فى العالم المسيحى .

٣ - الألمان (١٣٠٠ - ١٥١٧)

ربما كانوا إبان ذلك العهد أصح الشعوب أبداناً وأقواهم جسداً وأشدهم حيوية فى أوروبا ، فإنهم ، كما نراهم فى لوحات فوكليموت وديرر وفى صور كراناخ وهولبين ، أناس أقوياء البنية غلاظ الأعناق كبيرو الرؤوس ، لهم قلوب الأسود ، على تمام الأبهة لالتهام العالم ، واستساغته بشارب الجعة . كانوا أجلافا ولكنهم ظراف تخفف من ورعهم نزواتهم الشهوانية . وكان فى وسعهم أن يكونوا غلاظ الأكباد كما تدل على ذلك أدوات التعذيب المروعة التى اعتادوا استخدامها مع المجرمين ؛ ولكنهم مع ذلك كانوا رحماء كرماء قلما عرضوا تزمهم الدينى بوسائل بدنية ، إذ لقيت محاكم التفتيش فى ألمانيا مقاومة باسلة وكان نصيبها القمع عادة . لقد جبل الألمان بنفوسهم القوية على المرح الذى يتسم بإدمان الشراب أكثر مما يتسم بالفطنة الجحافية ، ولقد أدى هذا كله إلى تبدل حسهم بالمنطق والجمال وحرهم من ظرف العقلية الفرنسية أو الإيطالية ودهائها وتعثرت نهضتهم الهزيلة فى غمرة حماسهم الزائدة لتفسير الكتاب المقدس ومع ذلك فقد كان عندهم إصرار ثابت وصناعة منظمة وشجاعة فائقة فى الفكر الألمانى مكتنهم من كسر شوكة سلطان روما وأتاحت لهم فرصة أن يصبحوا أعظم علماء فى التاريخ . وهم شعب نظيف بالقياس إلى غيرهم من الأمم فالاستحمام عادة وطنية . وكل بيت حسن التنسيق فيه حمام حتى فى المناطق الريفية . والحمامات العامة العديدة توفر أكثر من حمام

إذ يستطيع الرجال هناك أن يخلقوا ذقونهم وتستطيع النساء أن يصففن شعورهن كما كانت، توفر فيها ضروب مختلفة من التدليك وكان يسمح فيها بالشرب والمقامرة ويمكن. أن يجد فيها كل من يضيق ذرعاً بالزوجة الواحدة خلاصاً . وكان الناس من الجنسين يستحمون عادة معاً وهم يرتدون ملابس محتشمة وإن لم تكن هناك قوانين تحرم المغازلة ، ولقد قال أحد الدارسين الإيطاليين بعد أن زار بادن - بادن عام ١٤١٧ : « ليست هناك في العالم حمامات أكثر ملاءمة من هذه لإنجاب النساء » .

ولا يمكن أن يتهم الألمان إبان ذلك العهد بأنهم من أنصار مذهب التطهر إذ كان حديثهم ورسائلهم وأدبهم ومرحهم تنسم أحياناً بالجفاء إذا قيست بمعايير عصرنا، ولكن هذا يتفق مع قوة أبدانهم وأرواحهم، فهم من جميع الأعمار يشربون ويفرطون في ممارسة الجنس إبان شبابهم . وكانت مدينة ارفورت عام ١٥٠١ في نظر لوثر الورع لا تفضل ماخوراً أو مشرباً للجنة . ولقد وافق الحكام الألمان - من رجال الدين ومن العلمانيين على السواء على رأى سانت أوجستين والقديس توما الأكويني بأنه يجب أن يسمح بالبغاء إذا كانت النساء بمنأى عن الإغراء أو الاغتصاب . وكانت بيوت البغاء تحصل على ترخيص وتفرض عليها ضريبة . ولما لنقرأ عن أساقفة ستراسبورج وماينز الذين كانوا يحصلون على دخول من المواخير بل إن أسقف فيرتسبورج أعطى ماخوراً تابعاً للبلدية إلى جراف فون هيننبرج باعتباره إقطاعية تدر دخلاً . وكانت الضيافة لكبار الزوار تشمل وضع بيوت للسيدات تحت تصرفهم ، وقد كرم الملك سيجموند بهذا الامتياز في برن (١٤١٤) وفي أولم (١٤٣٤) بإخلاص أرضاه كل الرضا حتى أنه شكر مضيفه علناً من أجله ، والنسوة غير المرخصات كنّ ينشئن أحياناً بيوتاً غير قانونية، وفي عام ١٤٩٢ شكّت البغايا المرخصات للعمدة من هذه المنافسة غير المتعادلة فحصلن عام ١٥٠٨ على إذن بمهاجمة البيوت غير القانونية وقمن

بذلك فعلا ، وكان التردد على بغى يقابل بالصنح باعتباره خطيئة مغتفرة ، وإن كانت طبيعية ، وذلك في نظر القانون الأخلاقي السارى في أوروبا في أواخر العصور الوسطى ، ولعل انتشار الزهرى بعد عام ١٤٩٢ جعل منه وباء فتاكا .

وكان الزواج اتحادا بين الملكيات كما هو الشأن في كل مكان آخر والحب يعد نتيجة طبيعية للزواج لا سبباً معقولاً له . وكانت الخطبة ملزمة كالزواج والزفاف يتم في حفلات مترفة بين جميع الطبقات . وربما استمرت الاحتفالات أسبوعاً أو اثنين وكان شراء الزوج يكلف غالبا كالاحتفاظ بالزوجة . وكان للذكر نظرياً سلطة مطلقة ولكنها كانت أكثر واقعية في الأفعال منها في الكلام . ونلاحظ أن السيدة ديرر كان لديها كلام كثير تقوله لزوجها . وقد كانت نساء نورمبرج من المرأة بحيث اجتذبن الإمبراطور ماكسميليان وهو نصف عار من الفراش وألقين غطاء حول جسمه ثم استقنه في رقصة ليلية مرحة إلى الشارع .

وتذهب أسطورة قديمة إلى أن بعض الرجال من الطبقات العليا في القرن الرابع عشر بألمانيا كانوا يضعون حزاماً للعفة « من الحديد حول وسط زوجاتهم وأفخاذهن ويغلقونه بقفل ويأخذون معهم المفتاح وذلك عندما يسافرون في رحلات يغيبون فيها طويلا عن الوطن . وثمة آثار لهذه العادة في البندقية بالعصور الوسطى في فرنسا وفي القرن السادس عشر وإن كانت الزوجة أو العشيقة تلبس الحزام طواعية وتعطى المفتاح للزوج أو العشيق ضمانة لإخلاصها للزوج أو العشيق .

وازدهرت حياة الأسرة . ويحصى سجل تاريخي بارفوت ثمانية أو عشرة أولاد لكل زوجين في المعدل ولم تكن الأسرة التي تضم خمسة عشر ولدا بالنادرة ، وهذه الأعداد تشمل أبناء السفاح لأن الأطفال غير الشرعيين ، الذين كثروا كانوا يؤخذون عادة إلى بيت الوالد بعد زواجه . وشاع استخدام الألقاب في القرن الخامس عشر وكثيراً ما أشارت

إلى مهنة السلف أو إلى موطنه الأصلي وإن كانت بين آن وآخر تجمد دعاية لحظة في صراحة الزمن . وكان يراعى الضبط والحزم في البيت وفي المدرسه ، بل إن ماكس الذى صار امبراطورا فيما بعد كثيراً ما تلقى الصفعات ، ويبدو أن هذا لم يسبب ضرراً إلا للأب أو المدرس . وكانت البيوت الألمانية وقتذاك (١٥٠٠ م) أكثر البيوت راحة في أوربا إذ كانت درجاتها متسعة ولها درابزين متين وفيها أثاث ضخم ومقاعد وثيرة وخزائن منحوتة ونوافذها من الزجاج الملون وأسرة لها كلة وجدرانها مطنفسة وأرضيتها مكسوة بالسجاد وفيها مواقد منبعجة ورفوف تزخر بكتب أو أزهار أو آلات موسيقية أو عليها طبق فضى ومطابخ تتألق بكل الأوعية الصالحة لإقامة مأدبة ألمانية .

وشيدت البيوت من الخارج في معظمها من الخشب ، وكثيراً ما شبت فيها الحرائق ، وكانت الطنف المتدلية والشرفات تظلل الطرقات ، ولم يكن في المدن الكبيرة إلا قليل من الطرقات المرصوفة ، ولم تعرف إنارة الشوارع إلا في ليالى الأعياد وكانت الحياة خارج البيوت غير مأمونة بالليل . وكان صغار المجرمين ينافسون في الكثرة الخنازير والبقر التي كانت تهيم في الطريق على غير هدى . ولم تكن هناك شرطة نظاميون ، وكانت توقع عقوبات صارمة لردع الجريمة فقد كانت عقوبة السرقة الموت أو قطع الأذنين في حالة السرقة الخفيفة . وكانت تقطع ألسنة الكفار والمجذفين أما المنفيون الذين يعودون إلى نورمبرج دون مبرر شرعى فكانت تشمل عيونهم . وكانت النساء اللاتي يقتلن أزواجهن يدفن أحياء أو يعذبن بملاقط تسخن إلى درجة الاحمرار ثم يشنقن . ومن بين آلات التعذيب التي عرضت فيما مضى في شلوس أو قلعة نورمبرج صناديق ممتلئة بأحجار مدببة يسحق بها جسد الضحية وتروس تمد بها أطرافها ومواقد لحرق كهوب أقدامها وإطارات مدببة من الحديد لتثنيها من الجلوس أو الاستلقاء أو النوم ثم العنراء

الحديدية الملعونة التي كانت تستقبل المحكوم عليه بذراعين من الصلب وتحيط بهما في حضن شائك ثم ترخي ذراعيها وتدعه يسقط دأى الجسد من أثر اختراق المسامير محطم العظام ليموت موتاً بطيئاً في جب تدار فيه مدى وقضبان مدببة .

وساوت الأخلاق السياسية الأخلاق العامة في انحلالها . فتنفشت الرشوة وبلغت أقصاها في قمة الكيان الاجتماعى ، وشاع الغش في السلع وذلك على الرغم من دفن رجلين وهما على قيد الحياة في نورمبرج لغشهما النبيذ (١٤٥٦) ، وكانت التجارة - التضحية بالأخلاق في سبيل المال - قوية في جميع الأغمار ، فالمال لا الإنسان هو مقياس كل شيء ، ومع ذلك فإن هؤلاء الأوساط المتزاحمين المتنافعين من المواطنين تبرعوا بمبالغ كبيرة على سبيل الإحسان . وكتب لوثر : « في العهود البابوية كان الناس يتبرعون بكلتا اليدين في جذل وبولاء عظيم . كانت السماء تمطر صدقات وإنشاءات وهبات . كان أجدادنا من السادة والملوك ومن الأمراء وغيرهم من الشعب ، يتبرعون بسخاء ، أجل ، إلى درجة تفر كل شيء ، للكنايس والأبرشيات والمنح الدراسية والمستشفيات ، ومن دلالات هذا العهد الدنيوى أن كثيراً من ترككات المحسنين أوقفت ، لا على الهيئات الدينية فحسب ، ولكن على مجالس المدن لتوزيعها على الفقراء .

وأصبحت الأخلاق أشد جفاء في فرنسا وإنجلترا وفي ألمانيا أيضاً عند ما خلفت حكومة السراة بالمال حكومة الأرستقراطية بالميلاد في السيطرة على الاقتصاد . وكان السكر رذيلة وطنية وقد ندد به كل من لوثر وهوتن على الرغم من أن هوتن فضله على « مخاتلة الإيطاليين وسرقة الأسبان وزهو الفرنسيين » ولعل بعض الانغماس في الشراب يرجع إلى التوابل الحريفة التي استخدمت في إعداد وجبات الطعام . ولقد أعوز

التهديب آداب المائدة ووصلت « الشوك » إلى ألمانيا في القرن الرابع عشر ومع ذلك فقد آثر الرجال والنساء أن يستخدموا أصابعهم في تناول الطعام . بل ان واعظا في القرن السادس عشر أدان « الشوك » باعتبارها مخالفة لإرادة الله « الذى او كان يريد منا أن نستخدم الشوك لما منحنا أصابع » .

وكان اللباس فخما ، أما العمال فكانوا يكتفون بارتداء قلنسوة أو قبعة من اللباد وقمصان قصيرة وسراويل متداخلة — أو تحشر في أحذية طويلة الرقبة ، وكانت الطبقات الوسطى تضيف إلى هذه الملابس صديرية وسترة مفتوحة مبطنة أو تزين حوافها بالفراء . وكان ذوو الأنساب يدخلون في منافسة محمومة مع جامعى الجلودرات في روعة ثيابهم . وكانت قبعات الرجال عند هاتين الطبقتين عبارة عن لفائف معقدة متسعة من القماش الثمين تزين حافاتها أحيانا بالريش أو الشرائط أو اللاكى أو الذهب ، أما القمصان فكانت من الحرير غالبا ، كما كانت الأثواب الخارجية الزاهية تبطن بالفراء وربما تخللتها خيوط من الفضة . وكانت الثريات من النساء يضعن على رؤوسهن تيجانا من الذهب أو قلانس مطرزة بالذهب ويضفرن شعورهن بخيط ذهبي ، وأما العذارى الخفريات فكن يغطين رؤوسهن بمناديل من الموسلين يربطنها تحت الدقن .

وقد زعم جايلر فون كايزرسبرج أن النساء الأثنيات كن يمتلكن خزائن للملابس تقدر بنحو ٤٠٠٠ فلورين (١٠٠,٠٠٠ دولار) وكان الرجال يحلقون ذقونهم ويعنون بشعر رؤوسهم ويعنون بتعهد ضفائهم . لاحظ خصلات شعر ديرر التي كانت موضع اعتزازه وخصائل شعر ماكسميليان البخيلة . واتخذت اللواتم شعارا على الطبقة الاجتماعية أو للتخيل بالانتماء إليها كما هو الحال الآن ، وقد قال كونرادوس سيلتس ان الأزياء تغيرت في ألمانيا بسرعة أكبر منها في أى مكان آخر ، وحدث هذا كثيرا

فى أزياء الرجاء وفى أزياء النساء . وربما فاق الرجال النساء فى فخامة الزى فى مناسبات الأعياد .

وكانت المهرجانات متعددة وهى استمرار لروح القرون الوسطى المولعة بالتظاهر وعرض المرح مع تأجيل العمل والتحلل من الوصايا العشر . وكان عيد الميلاد لا يزال يتسم بالمسيحية على الرغم مما صاحبه من الآثار الوثنية . وأما شجرة عيد الميلاد فلإنها ابتدعت فى القرن السابع عشر .

وكانت كل مدينة تحتفل بمهرجان أو عيد لقديسها الحامى لها وكان الرجال والنساء يرقصون معا فى الشوارع ويسود المرح الجميع وكأنه أمر محذوم ، ولا يمكن لأى قديس أو واعظ أن يقلل من بهجة العريفة . وكان الرقص يتحول أحيانا إلى جنون وبأى كما حدث فى مئز وكولونيا واكس عام ١٣٧٤ أو فى ستراسبورج عام ١٤١٢ . كان بعض من يعانون من رقصة سانت فيتوس فى بعض هذه الحالات يلتمسون الشفاء من كانوا يعتقدون أنه مس شيطانى وذلك بالرقص حتى يسقطوا من الإعياء كما يفعل بعض الشبان المتوسين اليوم . ووجد الرجال متنفسا لغرائزهم فى الصيد والقنص أو فى ممارسة رياضة المبارزة القاتلة . وكان آلاف الرجال والنساء يسافرون متلذذين غالبا بحجة التردد على مزار وينتقلون فى ابتهاج أليم على صهوة الجياد أو على ظهور البغال أو فى عربات أو على مقاعد تحمل على الأكثاف ويتحملون مشاق الطرق غير الممهدة والحنات القذرة . وكان بعض الأشخاص المرفى الحس يسافرون كلما أمكنهم ذلك ، بالقارب على صفحة نهر الراين ونهر الدانوب أو على غيرهما من بحارى الماء فى وسط أوروبا . وما إن حل عام ١٥١٠ حتى كانت هناك خدمة بريدية متاحة للجميع تربط المدن الكبرى .

والكل معا فى الصورة رحل واحد من شعب قوى ناشط سعيد

لا يرضى بعد ذلك أن يرسف في أغلال الإقطاع أو ظلم روما . وقد غلب بالاعتزاز بالقومية الألمانية كل انقسام سياسى ، وكبح جماح الأباطرة الذين رأوا أنفسهم فوق الوطن ، والبابوات الذين اعتقدوا أنهم فوق الطبيعة ، وهكذا قدر للإصلاح الدينى أن ينتصر على الإمبراطورية الرومانية المقدسة وعلى البابوية أيضا . وفى عام ١٥٠٠ نشبت الحرب بين التيوتون والرومان وكان النصر مرة أخرى لحليف ألمانيا كما حدث فى القرن الخامس من قبل .

٤ — نضج الفن الألماني

وقدوم هذا العهد الحديد إنما يتجلى مظهره فى الفن . وربما كان من العسير علينا أن نصدق هذه الحقيقة . ولكن الشيء الذى لا شك فيه هو أن الطلب كان يتزايد على الفنانين الألمان فى أوروبا بسبب تفوقهم فى كل فن حرفى ، فى أشغال الخشب والحديد والنحاس والبرونز والفضة والذهب والحفر والتصوير والنحت والعمارة ، وذلك فى أوج عصر النهضة الإيطالية من مولد ليوناردو (١٤٥٢) إلى وفاة رافاييل (١٥٢٠) . ولعل فيليج فابرى الأولى قد كتب عام ١٤٨٤ بدافع الوطنية أكثر منه بدافع عدم التحيز وها هو يقول : « عندما يريد أى امرئ أن يحصل على قطعة مصنعة من الدرجة الأولى من البرونز أو الحجر أو الخشب فإنه إنما يستخدم حرفياً ألمانيا . لقد رأيت صانعى مجوهرات وصاغة وقاطعى أحجار وصانعى عربات من الألمان وهم ينتجون آثارا رائعة بين الغزاة المسلمين بل إنهم فاقوا اليونان وهزوا الإيطاليين فى الفن . وبعد نحو خمسين عاما اكتشف إيطالى آخر أن هذا لا يزال صحيحاً فقد كتب باولو جيوفو : « إن الألمان يكتسحون أمامهم كل شيء فى الفن ولا يسعنا نحن الإيطاليين الحاملين إلا أن نبعث لألمانيا فى طلب عمال مهرة » . واشتغل المهندسون المعماريون الألمان لحساب

فلورنسا وأسيى وأورفيقو وسينا وبرشلونة وبورجوس واستدعاهم ذوو الشأن لإتمام « القبة » فى كاتدرائية ميلان . وقد جلب فايت ستوس ألباب الأهلين فى مدينة كراكاو ، وحظى ديرر بتكريم البندقية ، واكتسح هولبين الصغير إنجلترا .

وبلغت العمارة الكنسية أوجها فى القرنين الثالث عشر والخامس عشر . ومع ذلك فإن أبناء جيل واحد من المواطنين فى ميونخ شيدوا على الطراز القوطى الأخير ، كنيسة سيدتنا وقاعة المدينة القديمة « أولدتاون » . وفى العقدين الأولين من القرن السادس عشر أتمت فرايبورج فى ساكسونيا (منصة جوقة الترتيل) وشيدت أوجسبرج بيعة آل فوجر ، وانتهت كاتدرائية ستراسبورج من بناء بيعة لورانس ، وأضيفت مشربية جميلة إلى مقر كاهن الأبرشية فى كنيسة سيبالدوسكيرس فى نورمبرج . وفى مجال عمارة البيوت فى هذا العهد شيدت أكواخ جلذابة بأسقفها من القرميد الأحمر ، وطبقاتها العليا مصنوعة من الخشب ، وشرفاتها تجملها الأزهار وطفن رحبة تحمى النوافذ من الشمس أو الجليد . وهكذا واجه الألمان ، بما عرف عنهم من إقدام ، ارتفاع جبال الألب البافارية فى مناخ ميتنفالذ الصعب بجبال بيوتهم البسيط الحبيب .

وكان النحت من أجماد هذا العصر . فازداد عدد صغار النحاتين ، وكان من الممكن أن يلمعوا ويصبحوا نجوماً كبيرة لو قدر لهم أن يكونوا فى مجرة أقل إشراقاً : نيكولاوس جيرهارت وسيمون لاينبرجر وتيلمان ريمشنيذر وهانز باكوفن ، وهاهى نورمبرج وحدها تنجب فى جيل واحد ثالوثاً من الأساتذة لا يكاد يزههم أحد فى عهد مماثل بأية مدينة فى إيطاليا . ولا شك أن حياة فايت ستوس تصلح أن تكون قصة مدينتين ، فقد تربى فى نورمبرج ، وحاز قصب الشهرة كمهندس وبان للجسور ومعمارى وحفار ونحات ومصور ، وعند ما بلغ الثلاثين من عمره ذهب إلى كراكاو وقام هناك بأحسن أعماله على الطراز القوطى الأخير المشع الذى عبر به عن ورع البولنديين وقابليتهم

للإثارة في الوقت نفسه . وعاد إلى نورمبرج (١٤٩٦) ومعه ما يكفي من الأموال لشراء بيت جديد ولعقد قرانه على زوجة ثانية ، وقد أنجبت منه خمسة أطفال أضافتهم إلى أولاده الثانية من زوجته السابقة . . . واعتقل فيت وهو في أوج مجده لأنه شارك ، وربما كان هذا عن غير قصد ، في عملية تزييف ، ودمغ بإحراق خديه معا وحرم عليه أن يغادر نورمبرج مرة أخرى ، غير أن الإمبراطور ماكسميليان عفا عنه وأعاد له حقوقه المدنية (١٥٠٦) ومع ذلك فإن ستوس ظل منبوذاً من المجتمع إلى أن انتهت حياته الطويلة المؤلمة . وفي عام ١٥١٧ حفر مجموعة كبيرة من الأعمال تمثل بشارة التحية الملائكية ، وأحاط تماثيل -- يعدان من أعظم أعمال النحت الخشبي وأقربها إلى الكمال -- بإكليل من الورود وأحاط هذا بسبعة ألحق بها سبع رصيعات كبيرة تصور أفراح العذراء وتوج الجميع ، وهي كلها من خشب شجر الزيزفون ، برسم غير جذاب لارب لورنز . وهو لا يزال يتدلى منها كأثر نفيس من مخلفات الأيام السعيدة في المدينة الكبيرة . وحفر ستوس لكنيسة سيالديسكريش صليباً من الخشب لا يضارعه أبداً صليب آخر من نوعه (١٥٢٠) . وفي هذا العام حصل له ابنه أندرياس ، بصفته رئيس دير رهبان الكارمليت بنورمبرج ، على أنعاب مقابل تصميم مذبح لكنيسة في بامبرج . وبينما كان الفنان منهمكاً في هذا العمل استولى أنصار الإصلاح الديني على نورمبرج واستبدل بأندرياس راهب آخر لأنه ظل كاثوليكيًا . وتشبث فيت نفسه بالعقيدة النيرة التي استلهمها في فنه . وتوقف دفع أتعابه عن عملية المذبح وظل العمل ناقصاً . وأمضى ستوس السنوات العشرة الأخيرة من حياته كفيفاً يعتزل الناس وهو كظيم . فقد ماتت قبله زوجته وهجره أولاده ، ونهذه الناس في عصر استغرقتهم فيه دراسة اللاهوت ، ولم يدركوا أنهم إنما كانوا يفقدون عام ١٥٣٣ أعظم حفار على الخشب في التاريخ وهو في الثالثة والتسعين .

وعاش في نفس المدينة وفي هذا العهد فنان في اشغال البرونز مبرز أيضاً في أسلوبه وإن كان قد عاش حياة هادئة هائلة . وقد صور بيتر فيشر الأكبر نفسه في كوة بجدار ، وتعد هذه الصورة من أشهر إنتاجه ، ونراه بها عاملاً بسيطاً جاداً قصير القامة مكتمل الجسم ، ذالعية كاملة يرتدى مثزراً جلدياً حول وسطه ويمسك بيديه مطرقة وأزميلاً . وقد كرس هو وخمسة من أبنائه أحد عشر عاماً (١٥٠٨ - ١٥١٩) لإتمام رائعهم مقبرة زيبالد ، القديس الحامي لنورمبرج . وتكلف المشروع كثيراً ونفذت الأموال المخصصة له ، ومع ذلك لم يتم إنجاز العمل . وعندئذ حث أنتون توخر المواطنين على الاكتتاب في مبلغ ٨٠٠ جيلدر (٢٠٠٠ ر ٢٠ دولار) كان يحتاجه للمشروع . وهذه الرائعة لا تثير الإعجاب لأول نظرة ، ويبدو أنها لا تضارع هيكل أوركانيا في فليرنسا (١٣٤٨) ، ثم إن الحلزونات والدلفينات ، التي يركز على ظهورها البناء . ليست على الأرجح حاملات لمثل هذا الثقل الهائل ، إلا أن فحصها عن قرب يكشف عن كمال مذهب في أجزاء البناء . والتابوت الرئيسي المصنوع من الفضة مزين بأربع رسوم بارزة تمثل معجزات القديس . وترتفع حوله الأعمدة البرونزية لظلة من الطراز القوطي ، عليها نقش دقيق من زخارف عصر النهضة ، وتتصل من أعلى بعقد معدني جميل على الأعمدة ، حول القاعدة ، وفي الطنف ، وفي كوات الظلال العليا صور الفنانون سكانا حقيقيين من الوثنيين ، وتمائيل لعبريين أو مسيحيين — تريتونات (آلهة البحر) وقنطروسات ونيريدات (حوريات البحر) ، وسيرانات وموزيات والفاونات وهرقل وتيزيوس وشمشون والأنبياء وعيسى والرسول وملائكة يعزفون ألحاناً أو يلهون مع أسود أو كلاب ، وبعض هذه التماثيل لا يزال في صورة بدائية ، وكثير منها تم نحته بدقة سنو ناتيلو أو غيرتي ، وهي كلها تسهم بوضوح في إدراك المتنوع للحياة . وتضارع

تمثال بطرس وبولس ومتى ويوحنا لوحة (الرسل الأربعة) التي صورتها ديرر بعد سبع سنوات في نورمبرج نفسها .

ويقال إنه لم يأت إلى نورمبرج في هذه العقود الأولى من القرن السادس عشر أمير أو حاكم إلا وزار مسبك بيتر فيشر . وقد ألح الكثيرون في طلب أعماله الفنية . وعرض عدد كبير من الكنائس أعماله من الشمعدان النحاسي الكبير في كنيسة لونز وقبر ماكسميليان الأول في أنزبروك . وحذا أولاده الخمسة حذوه في النحت وإن كان اثنان منهم قد وافتهما المنية قبله . ومعروف أن هرمان فيشر الأصغر الذي مات في الحادية والثلاثين من عمره (١٥١٧) قد سبك زخرفاً بارزاً جميلاً من البرونز لمقبرة الكردينال كازيمير في كاتدرائية كراكاو .

وكما تفوق آل فيشر في أشغال البرونز وفيت ستوس في أعمال الخشب فإن آدم كرافت بز كل معاصريه في النحت على الحجر . وقد صورده المؤرخون الألمان هو وبيتر فيشر الأكبر وسباستيان لينديناست (الذي صمم تماثيل الأمراء الممتلكين على ساعة كنيسة العذراء) في صورة فنانين وأصدقاء أوفياء ، « كانوا مثل الإخوة . كانوا يلتقون كل يوم جمعة ، حتى عندما بلغوا من الكبر عتياً ، ويدرسون معاً كأنهم صبية يتمرنون حسباً تدل عليه التصميمات التي نفذوها في اجتماعاتهم . ثم كانوا يفترقون وقد ألهاهم العمل عن تناول الطعام أو الشراب » . ولعل آدم ولد في نفس العام الذي ولد فيه بيتر (١٤٦٠ ؟) وكان مثله في البساطة والأمانة والورع والشغف برسم صورته الشخصية . ونحت عام ١٤٩٢ لكنيسة زيبالدوس مقبرة لزيبالدوس شرييار عليها نقوش بارزة تمثل آلام المسيح عند الصلب والبعث وأعجب هانز رامهوف ، وهو تاجر ثرى بهذه البراعة فعهد إلى كرافت أن يصمم كأساً يحمل خبز ونبذ القربان المقدس في كنيسة لورنتس

وقام آدم بصنع بيت القربان المقدس على هيئة هيكل رشيق عال من الطراز القوطى الأخير ويعد معجزة فى الصياغة الدقيقة للحجر يرتفع طبقة بعد طبقة حتى يبلغ ارتفاعه أربعة وستين قدماً ، ويستدق ليصبح قوساً يشبه رأس صولجان الأسقف ، وتنبض الأعمدة بالحياة إذ تزخر برسوم القديسين ، أما أبواب « البيت » فتحرسها الملائكة ، وأما الأوجه المربعة فقد نقش عليها رسوم بارزة تمثل مناظر من حياة المسيح ، ويرتكز البناء الطلق الهواء كله بطريقة غريبة على ثلاثة تماثيل جاثية — آدم كرافت واثنان من مساعديه . وليس فى الصورة الشخصية أى أثر للتملق ، فالملابس بالية ومهلهلة من أثر الكد والنصب ، والأيدى خشنة واللحية كثة والوجه العريض المرفوع إلى أعلا منكب على تصور العمل وتنفيذه . وعندما انتهت هذه الرائعة التى تأخذ بالألباب عاد كرافت إلى موضوع « الأثير فنحت سبع أعمدة من الحجر الرملى عليها مناظر تمثل آلام المسيح عند الصلب منها ستة موجودة الآن بالمتحف الألمانى وأحدها واسمها « الدفن » تمثل الفن التوتونى الأنموذجى وتمتاز بواقعية جريئة لا تحتاج إلى استكمال وتنطوى على الورع والإيمان .

واستمرت الفنون الصغرى فى انتهاج نفس الصنع وطرق نفس الموضوعات وكان رسامو المنمنمات لا يزالون تنهال عليهم الطلبات للحفاظ على الطوائف الحرفية الناجحة . ورسم كبار الفنانين أمثال ديرر وهولبين تصميمات للزجاج الملون وليس من شك فى أن هذا الفن الذى تدهور فى فرنسا وإنجلترا وصل آنذاك إلى ذروة الإتقان فى ألمانيا . وفى هذه الفترة حصلت كنيسة لونز وكاتدرائيات أولم وكولونيا على نوافذ لها شهرة عالمية ، ولم تكن هذه النوافذ مقصورة على الكنائس ، فقد كان فى دور النقابات الحرفية والقلاع بل وفى البيوت الخاصة بعض نوافذ من الزجاج الملون . وكانت المدن من أمثال نورمبرج وأوجسبورج وريجينزبورج وكولونيا وماينز تفخر بصناعتها المهرة الفنانين : وهم صانعو الأدوات المعدنية الذين

رفعوا من شأن المشاعل والثريات والصحاف والحرار والأقفال والصواني والصاغة الذين لقيت منتجاتهم ، من الملاءق إلى الهياكل ، تقديرًا عظيمًا في أرجاء أوروبا ، وعمال النسيج الذين نسجوا الطنافس والسجاجيد والثياب الكهنوتية والرداء المنمق لطبقة الأشراف ، والنساء المتعبدات ، وكن ييلين أناملهن ويرهقن عيونهن لكسوة الهياكل والقفس بالمطرزات والحرير . ولم يكن الحفارون قط في أى عهد مضى أحسن حالا منهم في هذا العهد ، فإن ميكائيل فوبلجيموت قد حفر من الخشب اثني عشر محرابًا من أروع الأعمال ، إلى جانب الرسم على نافذتين بديعتين لكنيسة لورنتس ، ثم عام ديرر كيف يفوقه في هذا الفن .

وتطور فن الحفر بنقش رسم على الخشب أو النحاس في القرن الخامس عشر حتى أصبح فناً ناضجاً يجله الناس تماماً كالنصوير . وهذبه كبار المصورين ووصل به مارتن شونجاور إلى درجة الكمال . وبعض أعماله في الحفر — تعذيب المسيح وعمل الصليب والقديس جون في ياتموس واغواء القديس أنتوني ، تعد من أعظم الأعمال الفنية في كافة العهود .

وأصبح الفن الإيضاحي في الكتب بوساطة النقوش مناسباً وشائعاً وسرعان ما حل محل الزخرف وتضاعف عدد أشهر اللوحات في هذا العهد بأعمال الحفر التي كانت تباع في أكشاك في المكتبات والأسواق والمهرجانات ، وأظهر لوкас فان ليدن نبوغاً مبكراً مذهلاً في هذا المجال . فقد حفر لوحته « محمد » وهو في الرابعة عشرة من عمره ولوحته « المسيح وعلى رأسه إكاييل الشوك » وهو في السادسة عشرة من عمره (١٥١٠) وقارب الكمال في صورة ماكسميليان التي نقشها على النحاس واستخدم الحفر الإبري وذلك بآلة مدببة تقذف شظية أو حافة من المعدن المقتطع بطول خطوط الرسم ، في صورة « سيد كتاب البيت » التي نقشها فنان مجهول حوالى عام

١٤٨٠ . أما الحفر بتغطية سطح معدني بالشمع ونقش رسم بالحفر في الشمع وصب حامض لينخر في الخطوط البارزة فإنه تطور من النقش على السلاح إلى الحفر على ألواح معدنية يمكن أن تطبع بها النقوش ، ويبدو أن دانييل هوبفر وهو صانع سلاح قام بصنع أول « كايشييه » سجله التاريخ عام ١٥٠٤ ومارس بورجكمابر وديرر الفن الحديد في غير إتقان . ولعل لوكاس فان ليدن قد تعلم هذا الفن من ديرر غير أنه سرعان ما فاقه وملك ناصيته .

وكان هذا العصر أعظم عصور ألمانيا في التصوير . وقد تأثر المصورون الألمان في النصف الثاني من القرن الخامس عشر بالمدرستين الهولندية والإيطالية كما تأثروا بمصورهم مملنج المبعد عن وطنه فتدرجوا من صرامة الفن القوطي وفضاظته إلى خط يتسم بمزيد من الرشاقة ، ورسم صور تتحرك في يسر في مناظر طبيعية تعكس الحياة المنزلية للبورجوازية الظافرة ، وظلت الموضوعات الدينية هي الغالبة ، وإن كانت الموضوعات الدنيوية قد أخذت تزحف قدما وأخات النقوش الهيكلية الطريق للصور المرسومة على الخشب ولم يعد المحسنون الأثرياء يقنعون بالسير في ركاب جماعة دينية ، فطلبوا أن ترسم لهم صور شخصية هم فيها كل شيء . وبرز المصورون أنفسهم من حالة إغفال الأسماء في العصور الوسطى إلى الفرديات المتميزة ، وأخذوا يوقعون بإمضاءاتهم على أعمالهم تشبها بالخلود .

ومع ذلك فإن صاحب لوحة « حياة العذراء » التي رسمت في كولونيا حوالي عام ١٤٧٠ لا يزال مجهولا ، وقد ترك هذا الفنان لوحة « العذراء والقديس برنار » ورسم فيها عذراء أنانية حقيقية تعتمر من ثديها اللبن للطفل ، أمام راهب ورع لا يكاد يوحى إلى كلب السماء الذي طارد ابيلارد .

ويعد ميكائيل باشير واحدا من أوائل الفنانين الذين نقلوا أسماءهم كما نقلوا أعمالهم . ولا تزال كنيسة سانت ولفجانج الأبرشية في سالتسكا مرجوت

تعرض النقش، الهيكل الضخم الذى يبلغ طوله ستة وثلاثين قدما والذى حفره وصوره لها فى السنوات من ١٤٧٩ إلى ١٤٨١ وقد أسهمت دراسة المنظور فى هذه الصور المرسومة على الخشب وفى تعليم الفن الألمانى .

وأظهر مارتن شونجاور فى تصويره حذق حفار مثقف وحس روجير فان دير فيدن المرهف . وقد ولد شونجاور عام ١٤٤٥ فى أوجسبورج واستقر فى كولمار وطور هناك مدرسة للحفر والتصوير لعبت دوراً عظيماً فى بلوغ الفنون إلى الأوج فى عهد ديرر وهولبين .

وفى كل عام كانت المدن النامية فى الجنوب تسلب زعامة الفن الألمانى من كولونيا والشمال . وفى أوجسبورج ، مركز التجارة مع إيطاليا ، أدخل هانز بورجكمير فى لوحاته لمسات زخرفية إيطالية ومزج هانز هولبين الأكبر الزخرف الإيطالى برصانة الطراز القوطى . وخلف هانز فنه لولديه أمبروز وهانز اللذين صورهما باعتزاز فى لوحاته . ولم يلمع اسم امبروز فى التاريخ ولكن هانز الصغير أصبح أحد أمجاد ألمانيا وسويسرة وإنجلترا ، وكان أعظم سلف لديرر هو ماتياس جوتهارت نايهارت الذى أصبح معروفا للخلف باسم ماتياس جرونيفالد بسبب خطأ ارتكبه أحد الباحثين . وقد تعلم سحر المصور من شونجاور فى كولمار وذلك فى مجال الوراثة الاجتماعية القديمة جداً للفن . ثم أضاف إليها تعطشه للشهرة والوصول إلى الكمال وتدريب فى أناة فى غنت وشبييار وفرانكفورت واختار ستراسبورج موطناً له (١٤٧٩) . ولعله رسم هناك أول رائعة له وهى صورة شخصية ثنائية لفيليب الثانى صاحب هانو — ايختنبرج وزوجته . والحق أن ديرر نفسه لا يستطيع أن يهبها لما يتجلى فى هذه اللوحة من إدراك عميق وجمال فى التنفيذ . وعاد جرونيفالد للتجوال من جديد وعمل بعض الوقت مع ديرر فى بازل حيث رسم « صورة رجل » المعروضة الآن فى نيويورك ثم قام

مرة أخرى بأعمال حفر في الخشب مع ديرر في نورمبرج . واستقر عام ١٥٠٣ في زليجنشتادت وهناك طور في نهاية الأمر أسلوبه المتميز الناضج — رسم مناظر من الإنجيل بإحساس مرهف ومقدرة هائلة . وعينه كبير الأساقفة ألبرخت مصورا للبلاط في ماينز (١٥٠٩) ولكنه عزل جرونيفالد عندما أصر على الشناء على لوثر (١٥٢٦) . وتزوج وصادفه سوء الطالع ثم انسحب وعاش في عزلة تقبض الصدر لعلها ألقت بعض الظلال السوداء على التظليل في فنه .

ومن أروع أعماله — وربما كان أعظم أعمال التصوير الألماني — الهيكل المتعدد الثنيات الذي أعده لديرر في ايزن عام ١٥١٣ ويعرض اللوح الأوسط العذراء وابنها بلون ذهبي يشع بالضياء على طريقة الفنان تورنر ، على مهاد من البحار النائية ، ولكن اللوح البارز الذي لا ينسى رسمت عليه صورة بشعة لصلب المسيح : تمثله وهو في النزاع الأخير وقد غطت جسده الجروح والعرق الممتزج بالدم ، وأطرافه تتلوى من الألم ، ومريم مغشى عليها بين ذراعى القديس يوحنا ، وماجدالين تتميز غضباً ويرتسم على أساريرها حزن مريب ، ولا تزال هناك ألواح أخرى يمكن أن تكون في ذاتها لوحات عظيمة : جوقة من الملائكة بأسلوب قوطى في البناء المعماري تتداخل فيه الألوان الحمراء والبنية الزاهية ، ولوحة مرعبة اسمها « إغواء القديس أنتوني » وصورة للقديس نفسه ، وناسك في غابة تزخر بالأرواح الشريرة والأشجار التالفة ، وكابوس بوثنى يبدو أنه يرمز إلى أحلام أنتوني . وفي غلبة اللون والضوء والإحساس بالخط والشكل والتصور فإن هذه السورة المسرحية في المقدرة التصويرية هي ذروة التصوير الألماني القوطى قبيل انتصار الخط والمنطق في فن ديرر الذي مد يديه في اشتياق إلى إنسانية وفن عصر النهضة الإيطالى على الرغم من تشبته بصوفية ألمانيا في العصور الوسطى .

٥ - ألبرخت ديرر (١٤٧١ - ١٥١٧)

لم يسبق لأمة أخرى غير ألمانيا أن اختارت بالإجماع أحد أبنائها ليكون ممثلاً لها في الفن - فقد وقع اختيار البروتستانت والكاثوليك وأهل الشمال وأهل الجنوب على الفنان ديرر . وفي اليوم السادس من أبريل عام ١٩٢٨ ، وبمناسبة الذكرى السنوية الأربعمئة لوفاته طرح الريحستاخ في برلين ومجلس المدينة في نورمبرج الأمور السياسية والمذهبية جانباً ، وذلك لتكريم فنان تحبه ألمانيا أكثر من أى فنان آخر . وفي غضون ذلك عرض خبراء الفنون دون طائل مبلغ ١٠٠٠٠٠٠ دولار لشراء لوحة - اسمها « عيد أكاليل الورد » ، وهى لوحة تقاضى عنها ديرر مبلغ ١١٠ جيلدر (٢٧٥٠ دولار ؟) .

وكان والده الهنغارى صائغا استقر به المقام في نورمبرج : وكان ألبرخت الابن الثالث من ثمانية عشر ولدا مات معظمهم في سن الطفولة وتعلم الولد في مرسى أبيه كيف يرسم بالقلم الرصاص والفحم والريشة وكيف يحفر بالنقاش ، ودرب نفسه على قوة الملاحظة وتمثيل الأشياء والموضوعات بتفصيل لا يعرف الكلل ، حتى إن كل شعرة تقريباً في بعض لوحاته تبدو وكأنها تلقت ضربة خاصة بها وحدها من الفرشاة . وكان الوالد يأمل أن يخلفه ابنه في حرفته كصائغ إلا أنه أذعن لرغبة الشاب في أن يتوسع في نطاق فنه . فأرسله إلى فوبلجيموت ليتمرن هناك (١٤٨٦) وتدرج ألبرخت في عمله ببطء ومكنت له عبقريته في الطموح والمثابرة والصبر . وقال : « لقد حبانى الله بفضيلة الجلد فحسن تعليمى ولكنى اضطررت أن أتجاوز عن قدر كبير من الإزعاج الذى سببه لى أحواله » ونظراً لأنه لم تسنح له فرصة كبيرة لدراسة الجسم العارى فإنه تردد على الحمامات العامة ورسم أجساماً في جمال أبولو وذلك بقدر ما سمحت له الظروف هناك . وكان هو نفسه يحاكي

أبولو بعض الشيء في تلك السنوات . وقد وصفه أحد أصدقائه في اعترا
بقوله : له جسم رائع متين البناء معتدل القوام جدير بما يحمله من عقل
نبيل . . . وجه ذكي الملامح وعينان تلمعان وجيد طويل وصدر عريض
وخصر نحيل ومنكبان قويان وساقان ثابتتان ، أما يدها ففي وسعك أن تقول
إنك لم تر قط يدين تزهما في الرشاقة . أما حديثه فعذب شائق حتى ليتمنى
المرء ألا ينتهى أبدا .

واجتذبه أعمال الحفر التي قام بها شونجاور فاتخذ طريقه إلى كولمار
(١٤٩٢) وإذا به يجد الأستاذ قد مات فتعلم قدر المستطاع من إخوة
شونجاور ثم رحل إلى بازل حيث تعلم من جرونيفالد أسرار الفن الديني
الخالص وكان قد أصبح رساماً بارعاً . وتحمل طبعة من رسائل سان جيروم
نشرت في بازل عام ١٤٩٢ على صفحتها الأولى صورة شخصية للقديس
رسمها ديرر ، ونالت هذه الصورة استحسان النقاد حتى تنافس ناشرون
عديدون للحصول على أعماله المستقبلية . ومهما يكن من أمر فإن أباه حثه
على العودة للوطن ليتزوج من الفتاة التي اختارها له لإبان غيابه . وعاد إلى
نورمبرج واستقر هناك وعاش مع زوجته أجنس فراى (١٤٩٤) .

وقد رسم نفسه قبل ذلك بعام في صورة شاب يرتدى زياً يكاد يكون
زى امرأة ويصفف شعره مثلها تقريبا ، معتزاً بنفسه وخجولاً في الوقت ذاته
يرتاب في العالم ويتحدها ، وفي عام ١٤٩٨ وكان لا يزال معجباً بوسامته
ولحيته أيضاً رسم لنفسه صورة شخصية في زى نبيل شاب يرتدى ملابس
فاخرة وعلى رأسه قلنسوة لها شراطة تبرز منها خصل طويلة من الشعر البني ،
وتعد هذه اللوحة من أعظم الصور الشخصية التي رسمها فنان لنفسه في جميع
العصور . ورسم نفسه مرة أخرى عام ١٥٠٠ في ملابس أكثر بساطة والوجه
مستطيل بين خصل غزيرة من الشعر تهدل فوق الكتفين ، وفي العينين النافذتين
يرى غامض ويبدو أن ديرر رسم نفسه هنا في صورة خيالية تشبه صورة

المسيح لا عن زهو يتسم بالزندقة ولكن لأن له رأياً رده كثير. كأمر مسلم به وهو أن أى فنان عظيم هو الناطق بلسان الله وبوحى منه تعالى . وكان الغرور هو الدعامة التى يستند إليها فى عمله ، إذ أنه لم يضاعف من عدد صوره الشخصية فحسب ، ولكنه أفسح لنفسه أيضاً مكاناً فى كثير من نوحاته . وكان فى بعض الأوقات يتمسك بأهداب التواضع ويدرك فى أسى أن قدراته محدودة ، وقال لبركهبايمر « عندما يثنى علينا فإننا نشمخ بأنوفنا ونصدق كل ما قيل عنا ولكن من يدري ؟ لعل أستاذنا ساخراً يضحك علينا من وراء ظهرنا » . أما بالنسبة لغير هذا فقد كان سليم الطوية ورعاً مخفصاً كريماً سعيداً بقدر ما تسمح الظروف .

ولم يستطع أن يعيش مسلوب اللب مع زوجته : فقد انطلق إلى إيطاليا بعد زواجه بوقت قصير وخالفها وراءه . وكان قد سمع عما يطلق عليه « النمو الجديد » للفنون فى إيطاليا بعد أن ضلت دفيئة ألف عام . وعلى الرغم من أنه لم يسهم مطامناً فى هذا البعث للأدب الكلاسى والفلسفة والفن التى واكبت عصر النهضة فإنه كان تراعياً لأن يرى من المصدر الأصيل مباشرة ما الذى حبا الإيطاليين بهذا التفوق فى الرسم والنحت والنثر والشعر . وأقام بصفة أساسية فى البندقية ولم تكن النهضة قد بلغت فيها أوج الازدهار ولكنه عندما عاد إلى نورمبرج (١٤٩٥) كان قد تلقى بوسيلة ما الخافز الذى أضيق شرارة طاقة الإنتاج السريعة فى خلال السنوات العشر التالية . وفى عام ١٥٠٧ ذهب إلى إيطاليا مرة أخرى بعد أن اقترض مبلغ مائة فلورين (٢٥٠٠ دولار ؟) من بيركهبايمر وأقام فيها هذه المرة عاماً ونصف عام .

ودرس أعمال ماتنيا وسكوارسيونى فى بادو ونسخ فى تواضع بعض الرسوم وسرعان ما اعترف به بلىنى وفنانون آخرون من البندقية رساما بارعا ونالت لوحة « عين أكايليل الورد » ، التى رسمها لكنيسة ألمانية ، الاستحسان حتى من الإيطاليين ، وكانوا لا يزالون يعدون معظم الألمان

برابرة . وعرض عليه سيد البندقية منصبا دائما إذا أقام هناك ولكن زوجته وأصدقائه ألحوا عليه في العودة إلى نورمبرج . ولاحظ أن الفنانين في إيطاليا أحرزوا مكانة اجتماعية رفيعة تفوق مكانة زملائهم في ألمانيا وقرر أن يطالب بمنزلة اجتماعية مماثلة عند عودته وكتب يقول : « إني هنا سيد مهذب أما في الوطن فأنا طفيلي » أى غير منتج لسلع مادية . وأبهجه الاهتمام بالفن في إيطاليا وكثرة الفنانين وما يدور بينهم من صراع والمناقشات الذكية والحادة التى تدور حول نظريات الفن . وعندما شرح له جاكوبو دى باربارى مبادئ بييرو دىلا فرانشسكا وغيره من الإيطاليين عن النسب الرياضية للجسد البشرى الكامل قال ديرر إنه « يؤثر أن يشرح له هذا فهو خير عنده من أن يتلقى مملكة جديدة » . واعتاد في إيطاليا رسم « الجسم العارى » فنيا ، وقد ثقف ذلك بدراسة التماثيل القديمة وفى الوقت الذى حافظ فى أعماله على الطابع التيوتونى والمسيحى فإنه شغف بالفن الوثنى الذى يعجب به الإيطاليون وسعى فى سلسلة طويلة من المقالات أن يعلم مواطنيه من الفلاحين أسرار المنظور والنسب والتلوين . وانتهى الأسلوب القوطى فى الرسم الألمانى بهاتين الرحلتين اللتين قام بهما ديرر إلى إيطاليا ، وهكذا قبل الجليل الألمانى ، الذى رفض أن يتبع روما فى الدين ، أن يسير على نهج إيطاليا فى الرسم .

وظل ديرر نفسه فى حالة توتر خلاق ، وإن اتسم بالتردد بين العصور الوسطى وعصر النهضة ، وبين الاتجاه الصوفى الألمانى والإقبال الإيطالى على الدنيا ولم تتغلب فى روحه قط بهجة الحياة التى رآها فى إيطاليا على التأمل فى الموت . وإذا استثنينا صوره الشخصية فإن موضوعاته ظلت برمتها تقريبا دينية ، وكان كثير منها صوفيا . ومع ذلك كان الفن دينه الحقيقى . كان يعبد الخط الكامل ويؤثره بالعبادة على محاكاة المسيح . وقد أظهر حتى فى أعماله الدينية اهتمام الفنان الشديد بكل الأشياء التى تعرض له حتى فى

الحياة اليومية العادية ورسم مثل ليوناردو كل شيء تقريبا . . صخورا وجداول ماء وأشجارا وجيادا وكلابا وخنازير ، وجوها قبيحة وأشكالاً قميئة وكائنات خيالية لها شكل عجيب أو مروع . ورسم ساقه اليسرى كما ترى في أوضاع مختلفة وبعج وسادة لتتخذ سبع أشكال مختلفة لدراستها بريشته التي لا تعرف الكلل . وحشد في عمله معرضا حقيقيا للحيوان ورسم أحيانا مدينة كاملة لتكون مهادا لإحدى لوحاته . وصور حياة الناس وأعمالهم في الريف بنشوة وفكاهة . وكان يحب الألمان فرسم رءوسهم الضخمة وسنمات وجوههم التي تنزع إلى الحمرة دون احتجاج وعرضهم في البيئات غير المتوقعة حتى في روما أو فلسطين وهم يرتدون دائما ملابس فاخرة مثل أبناء الطبقة الوسطى من السراة ويتدفرون ويتلفعون وكأنهم يتقون برد ألمانيا . ورسمه وصف انثوجرافي لأجيال نورمبرج ، وكان 'هم عملائه الأثرياء من التجار الذين خلد ذكرهم في لوحاته — ومع ذلك فقد تلقى مكافآت من الدوقات والأمراء المختارين في الإمبراطورية ، وأخيرا من ماكسميليان نفسه ، وكما كان تيسيان يحب أن يصور طبقة الأشراف والملوك ، فإن ديرر كان يألف تصوير أبناء الطبقة الوسطى ، ولقد جعلت هذه لصورة ، التي حفرها على الخشب ، الإمبراطور يبدو كما وصفه لويس الثاني عشر « عمدة أوجسبورج » . ورسم ديرر مرة واحدة في حياته النبالة في صورة — وهي صورة خيالية لشارلمان .

وله ست وثلاثون صورة شخصية تعد من أحسن أعماله التي تقر بها العين ويسر بها الفؤاد ، لأنها بسيطة وحسية دنيوية زاهرة بما يميزها من شخصيات . انظر إلى صورة هيرونييموس هولتسشور عضو مجلس الشيوخ في نورمبرج ، رأس ينم على القوة ووجه صارم الملامح وشعر نازل على جبهة عريضة ولحية مهذبة في تناسق تام وعينان حادتان كأنه يرقب بهما السياسيين ، ومع ذلك فإن فيهما شروع في بريق . نحن أدام رجل طيب القلب

مرح حسن الشهية . أو تأمل صورة ويليبالد بيركهايمر ، وهو أعز أصدقاء ديرر ، رأس ثور يخفى عقل علامة ويشير إلى شهوات معدة جارجانتوا . ومن كان يتوقع أن وجه فردريك الحكيم الضخم ، حكيم ساكسونيا ، بتقاطيعه المتغضنة المهذلة ، يخفى وراءه الأمير المنتخب الذى تحدى البابا ليحمى لوثر ؟ إن كل صور الأشخاص تقريباً تغلب اللب . صورة أوزفولت كريل الذى يبدو تركيزه الحاد حتى فى عروق يديه أو صورة برناردفون رستن بالصدر الأزرق الرقيق والقبعة العريضة الفخمة والعينين المتأملتين لفنان مستغرق أو صورة جاكوب موفيل عمدة نورمبرج . وهى استغراق فى الفكر للتعبد الجاد ، وهى تلقى بعض الضوء على عظمة المدينة وراثتها ، أو صورتا والدير وهو يبدو فى إحدهما منهوك القوى من النصب عام ١٤٩٠ ، وفى الثانية خائر القوى إلى أقصى حد عام ١٤٩٧ ، أو صورة سيد مذهب فى البرادو - رجولة مجسمة تدنسها القسوة والجشع ، أو صورة اليزابث توخر وهى تحمل خاتم زواجها متطلعة إلى إتمام الزواج فى خفر ، أو صورة سيدة من البندقية التى اضطرديرر من أجلها أن يسافر إلى إيطاليا ليجد الجمال والقوة . وقلما تجد فى صور من رسمهم من الذكور رقة ، وهى تخلو من الرشاقة ، وإن بدت فيها دائماً قوة الشخصية . قال : « إن ما لا يفيد فى الرجل ليس جميلاً » ، وكان يهتم بالواقع وحكايته بأمانة أكثر من اهتمامه بجمال القسمات أو الشكل ، وقد أشار إلى أن الفنان يستطيع أن يرسم بالرصاص أو بصور بالزيت صورة جميلة لشيء قبيح أو لموضوع كرهه . كان تيوتونيا فطر على الجلد وتقديس الواجب والإخلاص ، وقد ترك الجمال والرشاقة للسيدات وركز على القوة فى الرجال .

ولم يكن مبرزاً فى التصوير ، ولم يكن الرسم ينسجم مع ذوقه ، ولكن زيارته لإيطاليا أثارت فيه الرغبة فى أن ينشد اللون والخط معاً . وصوره بكلا متعدد الثنيات عرف فيما بعد باسم مذبح درسدن ، وذلك لفردريك صاحب ساكسونيا

والكنيسة الملحقة بقصره في فيتنبرج . وهنا نجد أن الأساليب الإيطالية في النسبة والمنظور قد شكلت إطار الأجسام بأسلوب ألماني بحت : سيدة ألمانية تمثل العذراء ، وأستاذ يمثل القديس أنتوني ، وشماس معمداني ألماني يمثل القديس سباستيان ، والنتيجة صورة فذة . وأبداع منها الصور والنقوش الهيكلية لبنو مجارتنر في ميونخ : صورة رائعة للقديس يوسف والعذراء مريم فوق مهادر معماري من الأطلال الرومانية . ولكن صدر الصورة قد شوهته أقزام سخيفة ، أما صورة عبادة المحوس في الأوفيزي فهي انتصار للون يتمثل في رداء العذراء الأزرق والثياب الفخمة التي يرتديها الملوك الشرقيون ، ولوحة المسيح بين الأضواء تبين عيسى الوسيم ، له خصالات شعر فتاة ، ويحيط به ثقات نحارير من ذوي اللحى والوجوه المتغضنة — أحدهم يشبه صورة هزلية كاله أنف وأسنان . وصورة عيد أكاليل الورد تضارع أروع الصور الإيطالية في هذا العهد ، بتكوينها البارح وجمال الأم والطفل معاً وروعة اللون بصفة عامة ، وتعد أعظم لوحة لدير ، ولكن على المرء أن يجازف بقطع كل الطرق إلى براغ ليُشاهدها . وفي فيينا وبرلين لوحات جذابة من عمل دير مريم العذراء : وفي نيويورك لوحة للعذراء والطفل مع القديسة آن ، وهي تقدم لنا فتاة ألمانية رقيقة ، تمثل العذراء ، وسيادة سامية سمراء تمثل أمها ، وما أروع اللوحات في البرادو التي تصور آدم وحواء . فهنا نتوقف لحظة لنجده فنائاً ألمانيا يظهر لنا جمال أنثى صحيحة البدن وهي عارية . ولقد ثبت من همة دبرر المكافأة الناصرة التي حصل عليها من التصوير ، وربما أوهن من عزمته اضطرابه إلى تكرار الموضوعات الدينية القديمة ، فتحول بصورة متزايدة إلى عمل يدر عليه ربحاً أكثر . ويتسم بمزيد من الأصالة ، وهو نحت الخشب والحفر ، لأن لوحاً واحداً في هذه الحالة يكفي لصنع ألف نسخة يمكن نقلها بسهولة إلى كل سوق في أوروبا . ويمكن أن تزود ألف مجلد مطبوع بالرسم نفسه .

كانت براعة ديرر تتجلى في رسم الخط وكان الرسم مملكته التي لا يزيده فيها رجل من الأحياء وقتذاك ، بل إنه في هذا المجال أذهل برقته المتناهية الإيطاليين المزهوين بأنفسهم . ولقد شبهه أرازموس كرسام بأستاذ قديم بارع في الخط فقال : إن أيبيلز كان يستعين باللون . . . أما ديرر فما الذي لا يستطيع أن يعبر عنه بلون واحد ؟ . . . والنسب والإيقاعات المنسجمة ؟ كلا إنه يرسم ما لا يمكن تصويره - النار وأشعة الضوء والرعذ . . . والبرق . . . وكل الأحاسيس والانفعالات في رقة ، وعقل الإنسان بأسره وهو يعكس نفسه بسلوك الجسد ، بل إنه يكاد يرسم الصوت نفسه ، وهو يضع هذه الأشياء أمام الأعين بأصلح الخطوط خطوط ، سوداء ، ومع ذلك فإنك لو نشرت عليها ألواناً لأضررت بالعمل الفني . ثم أليس عجباً أن يحقق فنه دون أن يتوسل باللون ما حققه أيبيلز متوسلاً بها ؟

ورد ديرر على هذا الإطراء بحفر صورة شخصية لأرازموس (١٥٢٦) ولم يجلس من أجلها أرازموس أمامه ولكنه رسمها عن صورة من عمل ماسيس ، وهى إن كانت لاتضارع هذه الصورة الشخصية ، ودون الصورة التي رسمها هولبين ، فلئها من روائع الرسم مع هذا كله ، وذلك للبراعة في تصوير ثنيات العباءة وظلالها وتجاعيد الوجه واليدين والأوراق المطوية للكتاب المفتوح .

وقد خلف لنا ديرر أكثر من ألف صورة معظمها يعد معجزات من التصميم الواقعى أو المعبر عن الورع أو الخيال الخارق ، وبعضها صور هزلية صريحة ، وإحداها تصور السن والحكمة في دقة متناهية ، ومن آن لآخر يكون الموضوع من ذلك النوع الذى لا ينبض بالحياة ، كما في لوحة الطاحونة ، أو مجرد خضرة خالصة مثل لوحة « المرج » ، أو حيواناً مثل صورة رأس فيل البحر . وتحشد عادة النباتات والوحوش حول أشخاص أحياء ، كما في اللوحة المركبة « السيدة العذراء مع حشد من الحيوانات » ، أما الموضوعات الدينية فهى أقل أعماله نجاحاً ، ومع ذلك فلئنا يجب أن نستثنى وتقدر اللوحة الرائعة المسماة

« يدا رسول يصلى » . وأخيراً فثمة دراسات رائعة فى الأساطير القديمة مثل لوحة أبولو وصورة أورفيوس .

وقد حول ديرر نحو ٢٥٠ من رسوماته إلى أعمال من الخشب المحفور المنحوت ومائة إلى حفر ، وهاتان المجموعتان تمثلان أروع جانب يستحق التقدير من تراثه . ولقد حفر بنفسه التصميمات حتى مدار القرن ، ثم عهد فيما بعد بحفر الخشب إلى آخرين . وما كان ، بغير هذا التعاون ، ليستطيع أن يصور مثل هذا القطاع الواسع من الحياة . وقد بدأ بتصوير رسوم لكتب مثل الفارس « فون تورن » و « الطيش » لسباستيان برانت ، ورسم بعد عشرين عاماً صوراً هامشية لكتاب الصلوات الخاص بماكسمليان . وجرب ريشته فى رسم الجسم العارى ، ونجح نجاحاً عظيماً فى لوحة « حمام الرجال » ولم يبلغ الشأو نفسه فى صورة « حمام النساء » ، وقد أفاد فى كليهما كدافع ثورى للفن الألمانى الذى كان قد أعرض عن رسم الجسم العارى باعتباره عملاً فاضحاً أو تبديداً للأوهام . واشتهرت أعمال الحفر فى الخشب ، التى سورت حياة العذراء وآلام المسيح عند الصلب ، فقد غدا فى وسع النساء المتعبدات وقتذاك أن يتأملن ، وهن يصطلين بجوار مدافنهن ، صورة مطبوعة تبين خطبة يوسف ومريم ، وكان الألمان العاملون يسرهم أن يجدوا فى صورة إقامة العائلة المقدسة فى مصر كل التفاصيل المريحة للألفة والجد اللذين عرف بهما الشعب التيوتونى — مريم تحيك الثياب ، ويوسف يعمل وهو جالس على دكتته ، وأطفال عليهم مسحة ملائكية يحضرون الخطب دون أن يطلب أحد ذلك منهم . وثمة سبع وثلاثون صورة من أعمال حفر الخشب الصغير — « آلام المسيح الصغرى » — وإحدى عشرة صررة أكبر — « آلام المسيح الكبرى » — عرضت قصة تعذيب المسيح ووفاته فى آلاف البيوت ، ونبه شوق الرأى العام لترجمة لوثر للعهد الجديد . وثمة سلسلة أخرى من الصور زيتت سفر الرؤيا وبعضها حفر على الخشب مثل « الفرسان الأربعة فى سفر لرؤيا » والقديس مايكل يقاتل التنين وكانت من النضارة والوضوح

بحيث ظل الذهب الألماني قروناً طويلة يفكر في سفر الرؤيا كما عبر عنها ديرر برسومه .

وتجاوز مرحلة حفر الخشب إلى فن يحتاج إلى مزيد من الجهد هو فن النقش ، وحاول بين الفينة والفينة النقش بالحفر الإبرى ، كما في الصورة المظلمة « العائلة المقدسة » وكان عادة يعمل بإزميل . و « سقوط الإنسان » نقش على النحاس في أشكال تليق باليونان وفي نسبة وتناسق جديرين بالإيطاليين مع ما عهد في ديرر من إسراف في رسم الحيوان والنبات ، حيث نجد أن لكل وحدة تقريباً دلالة رمزية بالنسبة له ولجليه . وبرزت إناث عاريات في روعة لم يسبق لها مثيل في الفن الألماني من المعدن ، وذلك في صورة « وحش البحر » و « الصراع بين الفضيلة واللذة » ، بخلفية من المناظر الخلوية رسمت ببراعة .

أما الستة عشرة صورة من الحفر والتي تكون « آلام المسيح منقوشة » فإنها أقل تأثيراً من صورة « تعذيب المسيح » المحفورة على الخشب ، ولكن صورة القديس ايوستاس فهي مجموعة من الرسوم الحية : خمس كلاب وجواد وغاية ، وحشد من الطيور وسلسلة من القلاع فوق تل ، وغزال يحمل صليلاً بين قرنيه ، ويتوسل إلى الصياد أن يعفيه من القتل ويغريه بأن يصبح قديساً .

وبلغ ديرر في عامي ١٥١٣ و ١٥١٤ الذروة كرسام في ثلاث رائعات من الحفر ، فالفارس والموت والشيطان نسخة قوية من موضوع كتيب من القرون الوسطى . فارس صارم الملامح مسربل بالدروع والسلاح ، يمتطي صهوة جواد فيروكشي ، تكتنفه صورة قبيحة للموت والشيطان ، ومع ذلك فإنه يتقدم إلى الأمام في إصرار منتصراً للفضيلة على كل شيء ، ويبدو أن أحداً لا يصدق أنه يمكن نقش صور في المعدن بمثل هذه المبالغة والدقة في التفاصيل . فصورة القديس جيروم في قاعة درسه ، توضح مرحلة أهدأ من انتصار

المسيحي . . القديس العجوز الأصلع منحني فوق مخطوطته يكتب على ما يبدو في ضوء هالته وعلى الأرض ، ومعه في هدوء أسد وكلب ، وعلى أسكفة النافذة تجثم جمجمة في سكون مبين ، وما يبدو في نظر كل الناس قبعة زوجته معلقة على الحائط ، وكل الحجرة مرسومة بمنظور روعيت فيه القواعد ، ورسمت فيها كل الظلال وأشعة الشمس بدقة فائقة . وأخيراً فإن النقش ، الذي أطلق عليه ديرر اسم « السوداء » ، يكشف عن ملاك يجلس وسط أنقاض مبنى لم يتم ، وتحت قدميه خليط من الأدوات الميكانيكية والآلات العلمية ، ويتدلى من منطقته كيس ومفاتيح رمزاً للثروة والسلطان ، ويستند برأسه مفكراً على إحدى راحتيه ، وعيناه تحملقان حولهما في شيء من الدهشة وشيء من الفزع . أترأه يتساءل لأي غرض يبذل كل هذا الجهد ، وما فائدة هذا البناء ، والهدم والبناء ، وهذا السعي الحثيث وراء الثروة والسلطان والجري وراء السراب الذي يسمى الحقيقة ومجد العلم هذا وبلبلة ذوى الفكر وهم يكافحون عبثاً الموت المحتوم ؟ وهل يمكن أن يكون ديرر في بداية العصر الحديث نفسه قد أدرك المشكلة التي واجهها العلم الظافر وهي مشكلة الوسائل التقدمية التي أساءت استخدامها الغايات التي لا تتغير ؟

وهكذا دخل ديرر عصر لوتر بالرسم تلو الرسم والتصوير وراء التصوير ، بدأب جهيد وصبر يختلفان عن تسويق ليوناردو وترف راغائيل ، واشترى حوالى عام ١٥٠٨ البيت الذي أضفى الشهرة على نورمبرج ، وقد دمر في الحرب العالمية الثانية ، ثم أعادت هيئة السياحة بناءه بصورة طبق الأصل منه . وكان الطابقان السفليان فيه من الحجر ، أما الطابقان الثالث والرابع فن الخشب المكسو بالملاط ، وفوق طنف بارز يجثم طابقان آخران تحت السقف الهرمى . وهناك عاش ديرر تسعة عشر عاماً في بوئس غير مفرط مع زوجته العقيم . وكانت أجنس ربة بيت بسيطة وتعجب لماذا يمضي ألبرخت هذا الوقت الطويل في دراسات لا تسمن ولا تغنى من جوع ، أو مع أصدقاء يدمنون

الشراب . كان يتحرك في دوائر لا تستطيع أن تدركها بعقلها القاصر وكان يهملها من الناحية الاجتماعية ، وكثيراً ما كان يسافر دون أن يصحبها معه ، ولكنه عندما اصطحبها معه إلى الأراضي الواطئة ، كان يتناول غذاءه مع الشخصيات المشهورة أو مع أحد ضيوفه ويترك زوجته تتناول طعامها في (المطبخ الأعلى) مع خادمتها . وفي عام ١٥٠٤ انضمت إلى دير والدته الأرملة لتعيش معهما في البيت واستمرت معهما عشر سنوات . والصورة التي رسمها لها تثير عطفنا على الزوجة — ولم تكن جد فاتنة — ولقد رأى أصدقائه في أجنس امرأة سليطة اللسان ، لا تستطيع أن تشارك ديرر حياته الفكرية المستغرقة .

وفي سنواته الأخيرة تمتع أستاذ نورمبرج بشهرة تعم قارة أوروبا ، باعتباره رائداً للفن الألماني ومفخرة له . وفي عام ١٥١٥ منحه الإمبراطور معاشاً متواضعاً قدره مائة فلورين في العام (٢٥٠٠ دولار ؟) ، وكان يدفع له بصورة غير منتظمة ، لأن دخل ماكسميليان كان لا يتفق أبداً مع خططه .

وعندما مات ماكسميليان توقف المعاش ، فقرّر ديرر أن يزور الأراضي الواطئة ويطلب تجديد معاشه من شارل الخامس . وأخذ معه مجموعة متنوعة من الرسوم والصور الزيتية ليبيعها أو يقيض عليها في هولندا أو في الفلاندرز . واستطاع بذلك أن يدفع كافة نفقات الرحلة تقريباً . وتكاد تبدو في اليوميات التي احتفظ بها عن جولاته (يوليو ١٥٢٠ — يوليو ١٥٢١) وإن لم تكن تماماً — شخصية مثل التي كتبها بوزويل بعد قرنين آخرين ، فهي تسجل نفقاته ومبيعاته ومشترياته وزياراته وحفلات تكريمه ، وتكشف عن عناية ابن الطبقة الوسطى بالتفاصيل المالية ، وابتهاج الفنان بالاعتراف بعبقريته ، وهو أمر يغتفر له . ولقد حصل ديرر على الحق في تجديد معاشه بعد مطاردة شارل في اثنتي عشرة مدينة ، وهكذا استطاع أن يخصص باقي رحلته لمشاهدة مناظر الأراضي الواطئة وأبطالها . وأذهلته ثروة غنت وبروكسل وبروجزوروعتها ،

ومذبح آل فان أليك المتعدد الطيات في كنيسة سانت بافون . وكاتدرائية أنتورب « التي لم أرها مثيلاً في الأراضي الألمانية » . والتي بارازموس ولوكاس فان ليدن وبرنايرت فان أورلي وآخرين من وجهاء الأراضي الواطئة ، ورحبت به طوائف الفنانين في تلك المدن ، وأصيب بالمalaria في مستنقعات تيسيلاند المليئة بالبعوض فأتلقت صحته فيما بقي له من عمر .

ويقول في صفحة من يومياته : « لقد اشتريت كراسة لوثر الدينية بخمس بنسات فضية وأعطيت واحدة لإدانة هذا الرجل القوي » . وفي أنتورب (مايو ١٥٢١) سمع شائعة تقول إن لوثر « قبض عليه غدرا » وهو يرحل عن مجلس نواب (دايت) ورمز ، ولم يعرف ديرر أن هذا الإبعاد إنما قصد به حماية هذا المصلح العظيم وخشى أن يكون لوثر قد قتل فكتب في يومياته دفاعاً حاراً عن الناصر متوسلاً بارازموس أن يخف لنجدة أنصاره : « إذن فقد اختفى هذا الرجل الذي أنار عقله الروح القدس ليتابع العقيدة الحققة . . . وإذا كان قد تعذب فإن هذا في سبيل الحقيقة المسيحية ضد البابوية غير المسيحية التي تعمل ضد حرية المسيح وتستنزف دماءنا وعرقنا لتقتات به وتعيش في ترهل في الوقت الذي تحيا فيه الشعوب في مسغبة . رباه ! إن الناس لم تسحق قط بمثل هذه القسوة تحت وطأة القوانين التي من صنع البشر ، كما حدث لهم تحت كرسي الأسقفية الرومانية . . . إن كل إنسان يرى مدى الوضوح الذي أعلنت به العقيدة في كتب لوثر وكيف أنها تطابق ما ورد في الإنجيل المقدس . إننا يجب أن نصون هذه الكتب من أن تحرق بل دعونا نقذف في النار الكتب التي تعارضه . . . وأنتم أيها المسيحيون الأنقياء جميعاً ابكوا معي حزناً على فقد هذا الرجل ، وصلوا للرب أن يرسل لنا هادياً آخر . وأنت يا أرازموس الروتردامي أين تقيم ؟ ألا ترى الظلم والاستبداد الأعمى للسلطات الحاكمة الآن ؟ استمع إلى يا فارس المسيح واركب بجانب سيدنا كما هو حالك . . . أنت أيضاً تستطيع أن تفوز

بتاج الشهيد . اجعل صوتك مسموعاً يا ارازموس ، فعسى الله الذى يحكم على أعمالك أن يظهر تمجيده فيك » :

وعندما عاد ديرر إلى نورمبرج وقف حياته كلها تقريبا على الفن الذى يتسم بالطابع الدينى ، مع الاهتمام الفائق بالأناجيل من جديد . وأتم عام ١٥٢٦ أعظم مجموعة من لوحاته - الرسل الأربعة - وهى تسمية غير صحيحة لأن مرقس المبشر الإنجيلي لم يكن واحداً من الحوارين الاثنى عشر ، ولكن لعل هذا الخطأ يشير إلى البروتستانت فى العودة من الكنيسة إلى الأناجيل . واللوحتان من بين الممتلكات التى يعز بها « بيت الفن » والذى جمعت فيه ميونخ ، التى أضرت بها الحرب ، مجموعتها الفنية الشهيرة . وإحدى اللوحتين تصور يوحنا وبطرس ، والأخرى تصور مرقس وبولس ، والأربعة كلهم يرتدون ثياباً زاهية اللون ، لا تكاد تتفق مع قديسين من عامة الصيادين ، وفى هذه الملابس عكف ديرر على تصوير المثال الإيطالى بينما أكد تأثير بيئته الألمانية فى الرؤوس العريضة الضخمة . ولعل هذه الصور المهيبة قصد بها أن تكون أجنحة لمذبح ثلاثى الطيات فى كنيسة كاثوليكية . ولكن مجلس نورمبرج أعلن عام ١٥٢٥ تأييده للإصلاح الدينى . فتخلى ديرر عن فكرة عمل صورة مذبح ، وقدم اللوحات إلى المدينة ، وألحق بكل لوحة نقوشاً تؤكد بإصرار أهمية الأناجيل ؛ وعلى الرغم من وجود المفاتيح فى يد بطرس - وهى تعد عادة أداة تمثل الكنيسة الرسمية المقدسة وسلطات الكنيسة - فإن من الممكن تفسير هذه اللوحات بأنها عهد ديرر البروتستانتي .

ولم يبق من عمره آنذاك إلا عامان وكان يعانى من نوبات متعاقبة من حمى الملاريا حطمت صحته وروحه معا . ولقد رسم فى عام ١٥٢٢ آخر صورة له باسم رجل الأحزان ، وتصوره عارياً أشعث الشعر شاحب الوجه ، عليلاً يقاسى من الألم ، ويمسك فى يديه سوط تعذيب المسيح ، وظل مع ذلك

يعمل إلى النهاية وعندما مات (٦ ابريل سنة ١٥٢٨) بالغاً من العمر سبعة وخمسين عاماً ترك من الرسوم والصور المحفورة في الخشب والنقوش إلى جانب ٦٠٠٠ فلورين — ما يكفي لإعالة أرملته في يسر كئيب ، وذلك فيما تبقى لها من العمر . وها هو بيركهايم يقول في رثائه : « خير صديق لى فى حياتى » وكتب نقشا تذكاريا متواضعا على القبر : « ما كان فانيا من ألبرخت ديرر يرقد تحت هذه الربوة » .

ولقد افتقد ديرر الغاية السامية باعتباره فناً ، ذلك لأنه ضحى بمهمة الفن العظمى فى سبيل مهمة أقل وزناً . . كان يفتن برؤية الأشكال العابرة للأشخاص والأماكن والأشياء ، وهى تدب فيها الحياة تحت يديه إلى حد جعله يستغرق بصفة أساسية فى تصوير الواقع — سواء أكان جميلاً أم قبيحاً ، له معنى أو لا معنى له — ولم يكن يمزج إلا عرضاً العناصر المتناثرة للإدراك الحسى لتكتمل فى خيال خلاق ، ثم تعود مجسمة فى خط أو لون وجمال مثالى ، يكشف لنا عن أهداف يسعى إلى تحقيقها أو يكشف لنا عن رؤى تيسر الفهم أو تحقق الهدوء ، ولكنه ارتفع إلى مستوى نداء عصره فحفر فى الخشب أو نقش على النحاس سيرة ذاتية بلحيلة المترصد المنتج وأن ريشته أو قلمه الرصاص ومنقاشه أو فرشاته استدعت الأرواح الخفية للرجال المقتدرين الذين وطأوا بأقدامهم مسرح ذلك العصر .

ولقد جعل ديرر تلك الحقبة من الزمن تعيش لنا أربعة قرون بكل ما فيها من حماسة وولاء وخوف ووهم ، واحتجاج وحلم وورع . . . كان ألمانيا .

٦ — علماء الإنسانيات الألمان

كانت ألمانيا بلداً فتياً فى الآداب مثلما كانت فى الحياة والفن . . . وانتشر تعلم القراءة والكتابة ، وصدرت الكتب متدفقة من ستة عشر ناشراً

فى بازيل ، وعشرين فى أوجسبورج ، وواحد وعشرين فى كولونيا ، وأربعة وعشرين فى نورمبرج . ولقد كان هناك أنطون كويرجر الذى استخدم وحده أربعة وعشرين مطبعة ومائة رجل ، وكان الاتجار فى الكتب يحتل جانبا كبيرا من التجارة الرائجة بالأسواق فى فرانكفورت وسالزبورج ونوردلينجن وأولم ، حتى قال أحد المعاصرين الألمان « إن كل إنسان اليوم يريد أن يقرأ ويكتب » . وكتب آخر يقول : « لانهاية للكتب الجديدة التى تؤلف » . وتضاعف عدد المدارس فى المدن ، وكانت كل مدينة تقدم مكافآت أو منحا دراسية للطلبة الفقراء من الممتازين ، وأنشئت تسع جامعات جديدة فى هذه السنوات للتعليم الجديد . ونهضت أكاديميات أدبية فى ستراسبورج وأوجسبورج وبازيل وفيينا ونورمبرج وماينز ، وفتح أبناء الطبقة الوسطى الأغنياء أمثال بويتنجر وبيركهايمريل والإمبراطور ماكسميليان نفسه مكاتبهم وعرضوا مجموعاتهم الفنية للناس ، وتبرعوا بأموالهم للدارسين المتلهفين للدرس ، وكان كبار رجال الدين أمثال جوهان فون دالبرج أسقف ورمس وألبرخت البراندنبرجى ، كبير أساقفة ماينز ، أنصارا مستنيرين للدراسة والشعر والفن ، ورحبت الكنيسة فى ألمانيا بعصر النهضة ، وهى فى هذا كانت تحل وحلوا البابوات ، ولكنها تشددت فى الدراسات اللغوية لنصوص الكتاب المقدس وآباء الكنيسة . وطبعت النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس ستا وعشرين طبعة فى ألمانيا بين عامى ١٤٥٣ و ١٥٠٠ ، وكانت هناك عشرون ترجمة للكتاب المقدس قبل ترجمة لوثر . وليس من شك فى أن انتشار العهد الجديد بين الناس قد أعدهم لتقبل ما أعلنه لوثر متحديا لتناقض الأناجيل مع الكنيسة ، وأن قراءة العهد القديم أسهمت فى تهويد البروتستانت للمسيحية من جديد .

وكانت الحركة الإنسانية فى ألمانيا بادية الأمر — وبعد شغفها بلوثر — أكثر مطابقة للعقيدة كما عرفها علم اللاهوت منها فى إيطاليا ، ولم يكن لألمانيا ماض قديم مثل إيطاليا ولم يتح لها أن أفادت من غزو روما الإمبراطورية

لها وتعليمها ، ولم يكن هناك رباط مباشر بينها وبين العهد القديم غير المسيحي . وكانت ذاكرتها لا تكاد تتجاوز القرون التي دانت فيها بالمسيحية ، وكان تضلعها في العلم لا يكاد يقتحم ما قبل عهد آباءها المسيحيين ، وكانت نهضتها إحياء للمسيحية الأولى أكثر منها إحياء للآداب والفلسفة الكلاسيكية . وطوى الإصلاح الديني النهضة في ألمانيا .

ومع ذلك فإن مذهب الإيمان بالإنسان في ألمانيا اقتدى بزعماء إيطاليا ، إذ أن بوجيو براتشيوليني وإنياس سيلفيوس وآخرين من علماء الإنسانيات جاءوا معهم بالبذرة عند زيارتهم لألمانيا ، كما أن الألمان من الطلبة والحجاج ورجال الدين والتجار والدبلوماسيين الذين زاروا إيطاليا عادوا وهم يحملون معهم — ولو عن غير قصد — لقاح عصر النهضة . ولقد تلقى رودولفوس أجريكولا ، وهو ابن قسيس هولندي يرعى أبرشية ، الكثير من التعليم في أرفورت وكولونيا ولوفان ، ووقف سبع سنوات من عمره على التعمق في دراسات اللاتينية واليونانية في إيطاليا ، ثم عاد ليدرس في جروتينجن وهيدلبرج وورمس . وتعجب أهل العصر من فضائله غير المألوفة من الجواهر . التواضع والبساطة والأمانة والورع والعفة . وكتب باللغة اللاتينية ما يكاد يكون جديراً بشيخرون ، وتنبأ بأن ألمانيا سوف « تبدو يوماً وهي لا تنقل لاتينية عن اللاتينوم » . والحق أن هولندة أجريكولا قد أنجبت في الحبل التالي أرازموس وهو عالم باللغة اللاتينية إلى حد يتيح له أن يحس بأنه في وطنه لو قدر له أن يعيش في روما تاسيتوس وكوينتيليان .

وأصيب أجريكولا في رحلة قام بها إلى روما بالحمى التي قضت عليه في هيدلبرج وهو في الثانية والأربعين من عمره (١٤٨٥) .

وكان يضارعه في النفوذ — لافي دماثة الطبع — جاكوب ويغفيلنج ، وكان مزاجه حاداً بقدر ما كانت لاتينيته رقيقة . وقرر ناظر المدرسة الألماني .

هذا أن يرفع ألمانيا إلى مستوى إيطاليا في التعليم والآداب ، فوضع خططاً لإنشاء نظام المدارس العامة ، وأسس جمعيات من المتعلمين ، وأدرك مع ذلك مدى الخطورة إذا تحقق التقدم الفكري دون أن يصحبه تطور أخلاقي .
يرسائل قائلاً : « ما فائدة تعليمنا إذا كانت أخلاقنا غير شريفة بفعل التناظر أو صدامتنا كإلها لا تقترن بالورع ، أو معرفتنا كلها لا تحث على حب جارنا ، أو كانت كل حكمتنا تفتقر إلى التواضع ؟ .

ويعد جوهانس تريشميوس راهب سبونهايم آخر علماء الإنسانيات المحافظين وهو الذي كتب عام ١٤٩٦ : « لقد ولت إلى غير عودة أيام تشييد الأديرة ، أما أيام هدمها فأتية لا ريب فيها » . ووصف سيلتس ، وهو عالم إنسانيات أقل إخلاصاً زميله تريشميوس بأنه « زاهد في الشراب ، بزدرى لحم الحيوان ويعيش على الخضر والبيض واللبن ، كما كان يفعل أسلافنا في الوقت الذي . . . لم يكن هناك أطباء يشرعون في تركيب أدوية لداء النقرس والحمى » . وأصبح في خلال حياته القصيرة متفناً في علوم جمّة ، بارعاً في اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية وآدابها ، وقد قام بمراسلة أرازموس وماكسميليان والأمراء الإمبراطوريين المختارين ، وشخصيات مشهورة أخرى وفسر عامة الناس في هذا العهد معارفه المكتسبة على أساس نظرية تذهب إلى أنه كان يملك قوى خفية خارقة . ومهما يكن من أمر فإنه مات وهو في الرابعة والخمسين من عمره (١٥١٦) .

وكان كونرادوس سيلتس أقوى علماء الإنسانيات الألمان غيره وأعظمهم أثراً . ولقد كان ينتقل من مدينة إلى مدينة وكأنه أديب جوال عجول يدرس في إيطاليا وبولنדה وهنغاريا ، ويعلم في كولونيا وهيدلبرج وكراكاو وبراغ وماينز وفيينا وأنجولستادت وبادوا ونورمبرج ، وكشف عن مخطوطات ثمينة كانت مهجلة مثل مسرحيات هورتسويذا ، وخرائط قديمة مثل تلك الخريطة

التي أعطاها ليويتنجر وحملت اسمه . وكان يجمع حوله الدارسين أينما ذهب ويث فيهم شغفه بالشعر والأدب الكلاسي والآثار الألمانية القديمة . وفي عام ١٤٤٧ توجه الإمبراطور فردريك الثالث في نورمبرج أميراً للشعراء في ألمانيا . وأسس سيلتس في ماينز (١٩٤١) جمعية الراين الأدبية الواسعة النفوذ وكانت تضم علماء وفقهاء في الدين وفلاسفة وأطباء ومؤرخين وشعراء ومحامين ، أمثال أولريخ تسازيوس الفقيه القانوني الضليع وعلماء أمثال بيركهايمر وتريثموس وروينلين وويمفيلنج . وأنشأ في فيينا ، بأموال زوده بها ماكسميليان ، أكاديمية للشعر أصبحت فيما بعد قسماً محترماً من الجامعة يعيش فيه الأساتذة والطلبة معاً في البيت نفسه وينهضان بالعمل ذاته . ويبدو أن سيلتس خسر عقيدته الدينية في خلال دراساته : فقد أثار مثل هذه الأسئلة : « هل تحيا الروح بعد الموت ؟ » و « هل هناك إله حقاً ؟ » وفي أسفاره اصطحب نماذج كثيرة من الجنس اللطيف ولكنه لم يصحب واحدة منهن إلى المذبح ، وانتهى أمره إلى أن يقول في غبطة : « ليس هناك تحت الشمس أحلى من عذراء جميلة بين ذراعي رجل تبدد همومه » .

ولقد انتشر هذا الانحلال المريب وأصبح بدعة بين علماء الإنسانيات الألمان في العقود الأخيرة قبل لوثر : وكتب ايوبان هيسي *Heroides Christiane* « الاستشهاد المسيحي » (١٥١٤) بلغة لاتينية سليمة ، وقاد فيه أوفيد في الخجون أكثر مما قلده في الشكل ، وتضمن خطابات حب من المجدلية إلى عيسى ، ومن مريم العذراء إلى الأب المقدس ، ولكي يقرن الفعل بالقول عاش في انحلال مثل تشليني وفاق في الشراب جميع من نافسوه ولم ير بأساً في أن يفرغ في بطنه دلوا من البجعة في جرة واحدة .

ومهما يكن من أمر فلن كوثرادوس موتيانوس روفوس استطاع أن يوفق في رفق بين مذهب الشك والدين ، ولقد اكتفى بعد أن فرغ من الدراسة في ديفنتر وارفورت وفي إيطاليا : بمنصب ديني متواضع في جوتا ووضع

على بابيه هذا الشعار : « أيتها السكون المقدس السعيد » Beata tranquille ،
وجمع حوله الطلبة المعجبين وعلمهم « أن يقدرُوا أحكام الفلاسفة وأن
يضعوها فوق أحكام القساوسة » ولكنه حذرهم ، بأنهم يجب أن يخفوا شكوكهم
في العقيدة المسيحية عن الجمهور بالإقبال بأسلوب مهذب على إقامة الشعائر
والمراسم الدينية وقال : « إننا لا نقصد بالإيمان مطابقة ما نقول للواقع بل
نعني رأياً بأن الأمور المقدسة تقوم على الفطرة والإقناع الذى ينشد المنفعة » .
واعترض على إقامة القداس للموتى باعتباره أمراً لا فائدة منه وعلى الصيام
باعتباره شيئاً غير مرغوب فيه وعلى الاعتراف السرى باعتباره عملاً بشرياً
الارتباك . ورأى أن الكتاب المقدس يحتوى على حكايات خرافية كثيرة مثل
حكاية يونان وأيوب : ومن يدري ؟ لعل المسيح لم يمت حقاً على الصليب ! فقد
كان اليونان والرومان مسيحيين دون أن يحسوا ما داموا قد عاشوا فى استقامة ،
وليس من شك فى أنهم ذهبوا إلى الجنة . ويجب أن يكون الحكم على العقائد
والشعائر مبنياً لا على أساس دعاواها الخرافية ولكن على أساس آثارها
الأخلاقية . فإذا كانت ترقى بالنظام الاجتماعى والفضيلة عند الفرد فيجب
أن يتقبلها الجمهور دون مناقشة ، وطلب موتيانوس من مريديه أن يعيشوا
حياة طاهرة ، وأقسم فى سنواته الأخيرة قائلاً : لسوف أحول دراساقى إلى
ورع ولن أتعلم من الشعراء أو الفلاسفة أو المؤرخين إلا ما يرقى بالحياة
المسيحية . وبعد أن عاش بكل ما تقدمه الفلسفة من عزاء مات تحفه بركات
الكنيسة (١٥٢٦) .

وليس من شك فى أن استياء المحافظين من مذهب الشك الذى شاع بين
علماء الإنسانيات المتأخرين قد بلغ عنفوانه عند أرق علماء هذا العصر
وأرجهم صدىراً فقد لاحظ جوهانس رويخلين التقليد الذى درج عليه الناس
فى العصور الوسطى من جمع المعارف من اثني عشر مركزاً بفضل انتشار
اللغة اللاتينية باعتبارها لغة التعليم فى أوروبا الغربية . وفى مدرسة النحويين بلدته

فورتسهايم وفي جامعات فرايبورج وباريس وبازيل وأورليانز وبواتيه ، وفي لينز وميلان وفلورنسا وروما تابع دراسة اللاتينية واليونانية والعبرية والقانون بحماسة تصل تقريباً إلى حد التعصب ، ولقد غير اسمه على عادة علماء الإنسانيات الألمان - وهو مشتق من كلمة rauchen الألمانية بمعنى يدخن - إلى كابينو المأخوذة من كلمة kapnos اليونانية بمعنى التدخين . وألف وهو في العشرين من عمره معجماً للغة اللاتينية طبع مرات . وفي روما أعطاه جوهانس أوجيروبولس قطعة صعبة من كتاب المؤرخ ثوسيديدس ليرجمها ، فما كان من رويخلين إلا أن استعجاب فوراً حتى صاح اليوناني العجوز : « الآن ينز اليونان وراء الألب » . ولم يكن الطالب الشهم يترك حانخاما يمر دون أن يتعلم منه شيئاً من العبرية ، ويزعم موتيانوس أنه سمع أن رويخلين أعطى دارساً يهودياً عشر قطع ذهبية ليشرح له معنى عبارة عبرية ، وربما كان هذا حلم عالم بالإنسانيات .

وأقنع بيكو ديلا ميراندولا ، رويخلين أن ينشد الحكمة في كابالا . وبمقارنة ترجمة جيروم للعهد القديم بالنص العبري الأصلي أشار « كابينو » إلى كثير من الأخطاء فيما اعتاد علماء اللاهوت الاستشهاد به كنص لا يرقى الشك إليه . وعندما بلغ الثانية والثلاثين من عمره عين أستاذاً للعبرية في جامعة هيدلبرج . وليس من شك في أن معجم اللغة العبرية وكتاب قواعد هذه اللغة اللذين ألفهما قد أتاحا دراسة اللغة العبرية والعهد القديم على أساس علمي وأسهما في أن يكون للكتب المقدسة المدونة بالعبرية تأثير قوى على الفكر البروتستانتي .

وحجب إعجابه بالعبرية شيئاً فشيئاً شغفه بالكلاسيات ، فقد كتب يقول « إن اللغة العبرية لم يمسها الزيف وهي جامعة تؤثر الإيجاز إنها اللغة التي تحدث بها الله الإنسان وهي التي تحدث بها الإنسان للملائكة وجها لوجه »

واحتمفظ بعقيدته السلفية أثناء دراساته جميعاً وإذا كان قد شابها قليل من التصوف فإنه قدم كل كتاباته وتعاليمه بإخلاص إلى سلطان الكنيسة .

وتخالفت طائفة من الظروف الغربية فجعلت منه بطلا لعصر النهضة الألمانية ، إذ حدث في عام ١٥٠٨ أن أصدر جوهانس بفيفر كورن ، وهو حاخام تحول إلى قسيس ، كتاب « مرآة اليهود » أدان فيه اضطهادهم وبرأهم من الجرائم الاسطورية التي شاع اتهامهم بها ولكنه حثهم في الوقت نفسه على أن يتخلوا عن إقراض النقود وعن التلمود وأن يدخلوا في المسيحية وقدم إلى الإمبراطور — وكان يؤازره في ذلك رهبان الدومينيكان في كولونيا — توصية بمصادرة جميع الكتب العبرية ما عدا العهد القديم ، فأمر ماكسميليان بتسليم جميع كتب الأدب اليهودي ، التي تنتقد المسيحية إلى بفيفر كورن لكي تفحصها جامعات كولونيا وارفورت وماينز وهيدلبرج وجاكوب فان هوجسترايتن رئيس محكمة التفتيش في كولونيا وروينلين بفضل تضلعه في اللغة العبرية ، وأشار الجميع ما عدا روينلين بمصادرة الكتب وإحراقها ، وهكذا أثبت رأى الأقلية الذي يمثل روينلين أنه معلم من معالم تاريخ التسامح الديني ، فقد قسم الكتب اليهودية إلى سبع طوائف ، إحداها يتكون من أعمال تسخر صراحة من المسيحية وهذه يجب أن تحرق أما الباقى وتشمل التلمود فيجب الحفاظ عليها حتى ولو كان هذا مجرد أن لها قيمة كبيرة بالنسبة للمعرفة المسيحية ، وقال بفيفر كورن إن لليهود حقاً في أن تكون لهم الحرية في الرأي كمواطنين بالإمبراطورية ولأنهم لم يرتبطوا بأى التزام نحو المسيحية .

وتحدث روينلين في رسائله الخاصة عن بفيفر كورن فقال إنه « حمار » لم يتيسر له أن يحسن فهم الكتب التي اقترح إتلافها . وكان رد بفيفر كورن على هذه المجاملات أن أصدر كتاب « مرآة اليد » ، وقد هاجم فيه روينلين

وعده أداة رشها اليهود . فرد عليه رويخلين طعنة بطعنة وأصدر كتاب « مرآة العين » الذى أثار عاصفة بين المحافظين . وشكت كلية اللاهوت فى كولونيا إلى رويخلين أن كتابه قد أسعد اليهود كثيراً وطالبوه أن يسحبه من التداول . وحرم ماكسميليان بيعه فاستغاث رويخلين بالبابا ليو العاشر فأحال الأمر إلى مستشارين مختلفين فقرروا أن الكتاب لا ضرر منه ، فمما كان من ليولا أن أوقف الدعوى وأكد لعلماء الإنسانيات حوله أنه لن يلحق رويخلين أى أذى .

وفى غضون ذلك اتهم بيفر كورن وأنصاره من رهبان الدومينيكان رويخلين أمام محكمة التفتيش فى كولونيا بأنه كافر بالمسيحية وخائن لعهدا ، فتدخل كبير الأساقفة وأمر بإحالة القضية إلى روما التى أحالتها بدورها إلى محكمة سبيير الأسقفية فبرأت ساحة رويخلين . ولجأ الدومينيكان بدورهم إلى روما وأمرت الكليات الجامعية فى كولونيا وارفورت وماينز ولوفان وباريس بإحراق كتب رويخلين .

ولأنه لأمر عجيب — ودليل مبین على الحيوية الثقافية فى ألمانيا فى هذا العصر أن يتصدى للدفاع عن رويخلين عدد كبير من المشهورين وقتذاك : ارازميرس وبيركهaimer وبويننجر وأويكولا مبادوس البازيلي وفيشر أسقف روشستر وأولريخ فون هوتن وموتيانوس وايوبان هس ولوثر وميلانكستون ، بل ودافع عنه بعض كبار رجال الدين من أنصار علماء الإنسانيات كما كان الحال فى إيطاليا . وأعلن الأمراء الامبراطوريون المختارون والأمراء وثلاثة وخمسون مدينة تأييدهم لرويخلين . وجمعت رسائل من المدافعين عنه ونشرت . وذلك مثل « رسائل من رجال مشهورين إلى يوحنا رويخلين » Clarorum virorum pistolae ad Johannem Reuchlin . وفى عام ١٥١٥ أصدر علماء الإنسانيات كتاباً أشد خطراً هو صفحة ٣٢٤ (آخر الصفحة)

أى رسائل من رجال مغمورين إلى الأستاذ المبجل أورتونيوس جراتيوس أستاذ الأدب في كولونيا . وتعد هذه الرسالة من أعظم رسائل في تاريخ الأدب . وأحرزت نجاحاً كبيراً إلى حد أن طبعة موسعة صدرت منها عام ١٥١٦ ثم نشر ملحق لها بعد عام . وادعى المؤلفون أنهم رهبان أتقياء معجبون بجراتيوس وأعداء لروينلين ، وأنفخوا شخصياتهم تحت أسماء مستعارة عجيبة - نيكولاوس كابريموجليوس (حاكم لبن الماعز) ويوهانس بيليفكس (صانع الجلد) وسيمون فورست (السجق) وكونرادوس أونكيبونك . واشتكى الكتاب من السخرية التي وجهها إليهم الشعراء (كما كان يطلق على علماء الإنسانيات الألمان) وذلك بلغة لاتينية أسيئت صياغتها عمداً ، قلدوا فيها أسلوب رجال الأديرة ، وطالبوا في إلحاح بمقاضاة روينلين : وفي الوقت نفسه فضحوا جهلهم المطلق وفضاظة أخلاقهم وغلظة عقولهم ، وناقشوا مسائل تدعو للسخرية في رصانة على نحو ما يفعل أنصار فلسفة الكلام واستشهدوا بآيات من الكتاب المقدس لتخفيف العبارات البذيئة - وسخروا بلا تيقظ من الاعتراف السمعى وبيع صكوك الغفران وتبجيل مخلفات القديسين ومن سلطة البابا ، وهي الموضوعات نفسها التي تناولها الإصلاح الديني . وجارت كل الأوساط الأدبية في ألمانيا في التعرف على شخصيات مؤلفي هذه المجلدات : ولم يسلم الناس إلا فيما بعد بأن كروتوس روبيانوس الارفورتى وهو أحد مريدى موتيانوس ، قد كتب معظم ما ورد بالطبعة الأولى وأن هوتن كتب معظم ما ورد بالملحق . وتميز ليو العاشر غضباً فحرم قراءة أو حيازة الكتاب وأدان روينلين ولكنه أحل له نفقات محاكمة سبيير (١٥٢٠) ، وانسحب روينلين وهو شيخ منهوك القوى في الخامسة والستين ليعيش في الغمرات ونسبه الناس بغير صخب في غمار تألق الإصلاح الديني .

واختفت حركة علماء الإنسانيات الألمانية بدورها في وهج هذه النار التي أضرمت كل شيء وتعرضت لحرب شعواء من معظم الجامعات من ناحية ومن رجال الإصلاح الديني الذين دخلوا معها في صراع من أجل الحياة من ناحية أخرى ، فدعموا قضيتهم بعميدة دينية ركزت على خلاص الروح في العالم الآخر . ولم تترك للناس إلا فسحة ضئيلة من الوقت يتدارسون فيها الحضارة الكلاسيكية أو يصلحون من أحوالهم في هذه الحياة الدنيا ، وحكم علماء الإنسانيات الألمان على أنفسهم بالهزيمة عندما فشلوا في الارتقاء بالأدب اليوناني إلى مستوى الفلسفة اليونانية .

وبالدخول في جدل عقيم أو الإغراق في صوفية أقل نضجاً من صوفية اكهارت ، لم يتركوا أعمالاً عظيمة إذ أن كتب قواعد اللغة والمعاجم التي كان رويخلين يؤمل أن تكون « أثراً خالداً له يبقى أكثر من النحاس الأصفر » سرعان ما طويت في غياهب النسيان . ومع ذلك فن يدري أن لوثر كان يجرؤ على أن يطلق قذائفه التي تشبه قذائف داود على تيتزل والبابوات إذا لم يكن عقل ألمانيا قد تحرر إلى حد ما من الرعب من أنصار الكنيسة الرومانية الكاثوليكية على يد علماء الإنسانيات . لقد كان أتباع رويخلين وموتيانوس أقلية قوية في أرفورت حيث درس لوثر لمدة أربع سنوات وأصبح أعظم شاعر ألماني في هذا العهد وتغذى بلبان علم الإنسانيات رسولا متحمسا للإصلاح الديني .

٧ - أولريخ فون هوتن

لم يكن هناك عمالة في عالم الأدب الألماني في هذا العهد قبل لوثر ، إذ لم يكن هناك سوى حيوية وخصب عجيبين : وكان الشعر يكتب ليقراً جهرة . ومن ثم كان يلقي ترحيباً في الكوخ وفي القصر . واستمر تمثيل

مسرحيات العشاء الربانى وآلام المسيح ، التى يغشاها ورع شديد مموه باهتمام قوى بالفن الدرامى .

وما أن حل عام ١٤٥٠ حتى كانت الدراما الشعبية الألمانية قد تحولت نحو التعلق بالدنيا إلى حد كبير . وتضمنت حتى فى خلال التمثيليات الدينية ، هزليات ساذجة ، وأحياناً فاضحة ، من « الفارس » ، وشاع المرح فى الأدب وانتشرت نوادر تيل أولنشبجل وهنره فى ألمانيا وقتذاك ، وهو المخادع الجوال ، (ومعنى اسمه حرفياً مرآة البومة) ، ولم ينبج من حيله المرحه عامى أوقسيس ؛ ففى عام ١٥١٢ نشرت نوادره وأظهر العصر والأدب بل والفن ، الرهبان والقسس وهم يسحبون إلى جهنم ، وازدهر المهجاء فى جميع الأشكال الأدبية .

وأشد هجاء فى هذا العهد تضمنته مسرحية سفينة الحمقى بقلم سباستيان برانت ، ولم يكن فى وسع أحد أن يتوقع عملاً يشيع فيه مثل هذا المرح من أستاذ فى القانون والأدب الكلامى فى بازيل ؛ فقد تخيل برانت أسطولا (نسيه فى رحلة وأطلق عليه فيما بعد اسم سفينة) مزوداً برجال بلهاء، ويحاولون أن يشقوا عباب بحر الحياة ، ويحاول أبله وراء الآخر أن يسير فى اختيال على المسرح ، وتحمل طائفة تلو أخرى سوط لدعات كلمات المحامى الغاضبة — الفلاح والميكانيكى والشحاذ والمقامر والبخيل والمرابى والفلكى والمحامى ومدعى العلم والاحتال والفيلسوف والقسيس . ومثلت المسرحية أيضاً زهو الرجال الجشعين وكسل الطلبة وخسة التجار وخيانة الأجراء — كل هؤلاء ينالون نصيبهم من الضربات ، ويحتفظ برانت باحترامه للكاثوليكي الورع المستمسك بعقيدته والذى يرقب حياته على أساس الظفر بالحنة .

وقد طبع هذا الكتاب طبعة فاخرة، وزين بالصور التى توضح كل فقرة هجاء لاذعة فى الحكاية، وحاز الكتاب قصب السبق فى غرب أوروبا، وترجم

إلى اثنتى عشرة لغة ، وكان أوسع الكتب انتشاراً فى هذا العهد بعد الكتاب المقدس .

وإذا كان برانت قد مس بسوطه رجال الدين برفق فإن توماس مورنر ، وهو راهب فرنسيسكانى ، هاجم الرهبان والقسس والأساقفة والراهبات بهجاء مقنع فاق فى حدته وغلظته وذكائه هجاء برانت . ولقد قال مورنر إن القس يعنى بالمال أكثر مما يعنى بالدين ، وهو يتملق رعايا أبرشيته من أجل الحصول على كل دائق ، ثم يدفع مقداراً مما جمعه إلى الأسقف التابع له ليسمح له باتخاذ خلية ، أما الراهبات فإنهن يمارسن الحب خفية ، والراهبة التى تنجب أكبر عدد من الأولاد تختار رئيسة للدير . ومهما يكن من أمر فإن مورنر اتفق فى رأى مع برانت على وجوب الإخلاص للكنيسة واتهم لوثر بأنه أشد بلاهة . ورثى لضعف الإيمان عند المسيحي والفوضى الضاربة أطنابها فى العالم الدينى ، وذلك فى قصيدة مؤثرة بعنوان « ضعف الإيمان عند المسيحيين » .

وإذا كانت الشعبية الهائلة التى حظيت بها هذه القصائد الهجائية قد أمطت اللثام عن الاحتقار الذى يكنه حتى الكاثوليكيين المخلصين لرجال الدين ، فإن أدب الهجاء العنيف الذى تميز به أولريخ فون هوتن قضى على كل أمل فى أن تصلح الكنيسة من نفسها ، ودعا إلى الثورة الصريحة . وقد ولد أولريخ من أسرة تنتمى إلى الفرسان فى فرانكونيا ، وعند ما بلغ الحادية عشرة من عمره أرسل إلى دير فولدا على أمل أن يصبح راهباً . وبعد وضعه بست سنوات تحت الاختبار هرب (١٥٠٥) وعاش عيشة طالب متجول وأخذ يؤلف الشعر ويلقى القصائد يستجدى بها العيش ، وكثيراً ما يقضى ليلة بلا مأوى ، وإن كان لا يعدم الوسائل لمطارحة فتاة الغرام وهى فتاة تركت بصمتها فى دمه . وأنهكت الحمى جسده أو كادت ، وكثيراً ما كانت تشل ساقه اليسرى من أثر القروح والأورام ، وكان حاد الطبع يستثار بسهولة ، مثله فى ذلك مثل كل عليل ، ومع ذلك وجده أيوبان هسى محبوباً كما هو ، واصططحبه أسقف

كريم إلى فيينا حيث رحب به علماء الإنسانيات ، ولكنه اختلف معهم وانتقل إلى إيطاليا . ودرس في بافيا وبولونيا ، وصوب قذائف من القصائد الساخرة ضد البابا جوليوس الثاني ، وانضم إلى جيش ألماني من الغزاة لكي يحصل على الطعام ، ثم قفل أدراجه عائدا إلى ألمانيا وهو في أقصى حالات الإعياء .

وابتسم له الحظ إلى حين في ماينز : فقد كتب قصيدة مدح في كبير الأساقفة الشاب ألبرخت فتلقى منه ٢٠٠ جيلدر (٥٠٠٠ دولار ؟) اعترافاً بالجميل . وكان بلاط ألبرخت وقتذاك يعج بعلماء الإنسانيات ، وكان الكثيرون منهم من المفكرين الأحرار الذين لا يتمتعون بالاحترام . وبدأ هوتن هناك يكتب مقالاته في كتاب « رسالة من رجال مغمورين » ، والتقى هناك أيضاً بارازموس ، وحبب العالم الكبير له بسعة اطلاعه وذكائه وسحره . وبدأ مرة أخرى ينشد شمس إيطاليا مستعيناً بالمال الذي حصل عليه من ألبرخت والمعونة التي تلقاها من والده الذي رق لحاله ، وكان في كل محطة يتوقف فيها ينسف طائفة علماء اللاهوت والربان المنافقين الفاسدين . « وأرسل من عاصمة البابوية إنذارا إلى كروتوس وروبيانوس هذا نصه : أرجو أن تتخلى يا صديقي عن رغبتك في مشاهدة روما ، فإن ما تشده هناك لم يعد موجودا ... لقد تعيش من السلب والنهب ، وقد ترتكب جريمة قتل أو تنتهك حرمة المعابد ... وقد تعربد وتستسلم للشهوات وتنكر وجود الله في السماء ، ولكن إذا أتيت إلى روما محملا بالمال فتق بأنك ستلقى من الناس أعظم احترام . إن الفضيلة وبركات السماء تباع هنا ، بل إن في وسعك أن تشتري الحق في أن ترتكب ماشئت من الخطايا في المستقبل ، وليس من شك في أنك تكون معتوها لو تمسكت بالأخلاق الطيبة ؛ فالناس العقلاء سيكونون أشرا را » .

وفي سخرية مرحة أهدي إلى ليو العاشر (١٥١٧) طبعة جديدة من رسالة فالو المدمرة عن « هبة قسطنطين » الخيالية ، وأكد للبابا أن أغلب أسلافه من البابوات كانوا طغاة مستبدين ولصوصاً ومغتصبين ، وأنهم حولوا

الجزء في العالم الآخر إلى دخل لأنفسهم ، وقد وقع هذا العمل في يد لوثر فزاد من سخطه على البابوية .

وعلى الرغم مما تتسم به كثير من قصائد هوتن من عنف وقلح ، فإنها حققت له شهرة موزعة على أنحاء ألمانيا . وعندما عاد إلى الوطن عام ١٥١٧ أضافه كونراد بويتنجر في نورمبرج وتوج ماكسميليان ، بناء على اقتراح هذا العالم الثرى ، هوتن أميراً للشعراء . وألحقه ألبرخت وقتذاك بخدمته الدبلوماسية وأرسله في بعثات مهمة وصلت إلى باريس . وعندما عاد هوتن إلى ماينز (١٥١٨) وجد ألمانيا في ثورة بسبب مقالات لوثر عن صكوك الغفران ، ولا بد أنه ابتسم عندما رأى صاحبه كبير الأساقفة المستهين بالأمور متورطاً في موقف لا يحسد عليه . وكان لوثر قد استدعى إلى أوجسبورج لمواجهة الكاردينال كاجيتان ، وليدفع عن نفسه تهمة الهرطقة . وتردد هوتن ، فقد كان مرتبطاً ، عاطفياً ومالياً ، بكبير الأساقفة ، ولكنه أحس بنداء الحرب في دمه فامتطى جواده وسافر إلى أوجسبورج .

٨ - الكنيسة الألمانية

ترى كيف كانت الكنيسة الألمانية في شباب لوثر ؟ لقد ظهرت إشارة في استعداد كبار رجال الدين أن يتقبلوا النقد الموجه للكنيسة ونقادها . وكان هناك بعض الملحنين المشتتين ضاعت أسماؤهم في غمرات الزمن ، ويذكر أرازموس «هناك بيننا أناس يُعتقدون مثل أبقرراط أن الروح تموت مع الجسد» ، ووجد بعض المتشككين بين علماء الإنسانيات ، ومتصوفون أنكروا ضرورة الكنيسة أو القسس كوسطاء بين الله والإنسان ، وأكدوا التجربة الدينية الباطنية كبديل للشعائر والقربان المقدس ، وكانت هنا وهناك جيوب صغيرة من الولدانيين الذين أنكروا التفرقة بين القسس والعامة ، وكان في شرق ألمانيا

بعض المسنين الذين وصفوا البابا بأنه خصيم للمسيحية ، وفي البحر دمع
أخوان هما جون وليفين بن أوجسبورج صكوك الغفران ووصفوها بأنها
أمر يدعو إلى السخرية (١٤٦٦) .

وأعلن جوهان فون فييل ، وهو أستاذ من ارفورت ، في
مواعظه أن الجبر والاختيار بفضل الله ، ورفض الاعتراف بصكوك الغفران
والقربان المقدس والصلوات للقديسين وأعلن : « إنى لأحتقر البابا
والكنيسة والمجالس ولا أعبد إلا المسيح » . وأدائه محكمة التفتيش ، فترجع عما
قال ، ومات في السجن (١٤٨١) ، وقد ناقش فيسيل جانسفورت ، الذى
اشتهر جداً باسم جوهان فيسيل ، الاعتراف والحل ، وصكوك الغفران
والمطهر ، واتخذ من الكتاب المقدس الحكم الوحيد على العقيدة وجعل الإيمان
المصدر الوحيد للخلاص ، وإذن فهانحن أولاء أمام لوثر فى جملة . وفى عام
١٥٢٢ قال لوثر : « لو كنت قرأت مؤلفات فيسيل من قبل لظن أعدائى أن
لوثر قد اقتبس كل شيء منه ، إذ أن آراءنا تتفق إلى حد كبير » .

ومع ذلك فإن الدين فى جملته كان يزدهر فى ألمانيا ، وكانت الغالبية العظمى
من الناس محافظين ، وكانوا أتقياء بين خطاياهم وكنوسهم ، وكادت الأسرة
الألمانية أن تصبح كنيسة فى ذاتها ، إذ كانت الأم تقوم بمهمة الواعظ والأب
يقوم بدور القسيس ، وكان أفرادها يكثرون من الصلاة ، وكانت كتب
الأسرة الخاصة بالتعبد لا يخلو منها بيت . أما الذين لا يستطيعون القراءة
فكانت توفر لهم كتب مصورة Biblia Pauperum تصور قصص المسيح
ومريم والقديسين ، وكانت صور العذراء عديدة كصور عيسى ، والتسايح
قتل فى كثير من التكرار المشوب بالأمل . وأسس جاكوب شبرنجر عضو
محكمة التفتيش جمعية من الرهبان لتكرار تلاوتها ، وثمة صلاة ألمانية كانت
تخاطب الثالث الوحيد المشهور : « المجد للعذراء والأب والابن » .

وكان بعض رجال الدين متدينين كالناس ، ولا بد أنه كان هناك بعض القسس المخلصين للعقيدة — ولو أن أسماءهم قلما كانت تسمع وسط ضجيج الشر — يمكن أن ينشروا مثل هذا الورع الذائع أو يدعو به بين الناس . وكان لقسيس الأبرشية ، حظية أو زوجة يعترف بها القانون العام . ولكن يبدو أن الألمان الذين لا يخشون الإقدام قد اغتفروا هذا الصنيع باعتباره سلوكا أفضل من التخالط الجنسي ، ثم ألم يتمرد البابوات أنفسهم في هذا العهد الذى شاعت فيه الشهوات على العزوبة ؟ أما بالنسبة لرجال الدين النظاميين ، وهم هؤلاء الذين تعرضوا للخضوع لنظام صارم في الدير ، فإن كثيراً من طوائفهم شغلوا أنفسهم وقتذاك بالإصلاح الذاتي الجاد . وقد استقر رهبان البندكتيين في شيء من رغد العيش بالدير ونعموا بالترف الدنيوى ، واستمر فرسان التيوتون في انحلالهم الأخلاقى وقساواتهم العسكرية وأطماعهم الإقليمية ، ولكن رهبان الدميديكان والفرنسيسكان والرهبان الأوغسطينيين عادوا إلى التزام قواعدهم وقاموا بأعمال كثيرة في مجال البر العملى ، وكان الزهاد الأوغسطينيون أشد الرهبان حماسة لهذا الإصلاح الدينى ، وكانوا في الأصل نساكا أو رهبانا زاهدين ولكنهم تجمعوا فيما بعد طوائف وحافظوا في إخلاص واضح على عهودهم الرهبانية من تقشف وعفة وخضوع ، وتعلموا إلى درجة تكفى لشغل كثير من كراسى الأستاذية في الجامعات الألمانية . وكانت تلك هى الطائفة التى اختار لوثر أن ينتمى إليها عندما قرر أن يصبح راهبا .

وكانت الشكاوى ضد رجال الدين الألمان موجهة أساسا إلى البطارقة بسبب ثرائهم وانغماسهم في التعميم الدنيوى . فقد كان على بعض الأساقفة والرهبان أن يهيموا على اقتصاد مساحات كبيرة وصلت إلى حوزة الكنيسة وإدارتها ، وكانوا سادة إقطاعيين متوجين أو مكملين ، غير أنهم لم يكونوا

دائماً متسامحين ، وكان رجال الدين هؤلاء يتصرفون مثل أناس تعلقت قلوبهم بالدنيا لاكرجال نذروا أنفسهم لعبادة الله ، ويزعم الرواة أن كثيراً منهم كانوا يذهبون في مركباتهم لصحبة حظاياهم إلى مجانس الدايت الإقليمية أو الاتحادية . وقد لخص جوهانس جانس ، وهو بطريرك كاثوليكى متعلم ومؤرخ مساوئ الكنيسة الألمانية قبل عهد الإصلاح الدينى ، ولعله كان قاسياً جداً فى حكمه فقال :

« إن التناقض بين الهيام بالتقوى والجشع الدنيوى ، بين الزهد الورع والتماس النفع الذى يتنافى مع الدين ، يبدو بوضوح بين صفوف رجال الدين كما يبدو بين طوائف المجتمع الأخرى . وفضلاً عن هذا فإن الوعظ ورعاية الأرواح كانا يلقيان إهمالاً تاماً من كثيرين من القسس ورجال الدين . واستشرى الشح والخطيئة الفادحة بين رجال الدين من جميع الرتب والطوائف فى غمرة تلهفهم على زيادة الموارد الدينية والدخول والضرائب والأجور العائدة إلى أقصى حد ، وكانت الكنيسة الألمانية أغنى الكنائس فى العالم المسيحى ، ويقدر البعض أن ما يقرب من ثلث الأراضى فى البلاد كان بين أيدي الكنيسة ، وأدى هذا إلى أمر يستحق اللوم بين السلطات الدينية ، إذ أخذت تنشئ دائماً ممتلكاتها وكانت مبانى الكنيسة ومؤسساتها تستوعب أكبر جزء من الأرض فى كثير من المدن .

وفى قلب الهيئة الكهنوتية ذاتها كان هناك أيضاً تناقض ملحوظ فى الدخول ، فقد كانت الطوائف الدنيا من رجال الدين فى الأبرشيات ، الذين كانوا يستمدون رواتبهم الاسمية فقط من ضرائب العشور غير الثابتة ، يضطرون فى كثير من الأحيان — بدافع المسغبة ، إن لم يكن بدافع لإغراء الحرص — إلى الاشتغال بتجارة لا تتفق بتاتاً مع مناصبهم ، وكانت تعرضهم إلى الاحتقار من رعايا أبرشياتهم ، ومن جهة أخرى فإن الطوائف العليا من رجال الدين كانت

تنعم بثناء فاحش لا حد له ، وكان كثير من رجالها لا يعانوك شيئاً من وخر الضمير في التظاهر بطريقة ممقوتة تثير غضب الشعب وحسد الطبقات العليا وازدراء كل العقول الجادة . . وجارت الأصوات بالشكوى في كل مكان من الارتزاق المهين بالمقدسات . . ومن المبالغ الضخمة التي ترسل على دفعات ، ومن الضرائب التي تدفع للبائس من الأرباح السنوية ، ومن مال الرشوة .

وبدأ إحساس مرير بمقت الإيطاليين يتفشى شيئاً فشيئاً ، حتى بين رجال من أمثال كبير الأساقفة برتولد فون هنيبرج ، ممن كانوا أبناء مخلصين للكنيسة المقدسة . وكتب يقول في اليوم التاسع من سبتمبر عام ١٤٩٦ : « يجب على الإيطاليين أن يكافئوا الألمان على خدماتهم وألا يستنزفوا دماء الهيئة الكهنوتية بسلب الذهب على دفعات » .

وكان من الممكن لألمانيا أن تغتفر لأساقفتها تعلقهم بالدنيا ، لو أنها أعفيت من ادعاءات البابوات ومطالبهم ، وقد استاءت روح القومية الناهضة من مزاعم البابوية أنها لا تعتبر أى إمبراطور حاكماً شرعياً إلا إذا أيده البابا ، وأن من حقها خلع الأباطرة والملوك إذا أرادت . واستمر الصراع قائماً بين السلطين الزمنية والدينية على التعيينات في المناصب وعلى تداخل الاختصاصات بين القضاء المدني والمحاكم الأسقفية ، وعلى حصانة رجال الدين من تطبيق جميع التشريعات المدنية تقريباً . وتطلع الأشراف الألمان في غيظ وحسد لممتلكات الكنيسة الغنية ، وأسف رجال الأعمال لأن الأديرة التي تطالب بالإعفاء من الضرائب تنافسهم في مجالس الصناعة والتجارة . وكان النزاع في هذه الرحلة قائماً على أمور مادية أكثر مما هو قائم على اختلافات دينية ، وهاهو مؤرخ كاثوليكي آخر يقول :

« كان إجماع الرأى في ألمانيا أن المحكمة الرومانية ركزت الضغط في مسألة

الضريبة إلى درجة لا تحتمل وارتفعت الشكوى مرة بعد أخرى من أن مستحقات المحكمة العليا والضرائب التي تدفع للبابا من أرباح العام . . . ونفقات الرسامة للكهان قد زيدت بلا مبرر أو توسع فيها بطريقة غير قانونية ، وأن صكوك غفران جديدة كثيرة صدرت دون موافقة أساقفة البلد ، وأن ضريبة عشور تلو أخرى قد فرضت من أجل حرب صليبية ثم حولت إلى غرض آخر . بل إن رجالا كرسوا حياتهم للكنيسة والمحكمة البابوية . . . كثيراً ما أعلنوا أن شكواى الألمان من روما كانت في معظمها قائمة على أساس سليم من وجهة النظر المالية » .

وفي عام ١٤٥٧ وجه مارتن ميير رئيس الوزراء خطاباً غاضباً لخص فيه المتاعب التي تعاني منها ألمانيا من جانب المحكمة الرومانية قال فيه :

إن اختيار البطارقة كثيراً ما يؤجل دون داع ويحتفظ بالمراتب الرفيعة والمناصب للكرادلة وأمناء سر البابا ، وهاهو الكاردينال بيكولوميني نفسه قد منح أرضاً براحا في ثلاث مقاطعات ألمانية بصورة غير عادية لم يسمع بمثلها من قبل . كانت الوعود بالمناصب والإقطاعات تهبذ بلا حساب ، وكانت الجزية والضريبة تجمع بالتعسف ، ولا يمنح المدينون مهلة للسداد ، ومن المعروف أن الضرائب التي تجبي كانت أكثر من المبالغ المستحقة ، وكانت الأستقفيات تمنح لا لأكثر رجال الدين جدارة بل لصاحب أكبر عطاء . وكانت صكوك غفران جديدة تصدر يومياً ، وضرائب عشور للحرب تقرض دون استشارة البطارقة الألمان لا لغرض إلا جمع المال . وكانت القضايا التي ينبغي أن تعرض في الوطن تحول بسرعة إلى المحكمة الرسولية ، وقد عومل الألمان كما لو كانوا برابرة أغبياء وأغنياء واستنزفت منهم الأموال بألف حيلة مأكرة وقد ظلت ألمانيا سنوات طويلة تتمرغ في التراب تلتجب على فاقها ومصيرها الحزن ، أما الآن فإن أشرافها استيقظوا من النوم وقرروا أن يتخلصوا من نير العبودية وأن يستعيدوا حريتهم العريقة .

وعندما أصبح الكردينال بيكولوميني عام ١٤٥٨ البابا بيوس الثاني ،
واجه هذا التحدى ؛ فطلب من ديترفون ايزنبورج مبلغ ٢٠٥٠٠ جيلدر قبل
أن يؤيد ترشيحه لمنصب كبير أساقفة ماينز (١٤٥٩) ، فما كان من ديتر
إلا أن رفض دفع المبلغ بحجة أنه تجاوز كل ما كان يدفع من قبل ، فأصدر
البابا قراراً بحرمانه من غفران الكنيسة ، ولكن ديتر تجاهل هذا الحرمان
وأيده في هذا بعض أمراء من الألمان ، وعهد ديتر إلى محام من نورمبرج
يدعى جريجور هايمبرج بإثارة الرأي العام لمنح المجالس الدينية سلطة أعلى
من سلطة البابوات ، فذهب هايمبرج إلى فرنسا لرفع دعوى جماعية ضد
البابوية ، وخيل للبعض فترة ما أن الأمم الشمالية سوف تتصل من الولاء
لروما ، ولكن عملاء البابا انتزعوا من الحركة الواحد بعد الآخر من أنصار
ديتر وعين بيوس مكانه أدولف الناساوى . واشتبك جيشا الأسقفين في
حرب دموية هزم فيها ديتر ، ووجه إلى الزعماء الألمان تحذيرا بأنهم مالم
يقفوا معاً فلأنهم سيسامون الخسف والضميم واحدا بعد الآخر . وكان هذا
الإعلان لإحدى الوثائق الأولى التي طبعها جوتنبرج .

ولم يهدأ استياء الألمان بهذا النصر الذى أحرزه البابوات ، وبعد أن
تحول مبلغ كبير من المال من ألمانيا إلى روما في اليوبيل عام ١٥٠٠ طالب
مجلس الدايت في أوجسبورج بضرورة إعادة هذا القدر من المال إلى ألمانيا .
وشكا الإمبراطور ماكسميليان من أن البابا سحب من ألمانيا دخلا يزيد مائة
مرة عما يستطيع هو نفسه أن يجنيه منها . وفى عام ١٥١٠ ، وكان وقتذاك
في حالة حرب مع البابا يوليوس الثاني ، طلب من عالم الإنسانيات ويمفيلنج
إعداد قائمة بشكاوى ألمانيا ضد البابوية ، وفكر في فترة من الزمن أن يقترح
فصل الكنيسة الألمانية عن روما ، ولكن ويمفيلنج أثناه عن عزمه بحجة أنه
لن يجد تأييداً دائماً من الأمراء ، ومع ذلك فإن كل التطورات الاقتصادية في
هذا العهد مهدت لثورة لوثر . وليس من شك في أن اختلافا في المصالح

المادية شهد أيضاً للإصلاح الديني في ألمانيا ، فطاب الألمان بوضع حد لتدفق الأموال الألمانية إلى إيطاليا ، أى إلى نهضة إيطاليا تمول الشعر والفن بالذهب الوارد من وراء جبال الألب .

وواكبت حركة المعادة لرجال الذين الورع بين الناس . وهاهو راع أمين يكتب « ان روحاً نائرة من الكراهية للكنيسة ورجال الدين قد تفتشت بين الجماهير في مختلف أرجاء ألمانيا . . . إن صيحة الموت للقساوسة » التي طالما ترددت في السر همساً أصبحت الآن كلمة السر التي تردد كل يوم . كان هذا العداء المعروف حاداً إلى درجة أن محكمة التفتيش التي ارتفع شأنها وقتذاك في إسبانيا كانت لا تكاد تجرؤ على إدانة أى أحد في ألمانيا . وصدرت كتيبات عنيفة للهجة حافلة بالهجوم على الكنيسة ، وكان رقيقاً بالكنيسة الألمانية بقدر ما كان عنيفاً على الكرسي الأسقفي الروماني .

وانضم بعض الرهبان والقساوسة إلى حملة الهجوم ، وأثاروا أبرشياتهم ضد الترف الذي يعيش فيه كبار رجال الدين . وجاء الحجاج العائدون من يوبيل عام ١٥٠٠ إلى ألمانيا بقصص فظيعة — ومبالغ فيها في كثير من الأحيان — عن البابوات المنحليين والسموم البابوية وصخب الكرادلة وعن وثنية وخسة عامة ، وأقسم كثير من الألمان أنهم سيسحقون هذا الطغيان مرة أخرى ، كما حطم أسلافهم سلطان روما عام ٤٧٦ . وتذكر آخرون ما لقيه الإمبراطور هنري الرابع على يد البابا جريجوري السابع من إذلال في كانوسا ، واعتقدوا أن الوقت قد حان للانتقام ، وفي عام ١٥٢١ قال الياندر ، القاصد الرسولي للبابا ، محذراً ليو العاشر من ثورة وشيكة ضد الكنيسة : « إنه منذ خمس سنوات سمع من كثير من الألمان أنهم لا ينتظرون إلا أحد الحمقى ، ليفتح فمه ضد روما » .

وكانت آلاف العوامل والمؤثرات الكهنوتية والفكرية والعاطفية

والاقتصادية والسياسية والأخلاقية ، تتجمع بعد قرون من التعويق والاضطهاد في دوامة تقذف بأوروبا في أعظم فورة شهدتها منذ غزو البرابرة لروما . ثم إن إضعاف البابوية بالنفي في أفنيون والانقسام في صفوف البابوية وانهيار النظام في الأديرة وترهب رجال الدين والترف الذي يرفل فيه البطاركة وفساد مجالس القضاء الرومانية ووجوه النشاط المتسم بالإقبال على الدنيا للبابوات وأخلاقيات الكسندر السادس وحروب يوليوس الثاني والمرح المستهتر الذي عرف به ليو العاشر والاتجار في المخلفات المقاسة وبيع صكوك الغفران وانتصار الإسلام على العالم المسيحي في الحروب الصليبية إلى جانب الحروب التركية وازدياد الاتصال بالعقائد غير المسيحية وتدفق العلم العربي والفلسفة العربية وتدهور مكانة الفلسفة الكلامية في ظهور فلسفة سكوتس اللاعقلانية وشك أوكهام وفشل حركة التوفيق في الإصلاح والكشف عن الحضارة الوثنية القديمة واكتشاف أمريكا واختراع الطباعة وانتشار القراءة والكتابة والتعليم وترجمة الإنجيل وقراءته والإدراك الجديد للتناقض بين فقر الرسل وبساطتهم وبين ثراء الكنيسة الفاحش والثراء المتزايد لألمانيا وإنجلترا واستقلالهما الاقتصادي ونمو طبقة وسطى ترفض التسليم بقيود رجال الدين ومزاعمهم والاحتجاج على تدفق الأموال إلى روما وتحويل القانون والحكم إلى الأغراض الدنيوية وفتوة القومية وتقوية الملكيات والتأثير القومي للغات والآداب الشعبية وتفاعل الميراث الفكري الذي خلفه الوالدانيون وويكلييف وهس والمطالبة الصوفية بالتخفيف من الطقوسية في سبيل ديانة تلتحم بالشخصية والروحية وتتسم بالاتصال المباشر بالإنسان . . . إن هذه كلها كانت تتحد في سيل عارم سوف يحطم عرف القرون الوسطى الذي كان أدنى إلى القشرة ، وسوف يحل جميع المعايير والروابط ويمزق أوروبا إلى أمم ومذاهب ، وسوف يكتسح أمامه أكثر فأكثر دعائم المعتقدات المأثورة وما تقدمه من عزاء ، ولعلها تؤذن ببداية النهاية لسلطان المسيحية على الحياة العقلية للرجل الأوربي .

لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفة من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديموقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى. واستمتعنا أيضاً استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم. لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه. ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمون بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاضم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة.

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...

